رواية
العهد
عبد الرحمن الهلالي

رواية العهد

تأليف
عبد الرحمن الهلالي

مراجعة لغوية
محمد حسن

تصميم الغلاف
إسراء أشرف

(إهداء)

إلى كل أولئك الذين أدركوا أن القلوب التى عاهدوها ما زالت تعيش على بصيص من أمل الانتظار، فعزموا على الوفاء - مهما كانت الصِعاب- حتى لا يطفئوا فيها ذلك النور الجميل!

(١)

﴿مِنْـبَـرٌ وجِـهَـادٌ﴾

في ساعة متأخرة من الليل الذي بسط أذرعَ ظلامه الأسود على كل شيء حتى أخفاه، وأكل بصمتِه كلَّ صوتٍ حتى سادَ السكونُ، فأصبحت الدنيا سوداءَ موحشةً، فَرَّ الكل منها إلى عالمٍ آخرَ، فلا جفن يفتح لعينه فيها بابًا إلا في ذلك العالم.. عالم الأحلام.

***

دَوَتْ صرخةٌ مُفزِعَةٌ وعَلَتْ حتى كسرت حاجزَ الصمت، كأنها الرعب قد تجسَّد في رداء من الصوت:

"لا! ، اتركوه.. لا تفعلوا هذا به"!

خرجت الصرخةُ شديدةً من صدر (عمَّار) صاحب الخمس سنوات، فهزت كلَّ أنحاء المنزل حتى وصلت إلى أمه في غرفتها وهزَّت قلبها كالزلزال ففزعت من نومها ثم قفزت من على سريرها و ركضت نحو غرفة صغيرِها؛ تستطلع ما حل به.

فتحت باب غرفته فوجدته يتألم وكأنَّ تعابير وجهه تستنجد بها وتقول بكل ما فيها من طاقة "أنقذيني"!

كانت قطرات العرق عالقةً على جبينه، وجسده ينتفض على سريره كأنما يفر من موته، ويضرب بيديه في الهواء ويصيح:

"أبي.. أبي"!

نادت (سميَّةُ) على ولدها وانتشلته من براثن كابوسه الذي كاد يفتك به ثم جلست جوار صغيرها تمسح على شعره وهي تضمه إلى صدرها في حنان بالغ وقالت:

– ما بك يا ولدي؟.. لا بأس فأنا هنا.

***

فتح الفتى جفونه وشفتاه ترتعشان من الخوف، وضم قدمه إلى صدره، ثم أمسك بأنامله في أطراف ثوبها.

– أنا خائف يا أمي.

– ماذا هناك يا عمار؟

– الكابوس.. الكابوس يا أمي!

مسحت الأم على رأس ولدها وضمتها إليها، وقالت في حنان بالغ:

– أنا هنا يا عمار، لا تخف.. لا تخف.

ثم نامت بجواره وهي تضمه إلى صدرها وتتمتم بآيات القرآن حتى غطَّ في نوم متحصنًا بذراع أمه.

بعد أحدَ عشرَ عامًا، في ظلمة الليل، جذب عمار من نومه نفس الكابوس الذي لازمة منذ طفولته، استيقظ في هلع ونادى مجددًا على أبيه وقطرات العرق تتساقط من على جبينه!

***

جاءت سمية وسألته:

- هل أفزعك الكابوس مجددًا؟

رد الفتى بنفس متقطع كأنه كان يعدو:

- نعم.

- لا عليك يا عمار، قم وتوضأ واستعذ بالله من الشيطان، لم يعد على الفجر إلا القليل.

قام عمارُ وتوضأ ثم هدأ، بعد ذلك جلس مع أمه يتحدث قليلًا حتى زال هلعه واطمأن قلبه، ثم صلَّى الفجر ونام.

عندما أرسلت الشمس أشعتها استيقظت سميةُ، أرادت أن توقظَ عمار كعادتها، لكنها عندما نظرت إليه، تذكرت ذلك اليوم الثقيل، يوم خَسِرَتْ أغلى شيء!

ثم تذكرت عمار وهو طفل يبكي، تمكنت منها تلك الصورة بمشهدها اللعين، وتذكرت أثرها العميق في نفسه فأشفقت عليه لما رأته مطمئنًا بعد فزع، فتركته ليكمل نومه.

خرجت سمية تستطلع الصباح، ثم وضعت في ذلك الطبق الصغير في يمين شرفة المنزل حبيبات تطفو على الماء الذي فيه لتأكلها الطيور، ثم جلست تقرأ في وردها من القرآن.

تأخر عمار في نومه حتى اشتدت الشمس، ولما سمعت سمية الصوتَ النديَّ آتٍ من المئذنة يتلو آيات من القرآن قبل النداء على الصلاة.

عندها أدركت أنه تأخر، دخلت عليه وأيقظته؛ حتى ينزل إلى المسجد.

- الجمعة يا عمار، قم إلى الصلاة.

تثاءب الفتى في ثِقل ثم قام وقال:

- حاضر يا أمي.

توضأ وارتدى جلبابه الأبيض ثم وضع على رأسه عمامته البيضاء، وذهب إلى المسجد الكبير الذي يفصله عن بيته عدة شوارع.

عمار فتى ذكي يكثر التأمل فيما حوله من أشياء، وكثيرًا ما كانت تجذبه طبيعة بلاده الخلَّابة، كان يحب هذه البلاد بشدة وتعلق بها بشدة.

أحبها كما لم يحب شيئًا في حياته، وكثيرًا ما كان يدركه البكاء كلما شاهد ما بها من ظلم وقهر ووجع.

في طريقه إلى المسجد كان معتادًا أن يمر على صديقه (أمين) ليذهبا معًا؛ فأمين جار عمار وصديقه الوفي، أطول منه قليلاً، له شعر حريري كثيف ووجه منير كالبدر. ورغم أن كلماته كانت قليلة إلا أنها كانت دائمًا ما تصيب مقصده، فهو لا يُخرج الكلمةَ إلا بعد تفكير وروية، وثق فيه عمار وأحبه حبًّا جمًّا؛ لأخلاقه الحميدة ونفسه النقية، وكثيرًا ما قال له: "لك يا أمينٌ من اسمك نصيب؛ فإنك دومًا أمينٌ على الأسرار".

***

في أثناء سير عمار في طريقه، وجد أمينًا ينتظره مرتديًا ثوب الصلاة، فقال له معاتبًا:

- لم تأخرت اليوم؟!، ليست تلك عادتك!

- لقد أتاني الكابوس أمس يا أمين!

- مجددًا؟!

- نعم.

- لا عليك، سينتهي كل هذا يومًا ما يا عمار.

عمار وأمين فتيان في السادسة عشرة من عمرهما، ولكن ما مرَّا به من أحداث جعل العمر رقمًا لا حقيقةَ له؛ فهما يعرفان أن العمر يقاس بالتجارِب والمشاعر لا بالأيام والدقائق.

سارا في طريقهما يتسامران كعادتهما، حاول أمين أن يسلي صديقه ويهوِّن عليه لكنه لم يستطع، حتى أَنِسَتْ عيونُهما بمشهدٍ صُنع من البهجة:

طفلان يلعبان في الحقل.. ولد صغير يختبئ من أخته وهما يلعبان (الغُمَّيضَةَ) وهي تنادي:

- أين أنت؟

فيضحك أخوها في براءة بديعة، ولكنه يحاول جاهدًا أن يكتم فمه حتى لا تفضحه ضحكاته التي سيحملها الهواء إلى أذنيها فتعرف مكانه.

وفي الناحية الأخرى تجري الفتاة الصغيرة بحثًا عنه في كل مكان، يتعالى صوتُها الرقيق الذي يسعد الآذان وينسيها كل ضجيج، تنظر خلف شجرة عالية وهي تقول:

_أأنت هنا؟، أين آآآنت؟

مَدَّتْ في براءة ألف "أنت" فخرجت الكلمة منها طويلة جميلة كجمالها الطفولي البريء، ابتسم لها الصاحبان وقال عمار لها هامسًا:

- هو وراء الشجرة هناك.

- شكرًا لك.

قالتها بحبور شديد ثم وضعت يدها على فمها، وغمست رأسها بين كتفيها من شدة الفرح ناشرة في الأجواء رائحة البراءة، رائحة الطفولة، بل رائحة الجنة!

قال عمار لأمين:

- كأنَّهما ملاكان!

- إنها براءة الطفولة.

❋❋❋

أكملا طريقهما إلى المسجد بنفس راضية مطمئنة، ولكن لم يكد يمر الحقل حتى استحالت نظرات الأمل في جنة الطفلين إلى خوف وكره من لهيب نار رجل الأمن!

وقف أحدهم متعاليًا يرفع بندقيته صوب رجل متجه إلى المسجد ويطلب منه المال بحجة الضرائب:

- أعطني النقود وإلا وضعتك في الأسر!

أخذ يُقسم في ضعفٍ أنه قد دفع ما عليه ولا يملك الآن مالاً، فيهزأ الرجل به ويعنفه، ثم يضربه على وجهه ويهدده:

- سآتيك بعد أيام، وإياك ألَّا تعيدَ المالَ!

أومأ الرجل في ضعف برأسه من الفزع، وهو لا يملك إلا نظرة ساخطة ولسانًا مطيعًا!

لَم تعجب نظرة الرجل الجندي المتفاخر، فاستشاط غضبًا وسبه:

- أيها الهَرِمُ المزعجُ!

ثم لطمه على وجهه مجددًا فسقط هذه المرة بشدة، ونزف وجهه من قوة اللطمة التي رمته على الأرض، ولم يكتفي الجندي بهذا القدر، بل ذهب إليه وجره على الأرض بحدة!

جذبه من رأسه ثم أخذ يركلها بحذائه والرجل يصرخ من شدة الألم، وهما يشاهدان في ألم وعجز، لا طاقة لهما على ردعه ولو حتى بكلمة!

استمر الجندي يضرب المسن حتى ملَّ ثم ذهب، في مشهدٍ من الذل كادت السماءُ تبكي له دماً.

ولما غادر الجندي ذهب الصاحبان وأقاماه، فإذا به يبكي!

نظرا إليه ومسحا له دموعه المتساقطة ثم أجلساه على كرسي، شكرهما الرجل ثم قال في نفسه:

"لقد بكيتُ ونادرًا ما يبكي الرجال ولكنْ سقوطُ دمعةٍ واحدةٍ يعني أن وراءَها سيلًا من الألم.. بحرًا من القهر، والكثيرَ الكثيرَ من الكتمان الذي ما عادت تتحمله العيون!".

ثم رفع رأسه إلى السماء وقال بصوت مبحوح:

- يا رب، إليك الْمُشتكى!

ارتسمت على وجهيهما مَسحة من الغضب قد صَبَتْها ضمائرُ تتوقد نارًا، واستحالت أضلاعهما بنادقَ تتمنى أن تكسر الزناد من قوة الضغط عليه لتخرج الرصاصات في رأس الظالم فتنسفها نسفًا!

أيقظ المشهدُ ذكرى عمار وأعاده إلى لحظات لا تُنسى وذكريات تأبى أن تفارق ذاكرته، بل أصبحت تطارده في كل أحواله، حقيقته وأحلامه.

يومَ فقدَ أباه في مشهد لم يُمْحَ ولن يُمحى من ذاكرته أبدًا!

ذكَّرَهُ المستبدُ بما في قلبه من نار فدمعت عيناه حزنًا وإشفاقًا وشوقًا؛ حزنًا على الرجل، وإشفاقًا على حال بلاده، وشوقاً لأبيه.

- أتبكي يا عمار؟

مسح عمار دمعته:

- لا، لا شيء، دخل في عيني قَذى فقط.

علِم أمين حالَ صاحبه فحاول أن يطيِّبه:

- لا تحزن يا عمار، واصبر فنهاية الصبر فرج.

- أعلم أنها أقدار الله، لكنَّه لم يأمرنا أن نتخاذل، بل يكره ضعفنا، وواجب علينا أن نقاوم وإن لقينا حتفنا، أين المروءة ونحن نرى في كل خطوة شيوخ تهان، ونساء تنتهك أعراضهن، وأطفال يُيَتَّمُونَ؟!

- بُحتَ بما يجب أن يُكتم يا عمار!

- كرهنا الضعف وال...

- إلى أين تذهبان؟

قاطع عمار صوتٌ آتٍ من الخلف، كان لجندي آخر يمشي ساندًا بندقيته على كتفه، ونظر إليهما نظرة كلها احتقار، وأردف ساخرًا بقوله:

- أتحتاج منديلًا يا فتى؟

وأطلق بعدها ضحكة مقززة.

نظر عمار في حنق شديد إليه، فغضب الجندي من نظرته وصرخ فيه:

- إلى أين أنت ذاهب؟

أجابه أمين سريعًا مخفيًا ارتباكه:

- إلى الصلاة.. إلى الصلاة.

- هيا خذه واذهبا.

ولَوَّحَ لهما ببندقيته ذات السكين.

***

أكمل الصديقان سيرهما إلى المسجد، حانقين عليه، راغبين في قتله، حالمين بيوم القَصاص ورد الحقوق، متوجهين إلى خالقهم يستنجدان به ويسألانه أن يرزق أهل هذه البلاد من الصبر والقوة ما يتحملون به مرارة الصعاب، وتساءلا: "متى يأتي الخلاص من ذلك الذي سرق الأرض، واغتال الحلم، وتحكم في كل نواحي الحياة بقوته وظلمه وجبروته؟!"!

تفكر عمار كعادته فيما رأى، ثم نظر إلى السماء وسأل صاحبه:

- هل أدركت الآن الفارق بين الجنة في صورة الطفلين ولعبهما، والنار التي يريد الشياطين أن يضرموها في الجنة لأنهم لا يستطيعون العيش فيها؟

- هذه طباعُ الشياطين، يَهنئون بشقاء غيرهم.

- يا للعجب!؛ كيف لأبناء شعب واحد أن يفعلوا هذا؟! لماذا يَظلمون؟!

- لا تفسير إلا أن نفوسهم مريضة، ودينهم الحياة فقط.

- يومًا ما سيثور البركان، وعندها سيكونون عبرة على جدار الزمن.

_نرجوها عمَّا قريب.. نرجوها!

وصلا أخيرًا إلى المسجد الذي طالما وجد فيه عمار راحة لقلبه كلما عصفت به الهموم، خلعا حذاءيهما ودخلا إلى الساحة، عانقتهما رياحه الطيبة وأدخلت إلى قلبيهما من برودة أرضه الرخامية، وساحته الصافية اللامعة، ترى السحب تجري عليها كأنك تمشي على صفحة السماء.

❋❋❋

بناء المسجد قطعة فنية تدهش كلَّ عين.. جسده مثمن الأضلاع تعلوه قبة ناصعة البياض، اتخذت الطيور منها عُشًّا لها آمنة فيه، كأن المسجد هو القطعة الباقية من جمال البلدة القديم الذي تركه الأجداد.

جسده من اللون الأخضر الذي يريح النفوس، وزخرفته منقوشة بلون فضي جُمِّلتْ بالذهب، كأنه قصر من قصور الجنة!

❋❋❋

دخلا المسجد، ووقف كل منهما يصلي، أخذ عمار يبتهل إلى الله، يدعوه أن يخلصهم من هذا العجز ويشتكي إليه همه، كان ذلك سبيله؛ كي يزيح عن كاهله هذه المشاعر الثقيلة.

يعلم أن الله يسمع ويرى قلبًا يناديه بكل يقين، وكأنَّ هناك في السماوات العلا مَن يقول له: "والله لأنصرنَّك ولو بعد حين!".

ثم جلس ينتظر حتى صعِد الإمام على المنبر وخطب في الناس خطبة جعلت من القلوب حِممًا تأكل في صدر كل رجل:

" إنَّ الحمدَ لله ، نحمده ونستعين به ونستهديه ،ونعوذ بالله من شرورِ أنفسنا ومن سيئات أعمالنا..

اللهم ارزقنا علمًا نافعًا واجعلنا ممن يعملون بعلمهم.

أما بعد..

الآن وقد أصبحت حُرماتنا مباحة، ودماؤنا تسيل في كل ساحة، فمتى نغضب؟!

ألم تسمعوا في يوم عن امرأة خرجت تبتاع حلية تلبسها فسخر منها قوم واعتدوا عليها، وعن ذلك الرجل الذي غلت براكين الغضب في صدره فقتل من اعتدى عليها وقُتل بعدها؟!

ولما وصلت الأخبار إلى نبينا المختار غضب، وحارب لأجلها وأجلاهم جميعًا من البلاد؟!

فكم من النساء اليوم تُنتهك حُرماتُهن، وتُسلبُ أعراضُهن! فمتى نغضب؟!

ألم تسمعوا عن امرأة سُمِعَ صوتُها أسيرةً، فلما وصل الخبر إلى أمير دولتهم حرك الجيوش، كل الجيوش إليها حتى حررها؟!

فكم من امرأة اليوم ترسف في أغلالها علنًا!

أم أنها طُويت مع صفحات الأندلس!

ألم تسمعوا عن ذلك الرجل الذي سمع "وامعتصماه" واحدة فأتي ملبيًا بكل عتاده؟!

فكم يا تُرى صدح في الأفق النداء؟!

ولكن آذاننا أصابها الصمم، فمتى نسمع؟!، ومتى نلبي؟!

هي ميتة واحدة.. هي كرامةٌ واحدة.. ودنيا فانية.. إلى خلود واحد!

فلِمَ الخوف؟!

أما آن للرجال أن يثوروا لنسائهم.. أطفالهم.. أوطانهم.. حريتهم.. كرامتهم.. دينهم؟!

أم أنَّ الرجال قدْ ماتوا في ثوراتهم الأولى؟!

مالكم رضيتم بالضَّيم، وقبلتم الذل والهوان؟!، اعلموا أن الله مع الصادقين المناضلين، واعلموا أنَّ الإيمان يجعل من الصخر قنبلةً، ومن الواحد ألفًا، فلا تهابوهم وهابوا ربَّ الأرباب، أم أنكم تهابون الموت؟!

فيا حسرتي على أقوام تملكتهم الدنيا كأنَّها باقية، ونسوا بأنَّ العيشَ عيشُ الآخرة!

وَقَـدْ كُنَّـا عَلَى مَـرِّ السِّنِيــنَ ... مُلُـوكًا فِى الْمَظَـالِمِ عَادِلِـيـنَ

وَبَاتَ الْيومَ عَدْلُ الأمْسِ ظُلْمًا ... وَلِـلأوغَادِ صِرْنَـا تَـابِعِـينَا

فَجَـاءَ الدَّهـرُ حَقَّـرنى عِتَابًـا: ... أَرَاكُمْ لِلْمَفَاسِـدِ نَاشِـرِيـنَا!

وَذَبَّـحَـنِـى لِسَانُ الْيَومِ ذَبْـحًا ... تُرَى هَلْ مَاتَ قَلْبُ الْعِزِّ فِينَا؟!

هيا أفيقوا يرحمكم الله..

إن جاء الموت في سبيل دعوتنا.. في سبيل حريتنا.. في سبيل ديننا ووطننا وأهلينا.. فيا مرحبًا بالْمَنِيَّةِ، ويا مرحبًا بالمنية، ويا مرحبًا بالمنية"!

***

انتهت الصلاة وأصبحت ساحة المسجد شعلة من الغضب، خرجت منه تظاهرة كبيرة.

كانت الأعداد فيها تستعصي على العد، كأنهم أقوام يخرجون من كل حدب وصوب.. تَرى أولهم ولا ترى آخرهم.

خرج الشباب يطالبون برفع الظلم، والقضاء على الفساد، وكف أذى قوات الأمن وكبار المنتفعين، وكلما مروا بناحية انضم إليهم المزيد، كالسيل الساقط من قمة الجبل.

كانت انتفاضة حقيقية أراد الناس بها إنهاء عصر الظلم، فخرجوا يشعلون الأرض كما اشتعلت صدورهم، كأنَّهم تذكروا بلادهم، واستيقظت –بعد طول سُبات– رجولتُهم.

تحرك الناس في كافة المدن عقب صلاة الجمعة وكأنه اتفاق مسبق.

كانوا يصرخون بأعلى صوت، أعلَنوا رفضَهم لكل ما يحدث من ظلم، مؤكدين أنه يوم لا رجوع فيه؛ إما حرية وإما شهادة.

ولا يرفعون إلا سؤالهم: ما معنى أن يعيش المرء بجسد مأسور وروح مذبوحة؟!، وأي وطن ذلك الذي يُستعبد فيه أهله؟!

***

خرج عمار وأمين في وسط الجموع، ثائرين تُحركهم حمية الشباب، كأنَّما وجدا في تلك اللحظة موطنًا للثأر المؤجل.

شارك عمار وأمين في تلك الانتفاضة، عندما علمت سمية والدته عمار بالخبر لم يهدأ لها بال، فزعت من تأخره عنها رغم تأكيدها عليه ألا يفعل ذلك، وتذكرت ما حدث من قبل، ما ترك في قلبه جرح لا يندمل، ضعف جعلها تنصحه كثيرًا بذلك، تريده أن يكون جوارها آمنًا فقط!

استمرت الانتفاضة أربعة أيام، كادت سمية أن تموت فيها من طعنات القلق التي لم تفارقها.

في صباح اليوم الخامس، عاد عمار وترك على الطاولة رسالة إلى والدته يطلب منها ألا تغضب منه؛ فهو يسعى كما يسعى كل الشباب إلى الحياة، ثم عاد إلى الصف دون أن تراه.

لما قرأت الرسالة اطمأنت أنه بخير، لكن قلبها كان يغلي من الغضب والخوف عليه.
في مساء اليوم تجمع أكثر من خمسة آلاف شاب ورجل أمام المسجد وفي ساحته وعلى جوانبه، وقد قرروا البقاء حتى تتحقق مطالبهم.

أصبحوا مفتخرين بكثرة الأعداد، فرحين بتلك الاستفاقة التي استطاعوا فيها أن يقولوا كفى.

ولكن لم يكد الجمع يقرر بقاءه حتى جاءت أمامهم قوة من الجنود رافعين بنادقهم، راكبين عرباتهم الغريبة التي حصلوا عليها مؤخرًا، واصطفوا أمامهم وطوقوهم عازمين على إخراجهم، ولو على أكفانهم!

لكن كانت هناك أصوات تنادي، تقول بأعلى ما تستطيع أن من ثار يشتاق إلى الحرية أكثر من شوقه إلى الحياة، ففيها يتذوق معناها ويدرك أن الموت في سبيل قضية هو الحرية.

حمل كل واحد منهم حجرًا، أمام سيل من الرصاص في حرب غير متكافئة. انطلقت الحجارة معًا.. الآلاف منها قُذف في الهواء نحو الجنود، كأنَّ الشمسَ غابت، والدنيا أظلمت، فها هي غيوم الثورة قد أطفأت شعلة الظلم بعاصفة ليل الغضب الذي سيسطع بعده صبح الانتصار والأمل.

سقطت الحجارة عليهم كأنها حمم أرسلتها طيور جاءت من السماء، ووقف الرجال أمام الجنود يهتفون كأنهم أسود لا شيء يعلو فوق صوت زئيرهم.

لكنَّهم وجدوا وابلًا من الرصاص يعدو نحوهم، فقابل الرجال الرصاصات بصدورهم العارية، وتفجرت الرؤوس، وتمزَّقتِ الصدور وسالت الدماء في الساحات.

فَعَلَى الصوت من المئذنة ينادي، يا من بايعتم بلادكم على الحرية أو الموت لا تخافوا!

فرفع طائفة من الرجال أياديهم ووقفوا بلا رجعة في وجه الجنود، بلا شيء رفعوا أكف أياديهم أن قفوا، وقالوا يا مرحبًا بلقاء الله.

فاخترقت الرصاصات الأكف، ومزقت الصدور، وتحررت الأرواح التي تركت أجسادًا مبتسمة راضية حرة.

كان عمار في هذه الأثناء مع أمين يتقدمان بلا خوف ولا هوادة، قذفا الحجارة.. نصبوا الفخاخ حتى يسلبوا من الجنود بعض بنادقهم.

حتى حصل عمار على واحدة واحتمى بجدار المسجد، وطفق يصطادهم الواحد تلو الآخر حتى نفدت ذخيرته.

***

ووصلت أخبار من العيون إلى الإمام تقول أن القوات آتية مدججة بأسلحة وعتاد.

فوقف الإمام ينادي:

"يا أيها الناس.. ستصعد كثيرٌ من الأرواح في ظلام تلك الليلة، فقد علمنا أن قوات العاصمة آتية مدججة بكل سلاح حتى تستأصلنا، وقد طوقوا المكان حتى لا يخرج أحد، أوصي الذين سينجون منكم أن يكملوا المسير ولو بعد حين، ولا تيأسوا؛ فإنها الحرية.. لا تتحقق بلا تضحيات ومن ظَنَّها دَربًا يسيرًا فإنَّه واهم!، وكلما استوحش الخُبث فينا كان استئصاله علينا أشق وأصعب!"

هذه هي السنن.. لابد لها من مخاض وتضحيات مؤلمة من أجلها فإنها أثمن ما يملكه الإنسان في حياته الدنيا الفانية.

***

عندما نُقلت الأخبارُ أن قُوَّاتًا كثيرة آتية مؤيدة ضد المخربين الذين لا يحبون الوطن، وأن الدول الكبرى ترى ضرورة قمع المفسدين، تفكر عمَّارُ ثم قال:

- أرأيت يا أمين؟.. أيّدوهم علينا!، هذه الدول التي تَدَّعي نصرتها للإنسان ودفاعها عن حقوقه، دعمت الغاصبين اللصوص، ها هم جاؤوا في عدتهم الكاملة، ما هذا الذي نراه؟!

- ماذا توقعت يا عمار؟!، هؤلاء الذين سلبوا وقتلوا لن يخرجوا إلا بحرب، وحرب ضروس يموت فيها آلاف وتُهدَّم فيها مدن.

- لم أتوقع يومًا أن يتجبروا إلى هذا الحد!، وأين العالم؟!

- العالم!.. هو الظالم الأكبر، تُرى من سَهَّلَ لهم المواثيق ومن الذي اعترف بهم ونسانا؟، هذا كله كذبٌ في كذب، ونحن الحقيقة الوحيدة فيه.

وفي غفلة من الحديث في ظلمة الليل، تقدم الجنود بلا رحمة..

يقنِصون كلَّ من قابلوه، كل من كان خارج منزله مات ولم يفر إلا القليل.

استطاع البعض الاختباء داخل المسجد، رأوا أنه لا سبيل لقتال هؤلاء في هذه الحالة الجنونية.

اتخذ عمار وأمين طريقًا ضيقًا خلفَ المسجد، كان أمين في المقدمة ينظر إلى الطرقات الجانبية التي ما إن تخطى إحداها حتى اتبعه جندي من الخلف وصوب سلاحه نحوه، انتبه إليه عمار من الخلف، كان متأخرًا قليلًا عنه، فجرى نحو الجندي في هدوء وحمل حجرًا، وعندما اقترب منه نادى مُنبهًا أمين، وضربه بالحجر على رأسه، فأخطأ التصويب، ثم التفت إلى عمار وأطلق عليه رصاصة أخرى فأصابته ما بين كتفه وصدره!

في هذه اللحظة، بعد أن أطلق مباشرة على عمار، كـان أمـين قـد وصـل إلى الجنـدي فضـربه بحجر آخر على رأسه عدة ضربات، حت سقط على الأرض، ثم انهـال عليـه وأخـذ يضـربه على رأسه حتى سالت الدماء منها وَخَرَّ قتيلا..

جرى نحو عمار بكل طاقته، يكاد يفتك به فزعُه ولكنه حمله مسرعًا وعادا إلى المنزل.

واستمرت الاشتباكات، واستمر الكر والفر!

***

لكن المشهد الذي خلَّدته ذاكرة كل ذي ضمير حي: ذلك الرجل الـذي جلـس في زاويـة مـع امرأة وطفلهما الصغير يحتمون خلف صخرة متهالكة رافعين الراية البيضـاء لا يحملـون سـوى قلوبهم في أياديهم.

كان الإمام ينظر إليهم وإلى الجنود..

رفع الرجل يدًا فيها رايته.. وحما زوجتـه خلـف ظهـره وهـي حمـت صـغيرها في أحضـانها ولكن..

لم يجد سوى الرصاصة تختـرق صـدر زوجتـه فسـقطت وهـي تنـزف، فانكـب عليهـا بصـدر محترق بدموع جارية، وصراخه يعلوا مناديا: "لا"!

ضم بيديه وجنتيها، وغسلت دموعه وجهها، فنظرت إليه نظـرة طويلـة أخـيرة كأنهـا تقـول له:

"هي الدنيا فانية يا قمري، ألتقي بك في الجنة".

رمق الجنود دموع الرجل وصراخ الطفل بتهكم، بل ودهمه جندي فنزع صغيره من بين يده ثم جزَّ رقبته وألقاها إليه، فصرخ الرجل صرخةً أسمعت كل الكون.

سَبَّهُم وقال لهم: "حرام عليكم، والله حرام، أي بشر أنتم؟!"

رقَّ له جندي من الجنود وقال:

_هل كنَّا قُساةً عليه؟!، دعونا نرحمه لقد أبكاني حاله.

كان رحيما به، فحركته عاطفة البراءة الباقية في قلبه، وألحقه بهما!

***

في تلك اللحظة كان إمام المسجد في زاوية مظلمة يشاهد في صمت، ولكنه بكى وعَلَى نحيبُه رغمًا عنه، فسمعه واحد من الجنود ولمحه!

صرخ بشدة: "إنه الإمام!"!

ثم عَدَا خلفه حتى أمسك به، كانت أوامرهم ألا يقتلوه، ضربوه بمؤخرة البندقية وكبلوا يديه خلف ظهره، ثم أخذوه والشيخ لا يحرك ساكنًا، مازالت عيونه جاحظة من المشهد الذ رآه وأخذ يقول في نفسه وهم يجرونه:

"تُرى ما كانت مشاعر الرجل في تلك اللحظة؟، وما مشاعر الإنسان وقت موت أحب أحبابه وبدون ذنب.. ربما لا تُدرَك أبدًا.. ربما هي قاسية.. ربما مميتة، الله وحده أعلم بها".

لكن الشيء الوحيد المعلوم أنها تقتل روحه وإن بقي جسده، فقد ماتت روحي وأنا أرى ما رأيت فقط!

ربما هم قتلوه، لكنهم في الحقيقة لم يوجعوه، كيف وقد قتلوا روحه مرتين؟! الأولى مع قتل زوجته المسكينة، وأقساهما عند ذبح صغيره أمام ناظريه، يا ترى لماذا يصمت العالم، ألا تحركه الدماء البريئة؟!، فهم يتباكون بحرقة إن مات كلب يرتعش من البرد في إحدى شوارعهم النظيفة!"!

وَفَرَّتْ دَمعة من عين الشيخ ونظر إلى الأرض وأغلقها.

***

عاد كلُّ مُتَوَفًّى إلى أهله حتى يودعوه آخر ودائع، كان البعض منهم يستقبل الأجساد بالبكاء، والبعض بالفرح والبُشرى، وسرت في البلاد رائحة حرية غابت منذ دهر، إلا أنها تسللت بين عواصف الوجع!

وكان الصباح جنائز من المساجد، كلها تدعو على القاتل، وتسأل الله النعيم الأبدي للمقتول.

وفي صبيحة اليوم التالي استهلت الصُحف أخبارها بعناوينها البراقة التي ناصرت الظلم على الحق، فقد نعتت كل من ثاروا بأنهم مخربون مفسدون يريدون هلاك بلادهم، ويسبون حاكمها المَصون.

كانت الكلمات صادمة لهم لم يجدوا في أي صفحة حديثًا واحدًا عن العنف الذي قابلوه، والموات الذي حاطهم!

فاشتعلت كافة المدن من جديد، وزادت الأعداد لما وجدوا الكذب وسب المَوتَى واتهامهم بالباطل!

ولما نقل المذياع لوهلة الأحداث في كافة البقاع وارتفعت أكف الناس تدعو لإخوانهم، بعدها وجدوا المذياع يقول أنهم مخربون من جديد!

***

كانت العاصمة فقط هي التي لم يخرج منها أحد، أولئك المنعمون من فيوض الحاكم الذي يسلب من الضعاف قوتهم.

تمت المجزرة بأوجاعها، وشاهد الناس الصحف، لكنْ لم تَكتب أنملة شيئًا عن أولئك الرجال، سوى أنه قد تم وأد التمرد!...

****

(٢)

﴿قِطْعَةٌ مِنَ الْجَنَّةِ﴾

بينما يُحمل الشيخُ عزيز إلى سجنه، أخذ ينظر إلى العاصمة خلال نافذة السيارة التي تقوده، أصابه الحزن الشديد؛ مما رآه في طريقه.

أطفال يعيشون في خراب وفقر، رُغم ابتساماتهم الرقيقة وأحلامهم البديعة، إلا أن آلام الفقر والوجع كانت بادية على أجسادهم.

أطرق الشيخ وحزن حزنًا شديدًا على ما أصبحت عليه البلاد، ثم أغمض عينيه، ونظر في دواخله حيث الماضي السحيق.. حيث طفولته وحياته كأي طفل في أي بقعة من بقاع الدنيا، يلعب في سرور وأمان، وتذكر أحلام الصبا التي كان يُحَلِّقُ بها في عوالمَ أخرى غير عوالم الكبار، ذلك العالم الذي كان يرى نفسه فيه جنديًّا يدافع عن الحقوق، ويخلق لنفسه أعداءَ وصراعات معهم ينتصر فيها عليهم.

ثم فتح عينه مجددًا ورسم ابتسامة رثاء على خده، نظر إلى الجندي أمامه وقال: "أهذا ما تمنيتَه؟!".

وقال في نفسه في ألم: "رحم الله أحلام صباي؛ فأحلام الأطفال محيط لا يابس فيه ولا شاطئ له!".

وبعدما تخطى أسوار العاصمة، تلك التي تمنع أي أحد من تخطيها إلا بـإذن، رأى هنـاك الغنى والحياة الكريمة ولكنه تعجب منهم، وتساءل:

"كيف يعيشون هكذا ولا يتحركون حتى لأهليهم الفقراء المعانين من كل مرض والمحرومون من كل حق؟!.. أيحرصون على أطفالهم هنا يرتعون ويلعبون بلا ملل، وهناك خلف الأسوار أطفال لا صباح لهم إلا وكان مختلطًا بالخوف، ولا لهو لهم إلا وكان ممزوجًا بالحزن، ولا أمل لهم إلا وعماده اليأس، دموعهم تسيل في كل يوم وليلة، منامهم فزع، ويقظتهم ألم، وحياتهم رجاء؛ ألمِا من سوط الجلاد، ورجاء في رؤية الآباء، أو في تذكر الأحباب!".

- أنت أيها الشيخ أفق!

سمع الشيخ (عزيز) صوتًا غليظًا يُخرجه من تساؤلاته وحيرته، ويجذبه إلى مكان مجهول، نزلوا في قبو تحت الأرض حيث تعجز -حتى- أشعة الشمس أن تصل إليه، ولا صوت يعلوا فيه غير أصوات التعذيب والتوجع!

***

عندما سمعت سمية المذياع ينادي في لحظات الحسم أن القوات قد تحركت لوأد التمرد وعقاب المتمردين منذ ساعات، وأنَّ العملية قد نجحت.

سقطت على مقعدها في خوف كاد أن يقتلها، تمتمت بكلمات تناجي ربها بها أن يحفظ ولدها وأن يرد الظالمين، حتى دخل عليها أمين حاملًا عمار مصابًا ما بين كتفه وصدره بتلك الرصاصة..

لما شاهدت عمار غارقًا في دمه، تَسَمَّرَتْ سمية من الهلع وبرزت عيونها المصدومة وتحجرتا من هول المنظر!

لم تستطع أن تتحرك من مكانها للحظات، دارت مقلتاها حول الزمن وعادت إلى تلك اللحظة، فُصِّدَ الجُرحُ الذي عاشت تضمده، شعرت من جديد بذلك الشر المطلق الذي أعياها بكل قسوة.

ناداها أمين حتى استوعبت ما تراه، فانفجرت مرة واحدة بلسان مرتعد: "عمار.. عمار!".

وقف أمين المتعَب بلا طاقة تعينه على إخبارها ماذا حدث، فالتفتت إليه سمية وأمرته أن يحضر الطبيب بسرعة، وهي تجلس بعيون تفيض دمعًا بجوار ولدها وتضمه إلى حضنها، بعد وهلة حملته إلى فراشه، وظلت بجواره تدعو الله أن يحفظه حتى جاء طبيب البلدة.

استخدم الطبيب أدواته الجراحية ثم أخرج الرصاصة من مكانها.

سألت سميةُ وهي في ألم من صدمة الجواب:

- هل حالته خطرة؟

- لا، الحمد لله؛ الرصاصة لم تخترق جسده ولم تصل إلى مكان حيوي، ولكن عمار سيظل على حاله فترة.

هدأت الأم بعدما أخبرها الطبيب أن ولدها بخير، وأنه قد نجى من موت قريب. بعد قليل غادر أمين، ثم جلست سمية بجوار صغيرها حزينة، ولكن بقلب مطمئن بعد فزع، ولكن الذكرى قد استيقظت بعدما أنامتها سنين!

أما هو فقد كان في عالم آخر..

***

حَلَّقَ في سماء أحلامه حيث طفولته.. عام ١٩٣٠ عندما كان عمره ثلاث سنوات فقط، رأى نفسه يتأمل ما بقى من جمال مدينته (**سور**).. تلك المدينة الحدودية، بمزارعها الخضراء الممتدة وأشجارها المثمرة.

رأى عالم طفولته الذي صنعه ليهرب فيه من حزنه، ويسكن من ألمه.

رأى أباه ينتظره فتعجب، ولكنه هرول نحوه في شوق إليه ونادى عليه بأقصى ما استطاع من قوة، ولكنه لم يلتفت إليه.

اقتربَ فوجد نفسه الصغيرة رفقة أبيه يلعبان، فظل يتساءل: "هل أنا ميت؟، وهذه حياتي تُعرض أمامي؟".

لكنه لم يجد جوابًا يُذهب عنه حيرتُه.

ثم وجد الدنيا تدور وهو معلق في فراغ لا شيء فيه!

الحياة تدور به، تعاقب الليل والنهار سريعًا، حتى وجد نفسه هناك قبل عام من الآن جالسًا وحده.

كان المكان بهيجًا؛ فالسماء صافية والأرض زاهرة والنسيم المعطر يداعب خياشيمه المتعبة.

ثم دخلت عليه والدته وجلست بجواره قائلة له:

- كيف حال الرجل الصغير؟

- بخير يا أمي.

- ماذا تفعل هنا يا ترى؟

- أتأمل؛ لعلي أرى في بهجة المكان سعادة لِما في قلبي.

- أسعدك الله يا صغيري، وحماك من كل حزن.

ناداهما مجددًا، ولكن لم يسمعه ولم يره أحد !

تعجب من تقلب الزمان به وترحاله، ولم يعلم ماذا يحدث له!

***

حاول أن يمسكهما ولكنه وجدهما فراغ، تعبر يداه من خلاله، فجلس صامتًا مُقَطِّبًا يشاهدهما ويتذكر أحلامه مع نفسه الصغيرة.

ثم دار من جديد حتى عاد إلى طفل نفسه طفلا جالسًا على قدمَي والدته يستنشقان الهواء العليل ثم قطع عمار ذلك الصمت قائلا:

- سمعتُ أنَّ بلادنا كانت قطعة من الجنةِ يا أمي، أكانت؟

- بالطبع، وإن أردت حدثتُكَ عنها.

فقال في شوق:

- حدثيني.. حدثيني.

- آه يا ولدي!.. كم كانتْ جميلة قبل أن يتوغل الشيطانُ فيها!

ثم عادت سمية بالزمن إلى حيث كانت طفلة في مثل عمر ولدها تتذكر البلاد وصورها الجميلة، أغمضت عينها وبدأت في وصف ما ترى..

وأخذ عمار يتذكر طفولته البريئة مع أمه.

كان سعيدًا بمشاهدتهما وسماع أمه تحكي له وتداعب شعر رأسه، ذهب ليجلس معهما ويسمع في هذا الحلم الجميل الذي يعيشه.

تدعى هذه الدولة بأرض(**العِرام**).. في جانب بعيد من الدنيا هادئة بديعة وهبها الله من الجمال ما وهب، فكانت خضراء مزهرة، أرض خصبة يشقها نهران عظيمان يقسمانها لجزأين: شمالي وجنوبي وشبه جزيرة ما بين النهرين.

مع كل شتاء كانت تتساقط الأمطار، وثلج السماء فتكسوها بياضًا كبياض العروس، ويفيض النهران على الأراضي فترويها حتى يكسوها الربيع مروجًا خضراءَ، تلمعُ في الصباح مع أشعة الشمس فتأسر العيون.

***

كانت عاصمة البلاد (**الرأس**) تأخذ شبه الجزيرة وحدها تقريبا، كانت تطوقها أسوار عالية وأبراج كبيرة، وعلى نواحي الأسوار عدة قرى صغيرة تابعة لها.

أما مدينة (**سور**) فكانت جنوب العاصمة في أقصى غرب النهر، وذلك جعلها خضراء لكثرة الجنان والحقول المزهرة.

هناك أخذت تحكي سمية لعمار ذكرياتها في حقول المدينة:

"كنتُ يا عمار أحب أن أجلس إلى شجرة أستظل بها، أسمع الطيور التي تملؤها تغرد فتطربني.

كانت من كلِّ لون ونوع، وكأنَّ الشجرة قد أمسكت قوس قزح بأغصانها، وشد القوس حبله بأصوات موسيقية من تغريد الكروان وحفيف الأشجار، كأنها قطعة موسيقية قد كتبها موسيقار لحفلِه الأخير!".

استمتع عمار بحديث أمه، فنام بجوارها، لكنه شعر بألم في كتفه ورأى الدماء تسيل من جرح فيها فتذكر ما حدث، وتساءل:

"هل هذه الجنة؟.. حيث نرى ما نحب أن نرى!، ونعيش ذكرياتنا السعيدة؟ لكن ماذا حدث يا تُرى؟ هل قتلوا جميع من في المدينة؟.. هل تحولت إلى أشلاء وذكرى كما كانت؟، لكن لماذا لا تراني أمي؟، أين أنا؟!

ظل في حيرته هكذا، ولكنه رأى نفسه وهو طفل سعيد يستأنس بالحياة وينعم بها. ثم نظر إلى نفسه وقال لها:

"آه يا أنا، طفل صغير لم يدرك بعد أن الحياة لم تجرحه بشوكها، ولم تذقه من كأس آلامها!، ها أنا الآن تائه في الفراغ.

فتًى قد أحاطته الأشواك من كل حدب وصوب، وقاتلته الآلام بكل جيش، حتى وجد نفسه فتى جريحًا، يُبصر طفلا سعيدًا!".

- " ويا لطبيعتها الخلابة!".

أعاده صوت أمه من دوامة أفكاره، فأنصت مجددًا..

"جمال سمائها ونقائها صيفًا ظلًّا يبعثان راحةً للنفس عندما تدنسها مرارات الأيام، كانت الأجواء دوما ربيعية، ولكني عشقت الشتاء لبرودته البديعة وثلوجه النقية، التي كانت تحيي الأجساد وتغمرها بالنشاط، فعلها في ذلك مثل الماء البارد في مسيرة تحت لهيب شمس الصحراء".

ثم علَّق عمار الصغير بنبرة حادة لأمه:

- أنا أعرف جوَّها، حدثيني عن شيءٍ آخرَ!

تبسمت وقرصت أذن الصغير، فابتسم معهما عمار الكبير:

- استمع أيها المشاكس!

امتعض وجهه، وزفر زفرة تدل على غضب طفل جميل وقال:

- حسنًا.. حسنًا، أكملي..

- ربما تود أن تَسمعَ قَصصًا من الطرائف.

ابتسم الفتى مبتهجًا مجددا وقال في حماسة.

_نعم.. نعم.. هَيَّا..

- "آهٍ من السوق!؛ في مرة ذهبت مع جدتك إلى سوق الأسماك على شاطئ النهر كانت الأسماك الطازجة تتلاعب في دلاء البائعين.

وعندما وقفت أمي عند أحدهم لتشتري فنظرت إلى دلوه، كانت به سمكة كبيرة لا تحرك ساكنًا، فتعجبتُ لها، ثم مددتُ طرف يدي نحوها لأرى إن كانت حية، ففوجئت بحركة خاطفة نثرت قطرات الماء في الهواء، فرجعت للخلف فزعة حتى سقطت على ظهري وأنا أنادي في خوف على أمي.

ضحكت عليَّ وضحك الأطفال والبائع حتى احمرَّ وجهي حرجًا!

آه يا عمار.. كم كانت ضِحكَات الأطفال تعلو فتبعث في كلِّ شيء الحياة!، وكم كانت بلادنا كلها جميلة مثلك.

إن وُجد الفقر وانتشر الجوع، ظلت أبوابها مفتوحة فلا يُرد سائلٌ.. كانت رحمة للضعفاء عندما تعصف بهم قسوة المجاعات التي لا ترحم.

كماء زمزم باقية إلى يوم البعث تعطيهم ما يكفيهم، تجذبهم من مرارة الجوع والعطش، كانت أم البلاد كلِّها بحنانها!

أذكر حينما جلسنا في المسجد نسمع من الشيوخ عن تاريخها الذي لم تزل فيه راية خفاقة مهما تعاقب الزمن..

فكم كانت حامية للأنبياء، تربتهم الخصبة لزرع بذرتهم ورعايته، فالماء كان فيها وفيرًا، وإن نضبت الأنهار كانت دماؤهم لها ريًّا.

فتنمو وتصبح شجرةً أصلها ثابت، لا تجتثها أي ريح مهما عتت، وفرعها في السماء لا تصل إليه أياد القاطعين.

مساجدها تعلو رافعة معها راية السلامِ والتعايشِ بين الأديانِ، وكنائسُها تشهد على تسامحها وأمان أهلها من كلِّ فتنةٍ، لا فرق فيها بين أحدٍ، فالعقاب بالخطأ وليس بالدين".

آلَمَ عمار جرحُه، وتذكر ثورة المسجد.. تذكر الدماء والقتل الذي حدث يومها فبكى، تألم لجراح أتعبته وآهات كبلته فقال: "يا ليتنا نعود لبلادنا الحرة كما تصفها أمي!".

ثم صمتت سمية قليلا، ونظرت إلى طفلها المستند على صدرها، الذي قال في إعجاب شديد:

- يا للروعة!؛ كل هذا يا أمي؟!

تنهدت الأم بحزن وقالت:

- نعم يا ولدي، وأكثر!

منارة السلام، وجامعة العلم، ملاذ الضعفاء، وأرض الأديان، أصل التعايش والأخوة.. كلُّ ذلك وأكثر، كانت قطعة من الجنة بحق!

- ولكن لماذا فعلوا بها هذا وقتلوا كل ذلك فيها؟

تنهدت الأم وقالت في هدوء:

- دع عنك هذا يا ولدي، غدًا تكبر وتعرف!

فرد عمار الجريح ولكن بصوت لم يسمعه أحد:

- الآن كبرت، وعرفت يا أمي لماذا.

ووضع يده على جُرحه وأغمض عينيه في حزن..

❋❋❋❋❋❋❋

(٣)

﴿كـابـوسٌ وشـيـطـانٌ﴾

تم اقتياد الشيخَ (عزيز) وعددًا كبيرًا من الذين تم اعتقالهم بعدما انتهت المجـزرة إلى ذلـك القبو الذي لا يُسمع فيه إلا صوتُ الألم، ولا يجري فيه إلا عتمة الظلام.

ظَلَّ الشيخ عزيز في غرفة لا يوجد فيها أحد أسبوعًا كاملا بلا طعام، فقط كان يدخل إليه قدرٌ قليلٌ من الماء، ما يكفيه حيًّا، ثم فُتح البابُ المظلم وتسرب مـن خلالـه شـعاع ضـوء، وجسـمٌ قوي يحجب ما عاداه.

أخذ ذلك الرجل القوي الشيخ وسار به في ممر ضيق تملؤه الغرف المغلقة التي تخـرج منهـا أسواط التعذيب، رأى غرفة فُتحت وخرج منها شاب يبدو عليه الهلاك، جسـده متهتـك ولا تبدو ملامح وجهه لكثرة الدماء عليه.

ثم أَدخل الرجلُ الشيخَ غرفةً وأجلسه على كرسي، دخل عليه بعـد قليـل رجـل يبـدو عليـه ملامح التمدن، وأعطاه الماء الذي كان في حاجة ماسَّةٍ إليه وعامله بودٍّ، وبعد قليل سأله:

- ماذا فعلت يا شيخ؟

فرد الشيخ بصوت بالكاد يُسمع قد هدَّه التعب:

- لا شيء!

- يبدو أن معاملتي لك برفق لم تؤتِ أُكُلها!

لم يجبْه الشيخ المتعب، فاغتاظ الرجل وقال في حسم بصوت غاضب.

- لماذا هيَّجت الناس ودعوتهم إلى التمرد على الحاكم؟!

رد عليه الشيخ بهدوء:

- ما قلتُ إلا الحقيقةَ!

- حقيقة!.. إذًا تعترف أنك فعلت ذلك، ألا تخاف الموت الذي رأيته؟

- وهل هذه حياة التي نعيشها؟!

اقترب منه المحقق وقال بود:

- حسنًا.. حسنًا.

ثم صمت برهةً من الزمن وقال:

- اسمع يا شيخ عزيز.. كل ما نريده منك هو توقيعك على مقال، مقال واحد وبعدها ستخرج من هنا سالمًا.

ثم أعطاه ورقة مكتوبة ليقرأها، أمسك الشيخ بالورقة فرأى مقالاً صِيغَتْ أحرُفُه..

لمدح الحاكم والاعتراف بأن ما تمر به البلاد كانت أزمة، وأنه ما فعل الذي فعل إلا ليخلص البلاد من الظلام ويرتفع بها إلى طريق النور ويتغلب على كل الصعاب فيها، وأن الشيخ قد علم كل ذلك وظهر له أنه

كانت تختفي عليه أشياءُ لما رآها جلية عاد عن خطأه، ويطلب من الجميع التعاون حتى تتجاوز البلاد الأزمة، وخُتمت الورقةُ بقرار العفو عن تهم كثيرة وعقوبة بالإعدام..

لما قرأها الشيخ أطلق ضحكة ساخرة، ثم ألقى بالورقة على الأرض وقال في شموخ:

- أين منصة الإعدام؟

استشاط المحقق غضبًا في هذه اللحظة ولكمة بشدة حتى خر على الأرض مغشيًا عليه.

بعدما استيقظ الشيخ وجد نفسه في نفس الغرفة التي يأكلها الظلام من كل ناحية يستمع إلى أصوات الصراخ تأتيه من كل جانب.

وبعد مرور شهر من اعتقاله، أُخذ الشيخُ إلى منصة إعدام أُعدت له خِصِّيصًا في بلدة (**سور**) أمام المسجد، تحت رعاية الوالي الجديد الذي أُرسل عليها من قبل الحاكم في العاصمة، كانت تحت حماية شديدة.. جنود بأسلحتهم وسيارات تطوق الساحة، والكل يقف من خلف السيارات يشاهد الشيخ الجليل في لحظاته الأخيرة.

وقف خلفه الوالي الجديد ثم سأله عن أي كلمة أخيرة، فنظر الشيخ إلى كل الوجوه المحزونة حوله ورفع كفَّه مشيرًا بالنصر ثم قال: "ستُغلبون!"!

***

ظلَّ عمار معلَّقًا بين الحياة والموت شهرًا، لا يدرك مِن حياته سوى ما يـراه مـن ذكرياتـه، حتى ذلك اليوم.

في مساء اليوم الكئيب، بينما ينام الجميع ولا صوتَ يُسمع في سـكون الليـل اسـتيقظ عمـار من غيبوبته وهو يصرخ في ألم ورعب، يتصبب عرقًا وضربات قلبه تتصارع، أنفاسه مضطربة:

- لا!.. اتركوا أبي.. اتركوا أبي!

سمعت سمية صوته فاستيقظت على عجل وأشعلت الأضواء ثم جلست بجوار صـغيرها، رأت على وجهه خوفًا وفي عيونه المتسـعة مـن الفـزع دمـوع الأسـى، فأخذتـه بـين ذراعيهـا وهـي تناجيه في فزع:

- ماذا هناك يا عمار؟

- الكابوس!

أطرقت في حزن وصمتت قليلاً حتى استجمعت قواها ثم قالت بصوت هادئ:

- لا بأس عليك يا ولدي.

حاولتْ أن تبدو أكثر صلابة، أرادت أن تعاتبه بشـدة علـى فَعلتـه، هـي لا تتحمـل ذلـك مجددًا، لم تعد تتحمل الفقد!

لكنها كبحت جِماحَها؛ حتى تُخفي عنه حزنها من أخبـار اليـوم، لكـن خانتهـا عيونهـا فسقطت دمعة أخفتها سريعًا في وجـع، ففـي قلبهـا جُـرح كلمـا أخفتـه كلمـا ازداد اتسـاعًا،

ولكنها ترضى بالاتساع والألم على أن يتألم ولدها أكثر مع رؤية الكابوس، واستعار نار الذكرى، كأن ذلك الليل كان يخفي لهما من الهم ما لا يتحمله قلب!

كان كابوس عمار يؤلمه في أكثر لياليه منذ طفولته، كأنَّه عاش بقلب فاق السبعين لأنه رأى العجز بأمِّ عينه.

عدَّلت سمية من جِلستها بجوار ولدها ثم ضمتهُ في حنان لتهدئ من روعه وغنت له بصوتها الحنون أغنيتها التي اعتادت أن تغنيها في طفولته له:

نَمْ يَا صَغِـيرِى، لا تَخَفْ..

وَاحْلُمْ بِغَدِّكَ آمِلًا،

وَاعْلَمْ بِأَنَّ صَبَاحَنَا

يُشْفِى السَّوَادَ الْـمُعْتِمَا

فَلْتَصْطَبِرْ...

كُنْ فِى الْحَيَاةِ مُسَالِمًا..

لا تَتَّبِعْ أَبَدًا عَدُوًّا ظَالِمًا

مَّهْمَا حَصَلْ..

نَمْ يَا حَبِيبِى وَابْتَسِمْ، نَمْ وَابْتَسِمْ،

وَاحْلُمْ بِصُبْحٍ مُّشْرِقٍ،...

لا تَنْتَظِرْ.

مَهْمَا تَزَايَدَ كَرْبُنَا

وَتَكَالَبَتْ أَحْزَانُنَا

هوِّنْ عَلَيكَ؛ فَرَبُّنا

خَلَقَ الْبَشَرْ،
كَتَبَ الْقَدَرْ.
وَالْخَيرُ آتٍ مِّثْلَمَا جَاءَ الضَّرَرْ.
فَلْتَصْطَبِرْ..
نَمْ يَا صَغِيرِي وَاصْطَبِر، نَمْ وَاصْطَبِرْ...

هَدَأَ عمار بين ذراعيها، سكن اضطراب قلبه، وذهب الفزع من عينه، ومسحت أمه على رأسه، وقالت:

- ستتحسن الأحوال يا ولدي، وسيعود أبوك يومًا ما، فلا تحزن.

وواصلت غناءها له حتى نام في حضنها، كما نامت الدمعة في جفنها محبوسة.

***

- ماذا ترى أنْ نفعل يا (جاكون)؟

- الآن وقد أُعدم الشيخُ، واعتُقِلَ المشاغبون، ربما تكون الصدور متأججة في هذه القرية، لا تنس أنها كانت من البداية على عداء معنا، لذلك أرى يا مراد أن الأمثل أن نخفف عنهم ونُشعِرَهُم أننا سنستجيب لبعض مطالبهم.

- وكيف ذلك؟

- سننشر في صحف الغد أنك ستصدر عفوًا عن كثير من المعتقلين، ثم سنخرج الشيوخ الكبار الذي طال بهم الأمد، ربما يمتص ذلك غضبَهم ويُنسيهم ثورَتَهم قليلا..

- فكرة طيبة، سنفعل ذلك.

ثم أمر (سُفيانُ) كُتَّابَه بتزيين عناوين الصحف في اليوم التالي؛ حتى يتم توزيعها في كل أنحاء البلاد بالخبر، خصوصًا مدينة **(سور)**.

***

في الصباح استيقظ عمار أخيرًا من نومه الطويل، مُتألِّمًا متأثرًا بجراحهِ، وجد أمَّه بجواره تقرأ وِردها من القرآن.

- أخيرًا أفقتَ يا ولدي، حمدًا لله على سلامتك.

- صباح الخير يا أمي.

بعد قليل ذهبت سمية لتعد الفطور، وأخذت تفكر كيف تخبره بمرادها منه، كيف تأخذ عليه العهد ألا يفعل ما فعل مجددا، هي لم تكن ترفض ولكنها لم تكن تتحمل الفقد، قلبها ما عاد يقوى، أصبحت الذكرى تطاردها في كل مكان حتى كادت أن تفتك بها.

وقف عمار يصلي ثم جلس يأكل مع والدته.

بعدما أنهى فطوره، نظر إلى الجريدة فوجد صورة الشيخ قبل على المنصة فسأل أمه في خوف:

- ماذا حدث في البلدة؟

نظرت إليه أمه ثم صمتت..

- هل مات الشيخ عزيز؟!

- بل ذهب ليعيش حرًّا.

لم يعلق عمار، فقط استلقى على سريره مجددًا وأخذ ينظر إلى سقف غرفته من جديد ويفكر..

ظل شاردًا لفترة قد غاب ذهنه فيها تماما، طرقت أمه على باب الغرفة ثم دخلت عليه:

- عمار أريد أن أطلب منك شيئًا.

- ماذا؟

- عِدني ألاَّ تخرج إلى مثل هذا مجددًا، عدني يا ولدي.

ثم بكت وازداد نحيبها.

كان عمار غاضبًا لم يكن يتحمل أن تطلب منه ذلك يومًا، فقال بلهجة غاضبة:

- لماذا يا أمي؟!

- لا أستطيع أن أتحمل الجرح مرتين، لن أستطيع خسارتك، أشعر بقلبي يا عمار، لقد تعبت في ذلك، عليك أن ترحمني!

***

وقف عمار وجَالَ في الغرفة تغوص يداه بين خصلات شعره الناعمة غاضبًا، والأم تنظر إليه بعيون دامعة تنتظر منه وعدًا بذلك.

- لكن يا أمي...!

قاطعتْه في غضب:

- ألا تفهم؟!.. هؤلاء لا يَرْقُبونَ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً في أحدٍ!؛ إنهم قتلة وحوش، لن يرحموك، وأنا ما زال يقتلني ذلك اليوم وتلك الذلة، عليك أن تعدني.

- كيف حدث كل هذا يا أمي؟

صمتت برهةً، ثم قالت:

- لقد كادوا وخانوا الأمانات كلها يا عمار.

- أين الحقيقة يا أمي؟!، لقد قرأنا في كل كتاب أن مراد هو الذي حرر البلاد من الظلمات الشديدة، وقتل الملك سفيان الذي كان يأخذ كلَّ ثروات البلد لنفسه ولحاشيته، ثم قيل لنا أنه خائن من شيوخنا ومن القصص التي رُويت عن احتياله على الملك وأنه هو السارق، ثم نرى العاصمة مزدهرة متقدمة ونحن في فقر وضعف لأننا نرفضه!، ثم أتذكر كابوسي وفقدي لأبي، ثم أسمع أنه حارب مراد البطل لذلك تم ذلك، ثم أسعى كما علمتمونا للخلاص من مراد لأنه ظالم ولأني أرى الذل والفقر كل يوم، ثم تقولين لي لا تفعل!، كيف لي ألا أفعل؟!

- سأحكي لك القصة كلها..

"بلادنا كانت مليئة بالخيرات كما تعلم، أبوابها مفتوحة لكل من أتاها مهاجرًا أو زائرًا، لم تَرُدَّ أبدًا سائلًا، وكأنَّها عاصمة السلام والأمان كما عرفتها جميع البلدان.

وبدأت الخطة عندما طلبت تلك الدولة الكبيرة (**أَسِيكَا**) من الملك بَعَثَاتٍ من القيادات؛ حتى تدربهم على الأسلحة المتقدمة، فأرسل الملك قائدَين كبيرَين هما حمزةَ وأخاه مراد، فأقاما فيها عدة سنوات ثم عادا إلى العاصمة، وتمت ترقيتهما ليكون مراد قائدًا للجيش البلاد وأخوه نائبه.

في هذه السنوات انبهر الرجلان بما رأوه من تقدم في هذه البلاد، فزُرِعَتْ في عقولِهما رغبةٌ في نقل كل شيء لنا كما هو.

بعد عدة سنوات أصبح لهم تابعين وعندها أتى للبلاد مبعوث رسمي من تلك الدولة يدعى (جاكون)، بعد تسع سنين من وصوله حدث كل شيء.

كان جاكون المبعوث هو العقل المدبر لكل شيء.

وعندما تم الانقلاب ظل يحكم باسمهم متخفيًا حتى لا يُقال "احتلال"، فجعلوا من (مراد) حاكمًا جديدًا؛ حاكمًا صوريًّا فقط"!

- ماذا فعلوا بعدها؟

- كشفت الشياطين وجوهها المستترة تحت أقنعة البراءة..

في إحدى الليالي أعلنوا ثورتهم وسرقتهم، استيقظنا فوجدنا كل شيءٍ في البلاد غريبًا..

وجدنا جيشًا مُنظمًا يستقر في العاصمة، دخل كلَّ القرى، سيطروا على كل شيء في البلاد بالقوة.

- ألم يكن لنا جيش يحمينا؟!

- بلى.. كان لنا بالطبع، لكنهم خططوا طويلًا، وعملوا على إسقاط القصر الملكي قبل كل شيء، ثم سيطروا على العاصمة، أما الضربة القاتلة فكانت.. (مراد) قائد الجيش الذي خاننا وباع البلاد من أجل حفنة من الوعود أخذها منهم!

ولم يكن يتوقع أحد أن الغدر قد يأتي ممن فتحنا لهم الأبواب.

- وماذا فعل الناس؟

- غضبوا غضبًا شديدًا في العاصمة وباقي القرى التي سلبوها.. عَلَتْ فيها رايات الدفاع عن الوطن، واشتعلت ثورات عدة في كل المدن وعاونونا إخواننا من البلاد المجاورة، وكان لبلدتنا في الثورة حكايات، عليك أن تتأكد أن والدك بطلٌ يا عمار!

- إذن لماذا لا تريديني أن أكون مثله؟

فصرخت بشدة:

- لأني لا أستطيع، لا أتحمل -حتى- فكرة فقدك أيضًا، حرام عليك!

جلس عمار على سريرة، وضم كفيه إلى بعضهما وأخذ ينظر إلى الأرض مدةً، ثم قال:

- لماذا يا أمي لَمَ تخبريني من قبل؟!

- يوجعني الحديث يا ولدي، وإصابتك قد أيقظت النظرة التي رأيتُها في عيني أبيك يومها!

- احكي لي.

- عدني أولًا.

- دعي الوعد الآن؛ فأنا مصاب ولن أستطيع أن أفعل شيئًا الآن، لكن لكِ أن تخبريني ما حدث؟

***

جلست جواره بعيون دامعة، أغمضتها ثم عادت بالزمن أعوامًا تتذكر تلك اللحظة التي لم تنسها ثم سردت القصة لولدها الْمُتَشَوِّقِ:

- دخل أبوك ليلتها ليخبرني بما حدث في العاصمة من انقلاب، وبما قرره الرجال من رفض للوضع، حتى وإن كلفهم ذلك أرواحهم، ثم أطلعني على القرار الذي اتخذوه في القتال..

ونمنا في هذه الليلة نومتنا الأخيرة، لم أكن أعلم حينها ما الذي سيجري! في صباحِ اليومِ التالي، استيقظ وودعني ثم ذهب.

أيقظ الحديث ذاكرتها، حتى رأت المشهد أمام عينها من جديد فبكت، لكنها عزمت على أن تخبره كلَّ ما دار، لعله يعدها بما تريد.

ثم أعادت كل ما دار..

- "الآن يا أم عمار سأذهب، ربما يكون ذلك آخر أحاديثنا، اعلمي أن الحب الذي نما في قلبي لك، لا يمزقه البعد، ولا يتخطاه الزمن؛ عمره دائم إلى الأبد، ومكانه سيبقى جزءًا من

روحي، فقط الأجساد تذهب، لكن الأرواح تحيا بالحب، حب لله والوطن والدين، وحب الحبيب لحبيبته جزء منها".

أجابته والدموع تسقي حُمْرَةَ وَجْنَتَيهَا.

- لا تقل ذلك يا ياسر، ستعود إن شاء الله.

ثم أعادها عمار من تلك الذكرى طالبًا منها أن تكمل، لكنها لم تستطع أن تكملها له في ذلك الوقت فقالت له:

- كان يشتاق إليكَ قبل الذهاب يا عمار، كأنَّه يسمع مقالتك الآن.

- حقًّا!

صمتت قليلاً كأن الذكرى أعيتها ثم قالت:

- نعم، سأكمل لك القصة في وقت آخر؛ عليك أن تستريح الآن لأن جِراحَكَ لم تُشفى بعد.

- حسنًا.

جلست معه على سريره، حتى نام.

ظَلَّتْ في غرفته؛ تتأمل وجهَه النائم وتتذكر ما جرى، وتتألم بلا صوت ولا شكوى، تشتاق إليه بعد كل هذا الوقت الذي مر، ولكن لا ينفعها الشوق.

***

بينما سمية تجلس في حيرتها وألمها، سمعت الباب يطرق مع النداء: "هل في الدار أحد؟".

كانت تغيبت عن عملها في المدرسة شهرًا بسبب إصابة عمار، ذهبت لفتح الباب فوجدت أمين وأمه عائشة:

- كيف حال عمار يا خالتي؟

- الحمد لله يا أمين، بخير.

- حسنًا سأترك أمي وأعود مساءً؛ آخذها -إن شاء الله-.

- لا تتأخر عليَّ يا أمين.

- حاضر يا أمي.

نظرت سمية إليه فنادته، فأتاها قبل أن يذهب:

- ماذا هناك يا خالة؟

- عدني ألا تجعل عمار يذهب مجددًا.

- سأحاول يا خالتي، لكنَّ عمار لن يقبل.

- عدني أنك ستحاول.

- إن شاء الله.

بعدما رحل جلست أم أمين مع سمية، ثم قالت:

- أين كنتِ، لقد طرقنا الباب طويلا يا سمية؟

- عذرا يا عائشة؛ لم أسمع، تفضلي.

- كيف حالك يا سمية وحال عمار؟

- الحمد لله بخير.

- مالي أراكِ حزينة اليوم؟

- لا شيء.. فقط قلقة على عمار.

- هل جرى شيء؟

_استيقظ وحدثته في الأمر حتى يكف، لكنه لم يعدني بشيء.

- كذلك أمين، يَأْبَى أنْ أطلبَ منه هذا.

- لقد فُصِّدَ الجُرحُ الذي أردتُه أن يندمل طول عمري، أنا.. أنا خائفة، الذكرى تأكلني يا عائشة، والشوق مُحرق.

- لا بأس عليك.. لا بأس، لقد أذاعوا اليوم أنهم سيستجيبون للمطالب التي قيلت، وسيحررون بعض الأسرى قريبا.

- لم أعد أثق بهم.

- فَرَّجَ اللهُ كربك ورد إليك زوجك وحفظ إليك ولدك.

- آمينَ.. آمين.

ثم أخذتا تتسامران في أمور شتى، حتى أدركهما المغرب وانتهى اليوم، حينها عاد أمين لأخذ أمه وودعا سمية.

صعدت إلى عمار فوجدته ما زال نائمًا، أخرجت صورة لحفل زفافها، وأخذت تنظر إليها وتبكي شوقًا..

ثم أمسكت المصحف وأخذت تقرأ، وتدعو الله أن يفرج الكرب ويُذهِبَ الألمَ عنها وعن ولدها ووطنها.

جاء الليل ولم يستيقظ عمار، فذهبت إلى غرفتها ونامت.

***

في صباح اليوم التالي استيقظ عمار، ذهبتْ إليه، أعطته خبزًا وكوبًا من الحليب يشربه، لكن عمار سألها مباشرة:

- كيف كان أبي يشتاق إلي؟

صمتت ونظرت إليه تبحث فيه عن والده الذي تشتاق إليه، حاولت أن تخرجه من ركام الزمان والألم:

-في ذلك اليوم، قال لي أبوك: اعتني بعمار، قولي له أني أحبه حبًّا جمًّا، وقولي له أن يسامحني لأني لم أعد بجانبه.

عَلَّقَ عمار بسرعة على كلامها:

- وأنا أحبك يا أبي.

ثم أكملت:

- خرج والدك وأنا أُوَدِّعُهُ بوجه صابر، ولكن بقلب باكٍ يَشُقُّه الألمُ، كان ذاهبًا إلى إحدى البيوت التي قرروا الاجتماع فيها، كان بعيدًا حتى لا تراه العيون، وكان يومًا أُعلنت فيه بدايةُ الحرب التي لم تنهي، ولن تنتهي أبدًا حتى يعود الوطن.

ولم يعد كما كان يعود كل يوم، تأخر الوقت وازداد قلقي، وعندما حلَّ المساء، تفاجأنا بسماع أصوات بعض طلقات الرصاص فتوجَّسَ الجميع منها وخرجنا إلى الشُّرُفات نرى، فكان الغبار يتطاير من شدة الحركة، فلا ترى العيون أي شيء!

ثم عرفنا بعد ذلك أن الرجال قد تحركوا، وطردوا الجنود من بعض القرى المجاورة، ثم اتجهوا نحو مدينة (**الدار**).

عندها هرولت قوات داعمة للعدو، فتراجع الرجال، واحتدم القتال بين الطائفتين حتى تَخَضَّبَتِ التربة بالدماء.

بعدها بفترة عاد ياسر، أخبرني أن الجنود قد كثر عددهم وتجمعوا حولهم، ولم يكن معهم سوى بعض البنادق القليلة والأسلحة التي سلبوها من الجنود الذين كانوا في المدينة، فلم يجدوا ما يردوا به العدو، ففر من استطاع الفرار.

- أَحَدَثَ ذلك كله؟

- نعم يا ولدي، وقد مات من كُتبتْ له الشهادةُ، وأُسر من الرجال مَن أُسِرَ، وَفرَّ إلى بيته – متخفيًا– من فر.

استطاع والدك أن يفر يومها، لا خوفًا؛ ولكن ما عاد هناك ما يستطيعون فعله.

جاء إلى البيت في جوف الليل، وقال لي ما حدث في قرية (**الدار**) حينما ظهرت البطولة والفداء بحق، فقد استأسد الرجال هناك، وتوالت التضحيات التي تُحكى فقط في قصص الأساطير، ولكن كعادة الحروب، الكثرة أقوى من الشجاعة، فقد حدث بعدها ما لا يُحمدُ عقباه!

- ماذا حدث؟

- انْقَضَّتْ كتيبة مدربة بكامل عدتها عليهم كما يَنْقَّضُ الذئبُ على فريسته المصابة، أخذوا يضربون.. جاءوا من كل الاتجاهات، أحاطوا بهم فلم يكن لهم مفر!

حكى لي ما حدث والحزن يعصر قلبه حتى كادت دموعه أن تفيض، وأنا لم أره قط في مثل حزنه يومها.

ثم في نهاية الليل قبل الفجر، وجدنا مجموعة من الجنود جاءوا إلى عدة بيوت في مدينتنا، قدْ دَلَّ عليه بعض من الخونة الذين صدقوهم وكانوا يكرهون الملك لمعاقبته من قبل على جرائمهم، جاء أحدهم وهم خلفه مدججين بسلاحهم وكسروا الأبواب، وأخذوه في يوم كئيب لا يُنسى.

كانت الدموع تنساب من عينَي عمار وأمه كما لم يحدث من قبل، أصبحت أجسادهما قطعًا من الألم ولم يستطيعا الصمت.

بعدما هدأت الأعين، استجمعت سمية قوَّتَها من جديد وعادت تُكمل:

- هُزم المناضلون؛ بسبب خذلان البعض لهم؛ لم ينصرهم جار ولا حليف؛ كلهم باعوا أرض السلام والخيرات، من أجل ماذا؟.. لا شيء إلا الخوف والأموال والخيانة!

وهكذا أخذوا الأراضي وعاثوا فيها فسادًا، كل رجل كان يُخيلُ إليه أن يعترض، أو يضع واحدًا من أولئك المجرمين اسمه لهم، كان يُهان وكأنه مواطن لا حق له في حياة ولا في كرامة ولا أي شيء..

- لا ضير عندهم أن يقتلوا الأبرياء، وكأنهم وحوش قد سَلَّتْ مخالِبَها لتأكل في لحوم الريمِ الذي لم يوشك أن يقبل على الحياة.

- لماذا يفعلون كل هذا.. لماذا؟!، أليسوا بشرًا؟

- هذا سَمْتُ المفسدين، يكرهون الحياة لغيرهم، مستبدون في حكمهم، لا يشبعون من السرقة، فحياتهم هنا قامت على أرض سلبوها من عُزَّلٍ ضِعاف!

فرضوا الضرائب على الشعب، سلبوا من الناس كل ما يملكون، فأخذ جنودهم يضربون الأبواب ويكسرونها، يهينون أصحاب الدور ويسلبون كل ما يريدون، الأموالَ والنساءَ، فكم من امرأة عفيفة كانت تسير لتقضي حاجاتها وتبتاع بعض البضائع فإذا بالكلاب ينقضون عليها، يسرقوا عفتها، والدموع على وجهها تعلن الوجع والحسرة، والصراخ يعلو فيُسمع كلَّ

شيءٍ في الدنيا، إلا آذانَهم، ويهتز لها كل جبال الأرض، ولكن لا تهتز قلوبهم، أخذوا من بلادنا كلَّ جميلٍ يا ولدي.

كل هذا الوجع مدفون تحت أنقاض المباني وذرات التراب!

- ألم يُكمل أحد الطريق يا أمي؟

- بالطبع أكملنا..

في كلِّ عام بعض الانتفاضات كانت تحدث، فتقابل بالقمع الشديد، بالقتل والأَسر والتعذيب، فكم أبادوا قُرى عن بكرة أبيها، وأكثرها بشاعة تلك التي حدثت عندما خرجت قرية (**كُرمة**).

- ماذا حدث هناك؟

- بعدما أعلنوا فعلتهم بعامين، خرج أهلها يطالبون بحقوقهم فقط في حياة كريمة لا أذى فيها، فقد ازداد بطش الجنود فيها، وتكالبت وحشيتهم وطالت براثنهم وبرزت أنيابهم، فكان عقابهم لأهلها الذين طلبوا بعضًا من الرحمة فقط، أن أوقفت النساء يشاهدن كلَّ رجلٍ قد أمسكوه في تلك الانتفاضة البسيطة وهم مكبلون في الأصفاد يهانون، ثم لم يكتفوا بذلك..

بل حفروا خندقًا، أو قُل قبرًا كبيرًا، وأوقفوا الرجال وضربوهم ضربة رجل واحد أمام نسائهم العرايا، فمات كلُّ رجل في القرية، وبعدها وضعوا زوجاتهم عليهم أحياء وأحرقوا كل من فيها، حيًّا وميتًا، وأخذوا أطفالهم عبيدًا لهم، ومَن رفض وأظهر علامات البغض لهم، فهو العِبرة للبقية..

يُعذبُ حتى الموت، يضربونه حتى يُنزَعُ جلدُه من جسده، ويصلبونه ميتًا حتى تأكل الغربان من جسده الصغير!

- ما هذه المخلوقات، من أي طينةٍ خُلقت؟!

- لا ندري يا ولدي والله!، كلما تذكرت كيف كانت بلادنا عُشًّا للطيورِ الجميلة، والآن أصبحت بيتًا كبيرًا للغربان التي تنهش في الجثث، فلا تجد قطعة من الأرض إلا وفيها جثث منتشرة!

تحولت بلادنا من جنة، ليس فقط بطبيعتها ومواردها، ولكن بتسامحها والسلام المنتشر فيها، إلى نار تأكل كلَّ من يأتي إليها، فرَّ من استطاع منها أن يفر، أصبح الملاذُ ملجأً، أصبحت الجنة نارًا تحرق –حتى– طيور السماء!

- ماذا حدث بعد كل ذلك يا أمي؟

- بعد ذلك..

حصَّنوا مدينتهم بأسلحة كثيرة، في ذلك الوقت لم تكن الأسلحة منتشرة ولا المعدات والسيارات، كان كل شيء بدائي الصنع، ولكنهم قد حصنوا العاصمة بأسوار وأبراج مراقبة، عليها أضواء قوية، بل وحصلوا على عدة طائرات.

كان أمرًا غريبًا يا ولدي، كان كل شيء متاح لديهم، لم نعلم حينها كيف وصلوا إلى هذه المعدات ونحن حتى لا نملك وسائلَ للتواصل غير الرسائل البريدية، وذلك الهاتف الموجود في منزل واحد بكل قرية!

لكن فيما بعد اكتشفنا أمر المبعوث ودولة (**أسيكا**) وكل ما فعلوه لأجل قتل الملك.

- آهٍ من الوجع!

- الآن يا عمار عليك أن تعدني، بالله عليك.. لا أستطيع أن أتحمل كل هذا مجددًا، سأكون وحدي!

- أنا أكره هؤلاء الطغاة.. كلمة الكره لا تكفي لأن تخرج ما أشعر به، ما زال ذلك المشهد يأتيني في كل ليلة، كل يوم أكبر فيه يكبر معي حقدي، ورغبتي في الانتقام من هؤلاء الظلمة الغادرين، لا أستطيع أن أمنع النار من التأجج في صدري..

- كلنا نكرههم يا ولدي، ويومًا ما سيأتي الخلاص، ولكن عدني فقط.

- سأسعى دومًا أن أكون مثل أبي، ولن أخشى أبدًا من الدفاع عن الحق.

- لكن أباك لم يرد ذلك.

- ماذا أراد؟

- أرادك أن تكون طبيبًا يفتخر به!

- هل علمتَ الآن لماذا أطلب منك أن تعدني بألاَّ تعودَ، أنا أريد ذلك أكثر كل هذا، لكني لا أستطيع.. عليك أن تفهم.

ثم كررتها بصوت خافت:

- لا أستطيع..

صمت عمار وهلة، وفكر فيما قالت أمه، أشفق عليها وغلبت دموعها المناسبة بركان غضبة المتأجج، فقال:

- أعدك يا أمي، أعدك..

****

(٤)

﴿فِــرَاقٌ وَلِـقَـاءٌ﴾

نشأ عمار في أسرة بسيطة، كانت حياتها مثالية، إلى أن انقلب الأمل، وسُلبتِ الأرضُ، وتخللها الفساد والظلم والفقد.

طفل له من الوسامة ما يجعل أثرة طيبًا على كل عين، بشعره الأملس وبشرته النضرة، وفوق ذلك كان حاد الذكاء كثير السؤال متفوقًا في دراسته.

ضاقت الحياة على طفولته وأحلامه بعدما حدث لوالده ياسر، فأصبح يحمل في صدره كرهًا ورغبة في الثأر يؤججها العجز، ونمت تلك الرغبة مع عمار حتى أتعبته.

بعدما أفاق عمار بأسبوع وأصبح صحيحًا معافى، جاءه (أمين) ووالدته (عائشة) يعودانه.

جلسوا جميعًا يتسامرون، وتطرق الحديث إلى الأسرى وأوضاعهم، ثم قالت عائشة لسمية:

- أولئك هم فخر الأمة بثباتهم رغم الصعاب.

كان عمار كلما سمع أحدًا يتحدث عن الأُسارَى وأنهم أبطال، أو أنهم مصدرٌ للفخر بهم، يحزن ويكتُم حزنَه في نفسه، لكنه هذه المرة قال بصوت عالٍ:

- لماذا يرى البعض أن الأسر فخر وعزة؟!،...

ربما هو كذلك، ولكنه على الأهل وجع ومرارة حتى وإن أظهروا جلدهم!، الأَسر أَسرُهم، الوجع وجعهم، بل وربما شعورهم بالتقصير تجاه البعيد يجعله أشد وأقسى.

تعجب الجميع من هذه المشاعر التي أظهرها عمار، حتى والدتُه، ولكن لم يعلق أحد.

أشعلتْ هذه الكلماتُ نارَ شوق عمار لأبيه اتقادًا، ذلك الرجل الذي لم يره ولم يحصل على طفولته معه كباقي الأطفال، استأذن وقال إنه سيصعد؛ لينام قليلاً متعللاً بجرحه.

***

دخل غرفتَه، واستلقى على سريره وحاول أن يتذكر أباه، حاول أن يحفر في الماضي حتى يصل إلى ذكرى في قاع رأسه يراه فيها، لكنه لم يصل إلا للحظات قصيرة سعيدة..

تَذَكَّرَ عندما كان أبوه يحمله بين يديه ويقذفه إلى السماء، فيشعر عندها أنه عصفور بجناحين، يطير بهما بلا خوف، ويلتقطه بحنانه الممتد الذي يشعره أن له في الحياة حصن منيع.. تذكر أباه لما جعل ظهره رَكُوبَةً له، يمتطيه ويشعر أنه فارس مغوار.

ابتسم عمار وهو ينظر إلى سقف غرفته، كانت ابتسامة معلقة بشفاه مغلقة تعلوها عين لامعة من دمعة قابعة بها ولم تخرج، كأنها بين السعادة والحزن!

تذكر في هذه اللحظة الشيخ عزيز وهو يتحدث إليه في المسجد ويحتضنه كأنه أبوه، وتذكر تلك المرة التي تحدث فيها عن دور الآباء تجاه أبنائهم من ود ومعاملة طيبة، وخرجت صورة الشيخ أمام عينه، التي شوهت الدمعة المشهد أمامها، وهو يقول تلك الكلمة التي ما نساها:

"وهكذا الآباء ينحتون في عقول أطفالهم، ففي كل كلمة يلقونها أثر في شخصيتهم، وَمَنْ في تلك الحياة لم يكن أبوه بطله الذي أرادَ أن يُصبحَ مثله؟!"!

ثم نام عمار آملاً في حلم جميل يسرق فيه لحظة مع طيف أبيه.

***

هكذا عاش عمار في حنين لبطله، برغم البعد الذي طال، إلا أنه كان حاضرًا دومًا في قلبه، وصورته المبتسمة في جيبه لم تغادره قَطُّ؛ فروحه كانت جزءًا من روحه، وكلماته على لسان (سمية) لم تغادر أذنه قط، شوق عمار لأبيه قد غلب كل شعور، أحلامه كانت بقربه، ويقظته لم تكن إلا ذكرى لأحلامه التي ما أراد أن يصحو منها!

صارت كلمات ياسر لولده نور عينه، لا يرى إلا بها، عَلِقَتْ في أذنه و روحه، اختلطت بكل حناياه..

عندما أخبرته أمه أنه تمنى أن يرى صبيه طبيبًا.. أخذ على نفسه عهدًا أن يحقق هذا لأجل أبيه.

وبذلك تفوَّق عمار في دراسته، لم يدخر أي جهد حتى يحقق ذلك.

وبرغم محاولات عمار في سرقة لحظات طيبة، إلا أن لحظة الاعتقال كانت هي الصورة الملازمة لعينَي عمار المنكسرة!

لم تغب عن ناظرَيه قط.. نظرة أبيه البائسة، خوفه على طفله وزوجته الحبيبة، على صغره رأي كل ذلك في عين أبيه.

كبر عمار وكبرت معه غايتان، الثأر من الطغاة وتحرير أبيه والوطن، وتحقيق حلم أبيه. أمَّا أُمُّه سمية، فقد كانت حياته..

جنته وَسْطَ الجحيم، نجاته من بين براثن الضيق، وفرحته وَسَطَ ظُلُمات الحزن، وسنده وزاده وطبه، رغم مخالفتها له في نضاله، إلا أنه كان يعلم أنها محقة في كل ما تطلب، لما كبر علم أن قلبها كان يتألم، لا يستطيع أن يتذوق مرارة الفقد مجددًا.

كان حضنها شفاءً لكل هم، يداها عندما تلامس جسده فيها الأمان، حديثها أمتع من آلاف القصص.

رَبَّتْ عمارًا على الصدقِ والأمانةِ، أهدتْه القرآنَ في صغره علمتْه حروفَه حتى أتقنَه، جعلتْ منه رفيقًا للمسجد.

ففي كل صلاة تُذَكِّرُهُ بفضلها قائلة:

- يا ولدي.. عِشْ لله، وتذكر دومًا قولَ حبيبك -صلى الله عليه وسلم-: "مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَهُوَ حَافِظٌ لَهُ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ"

في الصباح التالي، جاءه (أمين)؛ حتى يخرجا إلى الدراسة مجددًا..

طرق باب المنزل:

- كيف حالك يا أمين؟

- بخير يا خالتي، والحمد لله.

- ادخل يا أمين، عمار يرتدي ملابسه فقط.

- شكرًا لك يا خالة.

جاء عمار واستقبل صاحبه، ثم احتضنه وقال له:

- شكرًا لك يا أمين.

- عَلَامَ الشكرُ يا فتى؟!، أهذا بيننا؟!

ثم خرجا إلى المدرسة، كانا كالأخَوَين، كأوراق الشجرة، متفرقات ولكن جذورها واحدة.

وهما يسيران قال عمار على حين غفلة:

- كم أشتاق إليه يا أمين!

- سيعود والدك يا عمار ربما قريبًا.

- كلي ثقة في ربي أنه لن يخذلنا أبدًا.

وأخرجَ عمار صورة والده وقبلها..

كانت كلماته تدفعه دومًا كلما ضَعُفَتْ هِمَّتُه، وَوهنتْ عزيمته من بسمته التي لم تختفي قَطُّ، نظر إليها وقال: "سيظل رأسك مرفوعًا يا أبي، واسمُك رَنَّانًا، بطولاته تُسمعُ في كلِّ أرض".

***

خرجت سمية إلى عملها والتقت هناك بعائشة، جلستا تتحدثان قليلاً وقالت (عائشة):

- كيف حالك وحال عمار؟

- لقد وعدني ألَّا يخرج، لكني خائفة يا عائشة.

- لا تخافي؛ سيحفظه الله، لقد عانيتِ كثيرًا في تربيتِه وحدك، وما الله بظلَّامٍ للعبيد.

- اللهم ارزقنا الثبات والصبر على كل ما نجهل سببه.

- زادكِ اللهُ ثقةً ويقينًا.

ثم ذهبتْ (سمية) إلى التدريس للأطفال، كانوا يحبونها حبًّا شديدًا؛ لرقة قلبها معهم وحسن معاملتها لهم.

انتهت من العمل وعادت إلى بيتها قبل أن يعود عمار.

دخل عمار منزله وألقى السلام على والدته، بعدما جلس واستراح ذهبت والدته وأعدت له الطعام ثم جلسا على المائدة يأكلان، سألته قائلة:

- كيف كان اليوم يا عمار؟

- لا جديد، أنهينا المدرسة وذهبنا إلى المسجد، ثم مشينا قليلًا وعُدنا.

- حفظك الله يا ولدي.

***

أنهى عمار طعامه ثم ذهب إلى غرفته، وجلس ليذاكر باجتهاد، نظر إلى وُرَيقَاتِهِ، فرأى فيها صورة الجنود اليوم أمام عينه، ذكرته بأبيه، وبالمجزرة التي حدثت يوم إصابته.. فرَّت دموعُه من عينه قهرًا ودارت في رأسه ذكرياته المؤلمة من جديد وقال في نفسه:

"إن كانت حكايات الأسرى والمظلومين هكذا تدمي قلبنا وتحفز دمعنا لما فيها من ألم وخوف، فيا تُرى كيف أبي؟!.. كيف يحيا في تلك الغياهب وحيدًا؟!".

ووقف مبتهلاً رافعًا كفَّه الذي يحمل دعواته، وقال في وَجَلٍ: "اللهم كُنْ لأبي معينًا ونصيرًا، وَرُدَّهُ إلينا ردًّا جميلاً!".

وأردف في حواره مع نفسه ناقمًا على العالم والوضع والواقع قائلاً:

"قلبي الذي حملته ضلوعي، كان قلبًا شيخًا كبيرًا في جسد شاب صغير، كم أكره هذا العالم الكاذب، أنا حقًّا ناقم عليه، وعلى هذا الظالم الذي يحكمنا ومعاونيه، ولكن لماذا يتجاهلنا العالم رغم علمه بأننا على حق؟!.. نسمع خطبهم في المذياع ونقرأ شعاراتهم في الصحف، ولكننا لا نرى منهم هنا إلا ربط حبل المشنقة لكل من قال "حرية"!".

***

ظَلَّ على حالته هذه حتى غربت الشمس، صلى وعاد إلى غرفته مستلقيًا على سريره.

لم يستطع النوم، فقام ينظر من النافذة ليتأمل السماء والنجوم وقال في نفسه:

"ما هذه النجوم!، أليست أرواحًا صَعِدت إلى الجِنانِ ولكنَّ أثرَها الطيب بقي لينير لنا الطريق؟!"!

أخذ يتأمل الدنيا كلها من حوله، البلدان المترامية في خارطة العالم، المنظمات والرؤساء، ولكن ما شغل نفسه أكثر من كل شيءٍ هو حاكمهم.

ظل يتساءل في نفسه:

"لماذا فعل هذا في بلادِنا؟!.. لماذا رَغِبَ في أخذها واحتلالها؟!..

يا لِقُبحِ الشياطين التي تعوَّدت على السرقة، حياتها كمخالب تتركها لتنقض بها على المسالمين، سارقةً أحلامَ أطفالها، قاتلةً آمالَ أهلها، وإن اعترض أحد فليس له عندها إلا الأسر الذي يمزق في حنايا الصدور، ليس في حياة الأسير وحده، ولكن في قلب أهله. زوجته المسكينة التي ما لبثتْ أَنِ اعتادتْ عليه، وطفله الذي وُلِدَ فلم يره، أو في أمه التي ما لبثت أن فرحت بولدها، حتى ماتت كمدًا عليه.

فما ذنب كلِّ هؤلاء أن يعيشوا في ذلك الألم؟!، ويا تُرى إن كانوا وَهُم أحرارًا يعانون من كلِّ هذه الأوجاع، فيا تُرى فيمَا يفكر الأسير؟!

أفي حياته؟.. أفي أهله؟، أم في وطنه المسلوب الذي تَخَضَّبَ ترابُه من كثرة الدماء التي أُريقت عليه؟!..

لماذا يأبى لجَنَّةِ الأرض إلاَّ أن تكونَ نارًا على أهلِها، لم؟!.. لا لشيءٍ إلا لإشباع رغبته في الملك!، حتى وإن كانت على أرواح الأبرياء، ومستقبل الأطفال، وأشلاء الرجال!..

ويا تُرى.. أين هو العالم الذي يَدَّعي المثالية، سؤالي الدائم الذي لم أجد له قط جوابًا يُثْلِجُ صدري، أين يا ترى؟!..

ألم نسمع في كلِّ يوم عن المنظمات التي تُحَلِّقُ شعاراتها كعنقاءَ تراها كلُّ العيون إن رفرفت؟!..

ولكنها أسطورة على ما يبدو، ولا مكان للأساطير في عالم الحقيقة، الحقيقة منها أوهام أو حكايات للأطفال..

حقوق الحيوان مصونة، وحقوق الطفلِ محفوظة، والنساء والمستضعفين و.. و... كثيرة هي الكلمات، ولكن أليست كلها أكاذيب يضحكون بها على شعوبهم؟!..

فها نحن الآن وَقَدْ أَقَرَّ العالم كله أنه لا حق لنا فيها، وأن دفاعنا عن نفسنا قتل، وقتلهم لنا حق!..

عالم غطت فيه غيوم الظلم أشعة الحق، كلُّ حكامه محتلين، الصدق فيه كذب، والخيانة فيه أسمى معاني الأمانة!..

العالم جاهل، والجاهل عالم.. ها أنا اليوم ساخِطٌ على كلِّ الشعارات التي يَدَّعونَها، أصبح أملي الطفولي في غدٍ أفضل مجرد حلم أحمق!..

فكلهم كاذبون، بل وربما نحن أيضًا مجرد أكذوبة في عالم مبني على الأكاذيب!".

_العَشَاءَ يا عمار.

قطع نداء أمه تساؤلاته، ليُخرجه من كلِّ هذه الآلام والحيرة التي عصفت بعقله.

- حاضر يا أمي، أنا آتٍ.

ذهب ليتناول العَشاء مع أمه، جلسا على المائدة وقد بدت ملامح الحزن على وجهه، فلاحظت أمه:

- أرجوك لا تغضب مني يا عمار، يومًا ما ستفهم؟

- أَتَعَجَّبُ لحالِ الدنيا!، كيف يَدَّعي الجميع مناصرة الحقوق، ومع ذلك قَبِلَوا ما نحن فيه لأعوام؟

- لأنها دنيا!، تَارَةً ينتصر الحق مرة، فيجعل الدنيا نعيمًا وسِلمًا نحو الجنة، وكثيرٌ ما يَسُودُ الباطلُ.

- ولكن لماذا ينتصر الباطل؟!

- حتى يَمِيزَ اللهُ الخبيثَ مِنَ الطَّيِّبِ.

- ولِمَ كل هذا يا أمي، ألسنا على الحق؟

- بلى، ولكنَّ الجنةَ يا ولدي سلعةٌ غاليةٌ.

- آهٍ من الدنيا يا أمي!

- هي كذلك يا عمار، نُختَبَر لِيَتَّضِحُ من كان يمشي وراء مصالحِه، فإذا كان الحق منصورًا دائمًا، لَمَا عَلِمنا من المُفسد، بل ربما لم يكن هنالك مُفسد، وهذا لا يجب أن يحدث.

- لماذا؟

- لأن الجنة لا يدخلها المرء بلا بذل وتضحية، والمجتمع الفاضل لا يكون إلا فيها، وفيها فقط.

- أليس من الممكن أن نحققه بطاعتنا لأوامر الله؟!

- العالم يا ولدي تحكمه الماديات، لا صوت يعلو فيه سوى صوت المصالح والأموال، القوي هو من ملك أكثر، وأعطي أكثر..

سياساته كاذبة، امتلأت بالخيانة، والأصوات المنتشرة فيه صرخات المكلومين، ولكنَّ آذانَ القوم فيها وقرٌ لا تَسمع أبدًا إلا ما تريد، وقلوبهم محصنة بدِرعٍ من حديد خالٍ من المشاعر، الأصوات تعلو وتعلو بصخب وصوت الحقيقة خلف هذه الضوضاء خافتًا، لا يريدون أن ينصتوا له، وإن سمعوه تجاهلوه عن عمد، وما دُمْتَ حزينًا لانتصار الباطل، فاعلم أنَّك تسير في الطريق الصحيح.

- ولكن يا أمي، الآلام تزداد والشوق يغلبني، أريد والدي، أشتاق إليه يا أماه!

مسحتْ على جبين ولدها وقالت له:

- اصبر يا ولدي، وَتَذَّكَّرْ دومًا قَول الله تعالى:

﴿ الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ ﴾

- يا الله!

- ما كتبه الله هو الخير يا ولدي، ثباتنا ورضانا هو سُلَّمُنا للجنة.

- ثَبَّتَنَا اللهُ أمام عواصفَ الفتن!

- الآن أَكْمِلْ مسيرتك، هذا هو العام الذي ستحقق فيه حلم أبيك فلا تتكاسلْ واجتهد .

- أعانني الله يا أمي، أخشى أن أخذله.

- ما عليك إلا أن تعمل، والنتيجة على مُسَبِّبِ الأسبابِ.

- يسر الله علينا كل صعب.

- حفظك الله من كل مكروه يا ولدي، وفرج عنك كل ضيق.

- اللهم آمين، لا أدري لَولَاكِ يا أمي كيف كانتْ حياتي؟!، أسأل الله أن تكون زوجتي مثلك!

- لن تجد يا ولدي أبدًا، فأنا فريدة من نوعي.

قالتها بفخر ودعابة لعلها تُريح قلبَ صغيرها، وابتسما معًا، بعدما كادت عواصفُ الأحزان أن تفتك بقلبيهما.

- أدامكِ الله لي سندًا وعونًا يا أمي.

- هيا اذهب وذاكر.

- حاضر..

***

قام عمار بعد ذلك، وقد ضَخَّت كلمات أمه في قلبه أملاً، وَضَخَّه القلب في كلِّ عروقه، وغذت به العروق كل ذرة في خلايا جسده، فتحرك وعزم بعدها على أن يتفوق في حياته؛ آملاً في أن يكون مِمَّنْ يغيرون العالم.

في الصباح أتاه (أمين) كعادته ليذهبا إلى المدرسة، وبينما هما في الطريق، قال أمين:

- عمار، أريد أن أخبرك شيء.

- ماذا هناك؟

- سنرحل إلى بلدة (**الغار**) على حدود البلاد الشمالية.

- ماذا؟!.. لماذا يا أمين؟!

سأله متعجبًا، فالوقت المتبقي على الامتحانات أصبح حوالي شهرًا ونصفَ الشهر!

- وَجَدَ والدي عملاً هناك، كما أنه مريض ويحتاج إلى أمن ورعاية، وهي القرية الوحيدة التي نجت إلى الآن.

- ومتى ستنتقلون؟

- في الغد إن شاء الله، فقد باع والدي البيت، وجهزنا أمتعتنا.

- لا أدري ماذا أقول؛ لقد فاجأتني!

- سنتقابل في الجامعة -إن شاء الله-.

- سأفتقدك كثيراً.

- وأنا كذلك يا عمار سأفتقدك.

- اليوم ستقضيه معي إذن؛ فستكون ليلتنا الأخيرة إلى أن نلتقي مجددًا.

ضحك أمين وقال:

- بالطبع يا فتى، سأخبرهم في البيت وأعود.

- حسنًا.. في انتظارك.

وهكذا كانت آخر ليلة لعمار مع أمين، فَعَلا فيها كلَّ ما يستطيعان، خرجا يلهوان في المدينة، وتحدثا، ولم تخلُ أحاديثُ الشباب أبدًا من الحديث عن الفتيات، فسأله عمار:

- حدثني عن فتاة أحلامك يا أمين؟

- طالما أنها أحلام، فكم أريد أن يُكرمني الله بفتاةٍ حسناءَ، عيونها زرقاءُ، وحافظةً كتابَ الله، تحب البَهجة وتترك الكآبة، تطيعني ولا تزعجني.

قال كل ذلك في ضحك شديد، وأمل أن تخرج له من هي بمثل صفاتها واختتم قوله بسؤاله:

- وماذا عنك يا عمار، فيما تَرى جمال المرأة؟

ابتسم قائلاً:

- جمالَها..؟

أما عن جمالها يا صديقي، فلم يكن أبدًا في شعر يتأرجح مع مداعبة الرياح له، أو عينٍ تلمع كأمواج البحرِ عندما تغازلها أضواء القمر، ولكنَّه كان في عقل يتغذى على عبيرِ الكتب، وجناح من الدين يسمو بي فوق سهام من الفتن!..

هكذا أريدها يا صديقي، جمالها في تلك الروح الكامنة في قلبها، وخارجها لا أريده حلمًا كما يَدَّعي الجميع، فجمال الأجساد يذهب، ولكن أريدها أن تسرني كُلَّمَا نظرتُ إليها.. في ذلك فقط يا صديقي أرى جمال المرأة.

- ومن أين لك أن تأتي بها إذن، في أحلامك!

ردَّ عمار في فخر وعُجب:

- هذا أقل ما عندي بالطبع.

- حسنًا أيها العظيم، الوقت قد تأخر ويجب أن أعود؛ سفري غدًا.

- هيَّا بنا.

أَوصَلَ عمارٌ أمينًا لبيته..

في الصباح ذهب عمار وأمه، وودَّعا أمينًا وأمَّه بحرارةٍ كادت أن تُصهرَ الصدورَ بعضها في بعض، وعادا إلى البيت.

مرت الأيام بعد ذلك وجاء صباح أول يوم من أيام الامتحانات، ذاكرَ عمار واجتهد، كل شيء على ما يُرام، إلا أنَّ في قلبه رهبةً ألاَّ يحقق حلم أبيه.

قابلته أمه مطمئنة له، مزيلة عنه حِمله الثقيل قائلة:

- اليوم يا ولدي ستحصد ثمرةَ تعبك، ستعلم أن كلَّ قطرة عرق سقطت، كانت تروي ما ستحصده اليوم.

- في قلبي رهبة يا أمي ألا أحقق الحلم.

- الله لن يخذلك؛ فقد اجتهدتَ، حتى وإن لم تدخل الطب، فوالدك سيكون فخورًا بك.

- ادعي لي كثيرًا.

- وَفَّقَكَ الله يا ولدي، ستحقق مرادَنا -إن شاء الله-.

وذهب إلى الامتحان، جلس ينتظر حتى جاءت الورقة..

أمسك بورقة الأسئلة، كانت لديه رهبة في أن يقرأ، سَمَّى اللهَ وبدأ في القراءة وقال في نفسه:

"السؤال الأول.. الحمد لله أعرفه".

اطمأن قلبه، وبدأ يكمل ويجيب باقتدار على جميع الأسئلة بلا توقف، وأنهى الامتحان على خير.

سلك طريقه عائدًا إلى البيت، وعندها قرر أن يُداعب أمه.

عندما دخل إلى البيت، كانت أمه تنتظر كأنها من كانت تُمتحن، على جبينها العرق، و تدعو له بالتوفيق والتيسير.

لما رأته قالت في رهبة ورجاء:

- بَشِّرْنِي يا ولدي!

اصطنع عمار على وجهه علامات الحزن وقال:

- الحمد لله على كل حال!

حزنت ولكنها تماسكت وقالت محاولة أن تُخفي حزنها:

- لا بأس يا ولدي لعله خير، لقد أديتَ ما عليك فلا تحزن.

- ولكنه كان صعبًا يا أمي، حرام أن يضيع كل هذا..

لم يستطع أن يكمل كذبه، وانفجر من الضحك:

- حتى أني أجبت كل الأسئلة.

- أيها المشاكس!

ورأي عمار قذيفةً قادمةً نحوه متجهةً إلى وجهه، فقد قَذفتْ حذاءها من شدة الغضب وصرخت قائلة:

- لا تعبث معي مجددًا بهذه الطريقة، أبدًا، هل تسمعني؟

- حاضر.. حاضر يا غالية. وَقَبَّلَ رأسَها..

ومرت باقي الأيام والامتحانات كأول يوم، الرهبة في البداية، سمية تمحو القلق من قلب صغيرها فيطمئن، يجيب على الأسئلة، ويبشر أمه المنتظرة تارةً، ويداعبها أخرى حتى انتهى.

***

ومرت الأيام وانتظرا النتيجة، وفي صباح أحد الأيام، بعد أسبوعين جاء منادٍ:

- يا آل ياسر.. يا آل ياسر، أبشروا..

- ماذا هناك؟

أجاب المُنادي:

- لقد ظهرت نتيجة الثانوية، أنت الأول يا عمار!

- ماذا؟!.. أأنت جاد؟!

- نعم، مبارك عليك يا طبيب البلدة.

في هذه اللحظة لم يكن يستطيع أن يعبر عن السعادة، أخذ المبشر بين ذراعيه، وقبله، سجد شكرًا لله على تحقيق الحلم، وَفَرَّتْ دموعُه كانت لأول مرة تفر من عينه فرحًا.

وجرى عمار في حضن أمه، والسعادة في وجه صادحًا:

- أمي يا أمي، لقد ظهرت النتائج، أنا الأول.

أطلقت الأم أصوات الفرحة، وفرت الدموع من عينَيها وأجابته في حنان جميل:

- مبارك يا أيها الطبيب، الآن سيفرح أبوك بك.

أصبح عمار أسعد الناس في تلك اللحظة، ولكن ليس لنفسه، فكم تمنى أن يكون من سعى لسعادته معه الآن، وقال في نفسه:

"قد كان حلمك والآن تحقق، ليتك معي في هذه اللحظات يا أبي، ليتك معي فأرى عينك التي رأيتُها آخر مرة مكسورة، وهي ترتفع في السماء في فخرٍ وعزةٍ، تقول ها هو ولدي قدْ أصبح مِمَّنْ سَيُشار لهم بالبنان في يومٍ من الأيام".

***

وكأنَّ رَحَماتِ الله قد هطلت على آلِ ياسرَ ذلك اليوم؛ ففي نفس اليوم مساءً، بينما يحتفلون ويتقبلون التهاني من الجيران، نادى منادٍ آخرَ:

- يا آل ياسر، يا آل ياسر أبشروا..

- ماذا هناك؟

- لقد صدر قرار بالعفو عن كثير من الأسرى، ووالدكم ياسر ممن أُفرج عنهم!

- ماذا؟!.. أُصدُقني القولَ!

- والله ما أنا بكاذب.

اتسعت عينَي عمار ولم يحرك ساكنًا، ربما مرت أمام عينيه في هذه اللحظة ذكريات وذكريات شَلَّتْ عقلَه ووجدانَه فلم يحرك ساكنًا لبضعِ دقائقَ.

- يا لفضل الله علينا!، كل ذلك في يوم!

- نعم بشراك يا عمار ستتلقى بوالدك وتأخذه بين أحضانك في صباح الغد، فلتستعد للقاء.

- بَشَّرَكَ اللّٰهُ بالجنة.

وجرى نحو أمه يبشرها من جديد..

- أمي، سنقابل والدي في الغد.

- ماذا؟! أصادقٌ أنت أم دعابة من دعاباتك؟

- والله أتيتُ بالصدق يا أمي.

صمتت سمية طويلاً، وبكت كثيرًا مع ابتسامةٍ لم يرها عمار قط، كانت ابتسامة تخبئها دموع الفرح ووجه مشرق، غمرتها مشاعر الحب الذي فقدته طويلاً ضمت نفسها بذراعيها وأمسكت كتفيها، وبكت كطفلة؛ كطفلة صغيرة تبكي من السعادة بمشاعر نقية، وهل هناك مشاعرُ أصدق من لقاء المحب بعدما ظنّ ألاَّ لقاءَ!

- هل صدر قرار بالعفو؟

قالت الكلمات وعيونها ممتلئة بالدموع، ربما فكرت في تلك اللحظات عن الأشواق التي أحرقتها، عن الآلام التي تحملتها، عن البكاء الذي عذبها يوم أخذوه من أحضانها، عن هذه المتاعب التي بذلتها، عن تربيتها عن كثير من المشاعر الصادقة!

كيف رَبَّتْ عمارًا بمفردها حتى صار فتًى يافِعًا! ، تحملت مشقة كل شيءٍ بالْكَدِّ والتعب، فرحت لأن سندها أتى، ربما قد اشتاقت إلى يده التي مسحت على رأسها في تلك الأيام، هي سعيدة حدَّ البكاء!

- نعم يا أمي، وسنستقبله صباح الغد عند السجن في مدينة (**الدار**).

أخذت ولدها في حضنها وجرت السعادة في أجسادهما مجرى الدم، أَثَرُ السعادة عندما سمعا خبرَ العفو، فاق –بكثيرٍ– فرحتَهما بحصول عمار على المركز الأول.

– أخيرًا ستتحول صورتُه التي في جيبي إلى حقيقة واقعية، سأحكي له عن كل شيءٍ وسيحكي لي، أخيرًا سأرتمي في حضنك يا أبي..

– أخيرًا يا ولدي!

***

ثم ذهب عمار إلى النوم بعدما غادر الجميع وباركوا لهما، وهو على سريره أخذ يفكر: "عندما يشعر المرء أن بعض حقوقه عادت إليه ففي ذلك سر السعادة، فما هي السعادة؟.. أليست هي تلك اللحظة التي ترى فيها ثمرةً بعد تعب، راحةً بعد كَدٍ، جنةً بعد عمل هي اللحظة التي تتوقف فيها كل ثانية من ثواني الزمن، فتحفر في العقل شعورًا من الأمل.. من القوة.. من البسمة، من كل شيء جميل!

السعادة، إحدى هذه اللحظات المطلقة التي يتوقف عندها الزمن، ويختفي في زواياها المكان".

كان أسعد يوم مر على دار ياسر، وكأنَّه يوم غُمس فيه أتعسُ أهل الأرض في الجنة، فأنساه النعيم كلَّ ما مضى من شقاء.

***

وجاء الصباح الذي انتظراه، مرَّ الليل عليهما طويلاً؛ طويلاً جدًّا، وكأنه عمر كامل على كليهما، كل ما كان بعيدًا سيصبح قريبًا، كل الأيام التي اشتاقا فيها لياسر ولَّت؛ ففي الغد

سيكون بينهما يعانقانه، سيجرب عمار أخيرًا احتضانه وتقبيل رأسه، وغدًا سيتحرر بعد سنوات النضال، فيجد أن حلمه في ولده قد أصبح حقيقة.

انطلقت الأم وولدها قاصدين المدينة، قابلا الجنود الكريهين، جرت في دمائهما كُرِّيَاتُ الغضب والحقد، فقد منعوا عنهما النور أعوامًا، حتى ظنَّا أنه لا يوجد في الحياةِ صباح!
كان عمار يتساءل طيلة طريقة في صمت:

"كم عانى والدي في غياهب السجون مرارة الوحدة، ربما كان الشوق إلينا أصعب عليه من جلد الجلاد،

وربما عاش يتخيل صورتي كثيرًا، ويقول: "ليتني أرى ولدي"، ويقول للجنود في صمت بعينه: "يومًا ما سننتقم، وسنثأر لكل من عانى من ظلمكم، ولكن ليس الآن"!".

وقفا أمام الباب، يحملان قلبيهما في أياديهما، عيونهما يقظةٌ لا تُغمض، القلب ينبض بشدةٍ كأنَّه يجري من خوف، أو إلى فرح غاب كثيرًا.

فُتحَ البابُ، وفُتحت معه صفحاتُ أحلامهما المغلقة منذ زمن، صفحات أشواقهما، نَزعت من الصفحات آلامًا، وَمَآسٍ.

ها هو (ياسر) خرج من الباب، بدت عليه علامات الأمل والوجع، لكنَّه كالجبل يخرج رافعًا رأسَه، ينظر للجنود نظرة عزة، لا ذلة فيها.

وكأنــه يقـول لهـم: "أنا الذي انتصر عليكم بعد كل هذه السنين، فالحرية لا تحدها أبواب السجون، لكنَّها روح تخترق كل شيء، كما يخترق الضوء النوافذ المغلقة.. كما تخترق الطيور جاذبية الأرض محلقة في السماء!"!

وَعَلَى في الأفق صوت عمار يصرخ بشوقٍ، وترك قدماه للـريح تجـري ولا يوقفهمـا سـوى لمسـة والده:

- أبي.. أبي.. يا أبي!

- عمار!

قالها ياسر في حيرة، كأنَّ الزمن توقف عند هذه اللحظة!

ظهـرت في عينَيـه صـورة الطفـل الـتي يتـذكرها، صـغير يحملـه ويلعـب معـه يقذفـه للسـماء ويلتقطه، والآن يراه رجلاً يجري نحوه.

- نعم يا أبي، أنا عمار ولدك الذي أصبح طبيبًا.

قالها لنشر الفرحةِ في وجهه، والسعادة في قلبه.

- عمار، كم اشتقت إليك يا حبيبي.

وجذبه في حضنه، وسالت الدموع من المآقي من شدة الفرح الذي ظَـلَّ أسـيرًا في القلـب، كمـا كان ياسر أسيرًا خلف القضبان!

- أحبك يا أبي.. أحبك، اشتقتُ إلى روحك الطيبة ولمستك الحانية.

- تعال بين يَدَيَّ يا ولدي تعال.

نظر الجميع إلى التحامهما معًا، والدموع تترقرق من عيونهم كما تسيل من عيَنَيهما، ذلك المشهد الذي لو وصفه الشعراء لما وجدوا في معاجم اللغة كلمة تعبر عنه. ولو رسمه الفنانون لما وجدوا في الدنيا لونًا يؤثر في النفوس كذلك اللون من السعادة!

شاهدت سمية رجليها وبكت بفرحة لم تعهدها من زمن، كأنها روحٌ عادت من القبر، كان شيئًا لم يكن معهودًا لها من قبل!

وَظَلَّ عمار في أحضان أبيه لا يتكلم.. فقط يمسك به، كأنَّ قلوبَهما قد شقت الصدور لتتلاقى كما تلاقت الأجساد، لتتلاحم الأرواح!.. فيا لرحمةِ القدر!

وقال عمار في نفسه:

"الآن علمتُ أنَّ كلَّ ما فكرتُ فيه عندما أمسك بأبي، لم يكن -حتى- ذرة مما أنا عليه الآن.. حقًّا إنَّ لحظات اللقاء تقتل في الذاكرة كل الماضي المؤلم، وتفتح الآفاق نحو شعور رَبَّانِيٍّ لا يُوصَفُ، شَعُرْتُ به في هذه اللحظة فقط.

علمتُ الآن لماذا ستكون رؤية الله هي أعظم لذة في الكون، فحبنا لله أشدُّ من حبي لأبي، بل أشد من حبي لأيِّ شيءٍ آخرَ، فكيف عندما يُكشف لنا الستارُ في الجنة ونراهُ بعد كلِّ هذا الشوقِ!..

إن كانت هذه السعادة التي تغمرني فقط لرؤية أبي الحبيب، فكيف هي رؤية أحب الأحباب، بل من كان القلب يَحيَى بنفخةٍ من روحه!

اللقـاء بعـد الأشـواق، هـو اللحظـة الـتي لا يمكـن أن نُسَـمِّيها إلاَّ النعـيمَ المطلـقَ، والسـعادةَ الأبدية!".

****

(٥)

﴿فِى غَـيَـاهِـبِ الْأَسْـرِ﴾

عاد ياسر وأشرقت معه شمس السعادة في المنزل بعدما طال به ليل الحزن البهيم.

أصبح البيت من الفرحة شابًّا من جديد، عَلَتِ الابتسامة على وجه سمية وشعرت بالأمان، كما لو أنها قد وجدت قلبها المسروق بعدما ظنت أنه قد ذهب؛ -لطول غيابه- إلى المجهول، فجرَت الدماء في عروقها، وتَوَرَّد وجهها بالسعادة، وكأنه أخيرًا قد ارتوى بماءِ الحبِّ النَّمِيرِ.

أصبح عمار كعصفور وجد سربه بعدما ضاع منه بين أغصان أشجار الغابة الكثيفة، كطفل تاه من أهله سنين، ثم وجدهم بعدما فقدان الأمل.

الأسرة كلها أصبحت كزهرة زارها الربيع فتفتحت بعدما طال خريفها، نمت أوراقها من جديد بعدما سقطت، وفاح عطرها بعدما جفَّت، وتطيب بها الجميع.

أصبح بيت ياسر مزارًا لأهل البلدة يهنئونه بعودته، الكل فخور به لنضاله، وأصبح حديث البلدة كلها أنه قد عاد ياسر بعدما قضى أغلب سِنِيِّ العمر في غياهب السجون التي لا ترحم.

توالت الأيام ينقضي النهار في استقبال المهنئين بنجاح عمار وحرية أبيه، ويغطيهم الليل بالنوم المريح.

***

في فجر أحد الليالي طرق ياسر باب غرفة عمار ليوقظه للصلاة:

- استيقظ يا عمار، لنذهب إلى صلاة الفجر.

أجابه عمار بصوت يغلبه النعاس وهو يتثاءب:

- حسنًا يا أبي.

استعدَّا ثم تحركا إلى المسجد في هدوء الليل، وسارا في الطريق الذي لا تنيره إلا مصابيحُ صغيرةٌ على الأعمدة.

- أتَرَى يا عمار الهواء الطلق الذي يوقظ النفوس، الطرقات خالية إلا من بعض الرجال الذين قد خرجوا إلى الصلاة أيضًا.

- هدوء الليل الجميل.

وضع ياسر يده على كتف ولده وقال:

- كم أنا فخور بك يا عمار.

- منذ أخبرتني أمي أنك قد أردت ذلك جعلته طموحي، لكي تكون هديتي لك يوم أن تعود إلينا.

- وقد كانت أجمل هدية يا ولدي.

وصلا أخيرًا إلى المسجد، خطواتهما تتسابق إلى الله وقلوبهما إليه أسرع، كان النداء عذبًا، والمؤذن يصدح بالتكبير.

الأرواح تهفو بشوق نحو رحاب سجدة تضم أحرفًا مقيدةً بدمعة تسقط من فيض القهر. دخلا وصلى كل واحد ركعتين، ثم جلس ياسر وبجواره ولده يذكران الله حتى أقيمت الصلاة وصلَّيَا، ثم جلس ياسر في زاوية وقال:

- احضر المصحف يا عمار.

- حاضر يا أبي.

ذهب عمار وعاد بمصحفين له ولأبيه، وجلس بجوار أبيه مستندَين على جدار تعلوه نافذة، ثم سأل ياسر:

- كم تحفظ من كتاب الله يا عمار؟

- أحفظه كاملًا.

نظر ياسر بحبور شديد يكاد يقفز من عينه اللامعة، ثم قبل رأس ولده في راحة وفخر وقال:

- حسنًا، لنقرأ وِردًا من القرآن كما كنتُ أفعل في كل يوم.

بدأ ياسر القراءة بصوت فيه قوة ووقار وخشوع، جعل كل من في المسجد يلتفت إليه، وأقيمت حلقةٌ كاملة، وأخذ كل واحد يقرأ صفحة يتلوه من يجاوره بأخرى، وظلاَّ هكذا حتى أضاءت الدنيا.

في طريق العودة قال عمار لأبيه:

- لقد اشتقنا إليك كثيرا يا أبي.

- وأنا كذلك يا عمار، لم يكن هنالك ما يؤلمني كفراقكم، لكني ذَكَّرْتُ نفسي بأن الله مع الصابرين، فتصبرت.

- كذلك فعلت أمي، علمتني أنَّ من صبر فأجْرُه على الله ولن يخذله.

- آهٍ يا عمار، سمية.. وهل هناك مثلها؟!

- صدقتَ، كم أتمنى أن يرزقني الله بزوجة مثل أمي.

- رزقكَ الله بكل جميل في الدنيا والآخرة.

كانت سمية تنتظرهما وتُعِدُّ الفُطور، ولما دخلا، اجتمعوا وجلسوا جميعًا على المائدة يأكلون.

وبعدما أنهى ياسر الفطور قام يغسل يديه، ثم ذهب نحو سمية، وقبَّل رأسها:

- شكرًا لكِ على كلِّ شيء.

ابتسمت ابتسامةَ رضًا، ثم بكت بكاءَ فرحٍ، أما عمار فكلُّ ذرةٍ في جسده كانت تهتز مما رأى، وأحس بأنَّ قلبَه يَقْشَعِرُّ من فرط السعادة!

- لا تشكرني فأنا لم أفعل شيئًا!

- والله ما أنكر فضلَكِ إلا جاحدٌ!؛ ألم تُعَلِّمِي ابننا وتربيه أحسن تربية؟!.. زرعتِ في نفسه ما كنتُ أريد، فها هو الآن على أبواب (كلية الطب)، وقد حَفِظَ كتاب الله، عفيفًا في خطاه، أمينًا ورجلاً، تعلَّم منكِ العفة والصدق والأمانة.. تحملتِ غيابي رغم السنين، لم تطلبي -ولو لِمَرَّةٍ- أن تعيشي حرةً من الزواج الذي لا زوج فيه، كانت دعواتكِ لي في كلِّ ليلة تصل

إليَّ فتُنير ظُلمتي، تعطيني أملاً عندما يكون اليأس زادي.. لولاكِ يا أُمَّ ولدي ما حدث كل ذلك، لذا أقول لك: "شُكْرًا"، وإن كانت لا تُوَفِّيكِ حقكِ!

ارتمتْ سمية في أحضان ياسر وأغمضت عينيها مطمئنة راضية، وقد اغرورقت عيناها بالدموع.. دموع فرح مشت على وجهٍ راضٍ تمام الرضى.. ضَمَّها بذراعيه، فشعُرت بالأمان كما لم تشعر به من قبل.

كانت ابتسامتها ترفرف عاليًا، وصوتها المتقطع وهي تقول له: "أحبك"، كأنَّ كلَّ سعادة في الدنيا كانت في بيتهم في هذه اللحظات، صورتها في ذلك الوقت، بابتسامة ودموع قد نُسجت من حنايا القلب، كأنه الحب في أبهى وأنقى صوره!

- حفظك الله لي يا أبا عمار.

- وحفظكِ الله لي، سندا وعونا دائمًا.

دمعت عيون عمار من المشهد وقال في نفسه:

"لا أظنُّ أنِّي عَرَفْتُ السعادة من قبل؛ أسرتنا قد اكتملت من جديد، عودة والدي إلينا كانت بمثابة عودة الروح إلى الجسد؛ فقد بعثْتنا بعد الموت".

ثم أطلق تنهيدةً بابتسامة وقال: "الحمد لله".

وقبل بِدْءِ الدراسة الجامعية بيومين -بعد صلاة العشاء- ذهب ياسر للقاء بعضَ أصحابه الذين تحرروا معه من الأسر وأخذ معه عمار، كان لقاءً مهيبًا..

- مرحبًا بك وبولدك يا ياسر.

رأى عمار شيوخًا تبدو ملامحُ القوةِ عليهم، عَرَّفَ ياسرُ ولدَه على الجمع وقال له:

- سَلِّم يا عمار على أعمامك، هذا الشيخ أحمد وهذا آسر وهذا أسعد...

وسمى له أسماءهم جميعًا، كان الشيخ أحمد في قدمه عرجة تدل على إصابة له فيما مضى.

بدأوا يهنئون عمار على نجاحه في الثانوية وتحقيق حُلُمُ والده وقال الشيخ أحمد:

- مبارك عليك يا عمار، أم نقول يا طبيب؟

فرفع عمار يديه نافيًا وضحك مجيبًا:

- لا.. لا، فقط عمار.

- أتدري يا عمار، لم يكن لوالدك حديث إلا عنك، كان يتمنى دائمًا أن تَصير طبيبًا.

- الحمد لله الذي وفقني لما يحب أبي.

- وفقك الله يا عمار، كن دائمًا كما أنت، متفوقا في دراستك، وسر على طريق الحق.

- إن شاء الله.

بعدما تحدثوا جميعًا، أمر ياسر ولده بالعودة إلى المنزل قبله حتى يتحدث مع أصحابه في بعض الأمور.

قام عمّار وسلم على الجميع ثم ذهب.

سألته سمية عن أبيه فأخبرها أنه قد قابل بعض أصدقائه الذين خرجوا معه، وقال لي سيتحدثون في بعض الأعمال.

عندما سمعتْ ذلك، لم يطمئن قلبها؛ كانت تخشى من جديد على ياسر ولا تريد أن تفقده مجددًا، لذلك تَوَجَّسَتْ وظنت أنهم سيعيدون الكَرَّةَ.

***

تجاذبوا أطراف الحديث، وتحدثوا عن الوطن، وأمور كثيرة، ثم أخذ الشيخ أحمد –الذي كان يبدو أكبرهم سنًا– زِمامَ الحديثِ مجددًا:

– الآن يا أبطال، قد خرجنا من غياهب السجون، وعدنا إلى بلادنا، كل واحد فينا من بلدة، متفرقين ولكن جمعنا الطغيان في مجلس واحد لأعوام ظانًا أننا سننسى، حتى جاءت البشائر عندما رأينا أُسارى جدد جاءوا بعد أعوام طوال، جاءوا وقد رفعوا من جديد راية النضال؛ ليُثبِتوا لنا أنه ما زال هناك رجال يرفضون الظلم مهما طال الزمن، فماذا سنفعل؟

رَدَّ الشيخ أسعد:

– لقد أسرونا لأعوام طوال، وغَيَّروا كثيرًا في الحياة، كأنهم حاولوا أن يُنسونا طريق النضال أو معنى الحرية، لقد غيروا فطرة وفكر جيل كامل من الأشبال، ولا بُدَّ من وَقْفَةٍ.

ردَّ ياسر:

– سنُكمل الطريق الذي بدأنا، وسنحرر الوطن، ولكن بالصبر، أنا أرى أنَّ الناس قد سَئموا من الواقع، وينبغي لنا أن نستغل ذلك كله وننظم الأوقات حتى يحين الوقت ونبدأ الثورة.

قال لهم الشيخ أحمد:

- حسنًا، الحمد لله أنَّ همتَكم مازالت عاليةً، لم تغيرها السنين الطوال، بالله ثم بكم سيغدو كلُّ شيءٍ كما كان، وستعلو راية الحرية!

تحدث الشيخ محمود، وهو كان تلميذًا للشيخ عزيز وَقَصَّ عليهم حكاية الانتفاضة من بدايتها حتى إعدام الشيخ عزيز، وكونها كانت مكتظة بالشباب والرجال، وأخبرهم ما أصبحت عليه العاصمة من انحلال وتغيَّر كل ما فيها من خلق، بل حتى استطاعوا أن يكذبوا على أجيال وأجيال بقصة (مراد) البطل الذي قتل الملك لأجل البلاد وأنهم صاروا يدرسون في الكتب أنه محررهم!

ثم أخبرهم عن حال العاصمة التي أصبحت وكأنها دولة أخرى غير الدولة، لا يدخلها أحد إلا بتصاريح كثيرة، هناك الغِنَى، هناك الفساد على الحياة الطيبة، وهنا الحياة البسيطة والفطرة السليمة.

قَطَّبَ الجميعُ جِباهَهم لما سمعوه، كان الكلامُ سيئَ الوَقْعِ على الآذان، ثم عَلَّقَ الشيخ أحمد:

- لقد أصبح الحال قاتم كالليل، لا سبيل للعودة إلا بنا، خروج الناس دليل على أن الرغبة بداخلهم، وإعدامهم للشيخ عزيز -رحمه الله- يدل على أنهم هابوا دعوته، لذا استعِدوا؛ فأمامُنا عملٌ كثير.

ثم وَدَّعَ كل واحدٍ منهما الآخرَ، وودع ياسر الشيوخ، وذهب في طريقه للمنزل.

***

وفي طريق العودة شاهدا الذُّلَّ من جديد..

جنديًّا يضرب امرأة توسلت إليه مدافعة عن زوجها، جرت الدماء في عروق ياسر من شدة الغضب، وشدَّ قبضته بقوة، ثم قال في نفسه لا بُدَّ أن نُنهي كل ذلك.. لا بُدَّ! ظل الجندي يستلذ بإهانة المرأة وزوجها حتى مَلَّهُما، ودخلت المرأة وزوجها إلى المنزل خائفين باكيين.

عندما دخل ياسر المنزل، كانت تنتظره سمية قلقة، وعندما دخلا إلى غرفتهما، قالت له في حزم:

- هل ستفعلها مجددًا يا ياسر؟

- لا بُدَّ يا سمية.

- لا.. أرجوك لا؛ لم أعد أستطيع التحمل.. عمار سيذهب للجامعة وإذا علم أنك تفعل هذا سيفعل مثلك، وربما أفقدكما معًا، عندها سوف أموت يا ياسر!

- لا تقلقي؛ لن أَضُمَّ عمار في الأمر.

- بالله عليك يا ياسر، أنا أَشَدُّ حِقدًا عليهم منك، وأكثر كرهًا لهم، لكن هم أقوى، معهم كل شيء ونحن ليس معنا شيء، دعنا نعيش ونَسْلَمُ من شرهم الذي يرحم ما بقي.

أراد ياسر أن يُنهي ذلك الحوار الثقيل فقال لها:

- إن شاء الله.

لم تنم سمية تقريبًا تلك الليلة، ظلت الصور القديمة تظهر تباعًا أمام عينَيها حتى كادت تبكي، ارتعشت فشعر بها ياسر، فقال لها:

- لا تقلقي يا سمية؛ سيكون كل شيء على ما يرام هذه المرة.

- لا أنت ولا ولدك تشعران بي، عندما جاءني في آخِرِ مرة برصاصة كان غارقًا في دمائه.. لم أستطع أن أتحمل، وها أنت تحاول أن تقتلني من جديد يا ياسر.

- هل أصيب عمار؟!

- نعم، وكاد أن يموت لولا ستر الله.

- حسنًا، أَعِدُكِ أن أكون قليل الظهور كثير الحرص، وألَّا أُشْرِك عمار في ذلك. ثم خرج ياسر من الغرفة وأتى بمفكرة كان يكتب بها أيامه وظل يكمل حتى غلبه التعب، فتركها وذهب إلى النوم.

*****

في الصباح استيقظ عمار مبكرًا، ورأى تلك المفكرة التي يعلوها القلم، أخذها في صمت وفضول ودخل غرفته وبدأ يقرأ..

{عندما أُسِرنا في بلدة (**الدار**)، بعدما حاولنا أن نحررها.. أخذونا إلى السجن، وقابلونا بالشتائم التي يترفع اللسان عن ذكرها، فَرَّقُونا في زنازين عديدة، حتى لا يرى بعضُنا بعضًا، ودخل كلُّ واحد مِنَّا الزنزانة بعدما لاقى كلَّ أنواع الضرب.

كانت الزنزانة أشبه بالقبر؛ غرفة طولها يكفى فقط لجسدك أن يتمدد كى تنام، ربما وصلت مترين، وعرضها متر أو أكثر بقليل، باب الزنزانة من الحديد الثقيل الذى لا يسمح لشيءٍ أن يَنْفُذَ منه ولا حتى الضوء!.. الحجرة ممتلئة بثقوب تسكنها الحشرات والفئران التى تبيت معك، ورائحة القاذورات فيها تفوح..

تقضى حاجتك هناك فى نفس الكوب الذى تشرب فيه!، وتغتسل به!، تنام مع الروائح، لا ضيرَ فيها أن تجد فأرًا أتى بجوار أو مَرَّ عليكَ، فأنتَ هناك تحيا كالميت، لا مجال للحياة الآدمية، تنام على جانب واحد، لا يتسع المكانُ لِتُفردَ يداك.

بقِيت فى هذه الزنزانة أيامًا وشهورًا، لا نومَ فيها ولا أملَ..

كان غطائى البرد، وطعامى الجوع، الموت حولى من كل مكان، ولكن لا أموت، لم أر ضوء النهار فيها، فلم أكن أعلم متى الصباح ومتى المساء، ولا أدرى كيف حال البقية!

كنتُ فقط أتصبر بآيات الله التى فى صدرى أتلوها، وأدعو فى صبر، ولما فُتح البابُ بدأت حفلات التعذيب..

***

دخل علىَّ رجلان غليظان عظيما الجسم كالجبال، تَحِيَّتُهمُ السَّبُ، وسلامُهم الضربُ، لا يفهمون لغةً سوى العنف.

فقد ظلاًّ يضربانى لمدةٍ لا تقل عن النصف ساعة حتى كاد يدركنى الموت، ثم حملنى أحدهما، فلمَّا لَمْ أقدر على الوقوف سَبَّنِي.

رفعتُ عينَىَّ إليه وأنا متهالك، ولم أنطق فقال الآخَرُ:

- ستأتي معنا؛ المحقق يريدك.

وحملانى بعدما تهالكتُ من البرد والجوع، ولكن بعد ضربهما علمت أن الهلاك هنا له معنى آخر، فمثل هؤلاء قد نُزعت الرحمةُ من قلوبهم؛ فلا يعرفون معنى الشفقة أو الألم، قلوبهم مثل الحديد، لا تنكسر، ولا تتأثر، قاسية على الضعفاء، تعبد الطغاة!

أخذونى وأنا فى هذه الحالة، وأقعدونى فى غرفة لا أحد فيها، غطوا عينى، ربطوا يداىَ خلف ظهرى، وقدمى مُكَبَّلةٌ فى بعضها، وأخذا يضربانى مجددًا، فلا أستطيع أن أحتمى بيدى المكبلة.

ولا أرى مكانَ الضربة فأبتعد عنها، كل ما فعلتُه فى ذلك الوقت، أنى قد انكمشتْ قدماى على بطنى وهى مكبلة، وسكنتُ أستقبل الضربات، كالفريسة التى أمسك بها الأسد، وسلمت رقبتها له!

رأسى تتمايل بين أقدامهم، كما تتمايل الكرة بين أقدام الأطفال، ولم أعد أدرى ما الذى يجرى..

- "كفى.. اتركوه؛ سيموت بين أيديكم"!

قاطعهم صوتٌ رغم قسوته إلا أنه كان لى رحمة ونجاة!، كان ذلـك المحقـق الذى تحـدثنا عنه.

أمرهما أن يُجلسانى على الكرسى أمامه، فرفعانى من على الأرض، وأجلسانى ودمى يـنزف من كل مكان.

- حسنًا هل تثورون علينا؟

سألنى المحقق، فلم أرد.

- رد على المحقق يا بن الـ...

وسقطت على أذنى يده الضخمة، كأنَّها صخرة ذهبتْ بأذنى، وسقطتُ من على الكـرسى، وقلتُ:

- بِكَمْ بِعتَ وطنكَ، لأجل ماذا خنتَنا.. لأجلِ حفنة من الأموال؟!

استشاط غضبًا وبدأ يسب وقال لهما: "أدِّباه"!

وبدأ الرجلان بعدها يضربانى ولكن لم تكن أياديهم هذه المرة، أمسكوا العِصِىَّ

وبدءا فى ضربى حتى تورَّم جسدى كله، لم تعد الصرخات التى أُخرجهـا كافيـة للتعبـير عن الألم، وكذلك لم أعد قادرًا على أن أتنفس، حتى تأتى اللحظة التى أعجزُ فيهـا عـن كلِّ ذلك، أسحب كلَّ الهواء الذى فى الغرفة فى نفسى، وأصرخ بعدها صرخة طويلة فيها كل الآلام!

- الآن يا ابن الـ... سأجعلك تندم وتترجاني أن أتوقف.

- أمسكاه!

فأمسكنِي الرجلان، وبدءا يضربانى فى رأسى وفى بطنى حتى تقيأتُ دمًا، وجذبنى واحد من شعرى وقذفنى بكلِّ قوته فى الحائط، حتى تشقق الحائط فى أول مرة، وتكسَّرجزء من رأسى فتفجرت الدماء منه، وقذفنى أخرى حتى اشتكى الجدار بعدها من الدماء.. والآخر يضربنى بالعصا التى لا ترحم.. بعدها يا ولدى، رمانى على الأرض وبحذائه القذر أخذ يضربنى فى كل مكان حتى حُبس نفسى من شدة الألم، وسالت الدموع من عينى، ولم أدرِ بعدها ماذا حدث!

استيقظتُ بعدها وعلى رأسى شاش أحمرُ اللونِ، جسدى لونه أزرق من شدة الورم، عظامى مُكسرة، كل شىءٍ من حولى يؤلمنى، ولا مكان لى كى أتحرك فيه إن أردتُ الحركة، كان جسدى قطعة من العذاب و الوجع!

نمتُ بعدها ولم أفق إلا عندما فُتح الباب، وركلنى أحدهما فى قدمى ليرى إن كنت حيًّا أم مَيتًا!

- هذا طعامك.

وألقى إلىَّ بقطعة من الخبز، وكوب فيه حساء، مرَّ عليها العمر على ما يبدو، ووضع فى الكوب الذى أتبول فيه قليلٌ من الماء!

***

مرَّ شهر بعد ذلك، تحسَّن جسدى، ولكن لم يُكتب له تمامُ الشفاء، ثـم فُـتح البـاب وجاء القذران من جديد.

_قم يا ابن الـ...

وحملانِي، تركتُ جسدى كله لهما، ربما فى حملهما لى راحة للجسد المتعـب، حمـلانى، وقدمى تزحف على الأرض خلفهما ، وذهبتُ إلى غرفة التعذيب.

- أما زلت لا تعلم مكانهم؟

صوت الرجل الذى كاد أن يقتلنى عَلا من جديد.

استجمعتُ كلَّ ذرةٍ فى قوتى من جديد، رفعتُ رأسى عاليًا، وابتسمتُ وقلتُ له:

- إنهم في صدر كل رجل في هذه البلاد!

ردَّ على فى برودٍ تام، عكس المرة الأولى:

- حسنًا.. أنتَ من أردتَ ذلك!

- أحضرا الآلات.

- حاضر يا سيدي.

- ستدفع الآن ثمن ما قلتَه، وثمن هذه الابتسامة!

كنتُ أعتقدُ أنى ميّتٌ لا محالةَ، فحاولتُ أن أنتصرَ عليه ولـو فى حـرب الـكلام فقـط، فقلتُ له:

- لا نهاب الموتَ؛ فموتتنا واحدة، ولكننا نحبه كما تحبُ أنتَ الحياة، أمَّا أنتَ فلن تستطيع أن تقتلني؛ فأنا بالنسبة إليك كنز من المعلومات.

- ستدفع ثمن الكلمات دماءك!

قالها وهو يستشيط غضبًا مجددًا، كانت هذه أسعد لحظـاتى؛ فعنـدها أشـعر بالانتصـار الثمين، والراحة أيضا لأنه سيضرب ضربتَه الأخيرة، وأرتاح أنا من التعذيب شهرًا!

- الأدوات يا سيدي.

- أعدوه.

عندها، قَلَبوا جسدى، وربطـا قـدماىَ فى الأعلى ورأسى فى الأسـفل، أصـبح جسـدى بالكامل مكشوفًا لهم، وأصبحتُ فريسة سهلة لهذا الذئب الجائع.

- فكِّر ألم تَتَذَكَّرْ بعدُ؟

- إجابتي كما هي.. اقتلني إذا أردت.

- سنرى الآن يا ياسر.

وابتسم بعدها ابتسامة فيها من الشر ما فيها، وبدأ الرجلان فى تعـذيبى، والرجـل يَزْفُـرُ على وجهى دخانًا ما قد أشعله فى يده.

وضع واحد منهم كَمَّاشَةً على أظافرَ قدمِى وبدأ ينزِع، والآخرُ بعصًى ـ فيها أسنان بدأ يضرب على قدمى، فاق الألم حدود توقعاتى لم أكن أدرى حينها ماذا أفعل،

الصرخات ما عادت تخرج، وبدا لى أنَّ روحى ستصعد من جسدى، وحينها كانت تلك أمنيتى، الموت أهون من كلِّ هذا، ولما رأى عينى تُغلق وصوتى بدأ يتوقف أمرهما أن يتوقفا!

- اقذفاه بالماء البارد حتى يستفيق.

أفقتُ بعدها وهو يقول:

- ما الأحوال؟.. أتذكرت؟

- كما قلتُ لك.. ليس عندي ما يُقال.

أخذ بعدها يضربنى بالسوط على بطنى العارية، حتى خرجتِ الدماء منها وسالت على جسدى، وأخذتْ تتساقط من على رأسى على الأرض، جسدى أصبح مصبوغًا بالأحمرَ، وكل خلية فى جسدى تصرخ من الألم وتقول لى: "قل له ما يريد، أرحنا من الألم!"!

- انزعا شعر رأسه.

قالها ذلك الرجل، وأدارنى الرجلان، ووضعا على رأسِى ما يمسكا به شعرِى، وأخذا يجذبان فيه بقوة، حتى كادت رأسى نفسها أن تُخلع، ووصلتُ إلى درجة أنِّى لم أعد أقوَى حتى على الصراخ، أصبحتُ أنتظر الموتَ فقط، نزعا الكثيرَ من شعرى، ولم يعد بداخلى أى دافعٍ للحياة، تركتُ نفسى حينها تصعد.

_اعترف يا ابن الـ...

وأخذ رأسى فى غضب، وضربه بكل ما أوتى من قوة، وأنزلنى على الأرض، ركلنى ركلة فقدتُ وعيي بعدها، ولم أفقْ بعدها إلا بعدة أشهر عندما كان طبيب السجن يفحصنى. سمعتُه يقول: "سيكون جيدًا".

نظرتُ إلى جسدى، وكل مكانٍ فيه مغطى بالضمادات.

***

نِمتُ مجددًا ولم أستيقظ إلا بعد أسابيع ربما، لم أعلم حينها متى الزمان! وعلى ما يبدو أنهم أيضًا قد يئسوا من محاولاتهم معى فى الاعتراف، فلجأوا إلى محاولة جديدة، بعدما أفقتُ والتأمتْ جراحى، نقلونى إلى عنبر كبير فيه كثيرٌ من الأسرى والمعتقلين، بعد متى لم أذكر ولكن على الأقل مر عام.

قابلتُ فى هذا العنبر الشيخَ أحمدَ والشيخَ أسعدَ ومجموعةً من الأصدقاء القُدامى، لم أكن أعلم أنهم أُسِروا فذهبتُ إليهم ولم نتحدث؛ مخافةً أن نكون مراقبِين، رأيتُ فى نظرات الشيخِ أحمدَ البِشْرَ لما رآنى ورأيتُه.

تقابلنا هناك بعدما عُذبنا جميعًا، والبقية إما ماتوا أو ذهبوا إلى عنابرَ أخرى، لم نعلم فى هذه العنابرِ أحدًا، وكنا نخاف من الحديث أمام أحد.

عاملونا بلطفٍ شديد، كأننا فى سَجْنٍ آخرَ!.. تودَّدوا إلينا، أعطونا الكتب، وكـأنَّ هـذا السجن مكانًا من المدينة، نظيف، حماماته جيدة، طعامه ممتاز، كُلُّ شىءٍ فيه كأنَّك فى البيت.

كان ذلك على ما يبدو خطة من خططهم اللئيمة، وكانت فيه المدة الطويلـة، حـاولوا أن يُنسونا القضية فيه، كانت خطتهم أن يُغَيِّبُوا عَنَّا وعيَنا، فلم يكـن أحـد يتحـدث هناك عن الحرية تقريبًا!

خفنا فى البداية أنه قـد يكـون ممتلـئ بالجواسـيس الـتى سـتنقل الـكلام بعـدما يكسبوا ثقتَنا، فلم نكن نثق سوى فى أنفسـنا، المجموعـة الـتى أُسرت يـوم الحـرب الأولى مع المغتصب.

وفى يوم دخل إلى عنبرنا وجهٌ جديد، بدت عليه علامـات التعـذيب الشـديد، ظَـلَّ منطويًا على نفسه فترةً طويلةً لا يكلم أحدًا ولا يرد على أحدٍ.

فقررنا أن نتحدث إليه، فقد مضى على الأسر أكثر من ثلاثة أعوام، لم يأت أحد ولم يخرج أحد، ظننَّا أن أحدًا قد ثار من جديد وهذا سيبعث فى قلوبنا أملاً من جديد بعد انقطاع الرجاء فترة طويلة..

ثم بعد فترة من دخوله إلينا، وجدنا أنفسنا نخرج إلى عنـبر آخـرَ، وبـدأت حلقـات تعذيب قاسية، فقد وشى بنا الوجه الجديد.

***

بعد ذلك دخلنا إلى عنبر آخر، وكان مكانًا لغسيل الأدمغة ومحو الأفكار، ففى كل يـومٍ لعب لكل الرياضات، وأشهى المـأكولات، ولكـنْ لا أحـدَ يخـرج إليـه أو يـأتى إليـه للزيارة، حتى ينسى الأسير كل شىء ويفقد الأمل فى الحياة.

أما أنا فى هذه الفترة، كنتُ أعيش فى مُخَيِّلَتِى، كان الألم فيها أقسى من آلام التعذيب الوحشية، فلم أكن أكف عن التفكير فى أهلى، كنـت أتخيـل ولدى فى كل يـوم، تُـرى كيف حاله؟.. ما شكله؟.. هل ما زالتْ أمه تنتظرنى؟.. أم يا ترى فقدت الأمل فى عودتى من هذا المكان؟

كاد الشك يقتلنى، والشوق يذبحنى، وبين سِكِّينَ الشَّوق، وسيف الشك، لا أموت، فقـد كانتْ حدتهم تؤلم ولا تذبح!

كنتُ فى كلِّ يومٍ أتحدث إلى السماء، أطلب من السحب أن تقول لى كيف شـكل عمَّـار وكيف حاله وحال حبيبتى؟!

كم جاءنى الشيخان يُهَوِّنَانِ على، وفى مرة عندما أعيـانى لهيـب الشـوق حـتى حـرق جلدى فسقطت دمعة منى، رآنى الشيخ أحمدُ فجاء جوارى:

- ماذا بك يا ياسر؟

- أشتاق إلى أهلي يا شيخ، أتساءل كيف حال زوجتي وولدي عمار؟

- هَوِّنْ عليكَ يا رجل؛ الله لن يخذلَهما، وسيرعاهما لا تقلق.

- ثقتي في الله كبيرة، ولكن لو يجعلون لنا زيارة حتى أراهم فيها، ألمس زوجتي وأرى طفلي الصغير؟

فقال الشيخ أسعد:

- سيمر الأسر ويبقى الأجر، وسيتحرر الوطن، وسوف تُرَبِّيهِ -إن شاء الله-.

- لا أدري دونَكما يا صديقيَّ ماذا أفعل؛ أنتما من تهونان عليَّ مرارة الأسر.

وكان المكان بحقٍ ناسفًا للأفكار، فَتَّاكًا بالعقول، كان يعصفُ بكلِّ شىءٍ يمكن أن نتخيلَه.

فى كل يومٍ محاضراتٍ عن أشياءَ تافهةٍ، تارةً عن الرياضة، تارة عن فضل الأكل، وتارة عن الدين، كان ذلك أشدُّ ما يُدهشُنى!

كيف لهؤلاء أن يتحدثوا عن الدين، قد زرعوا فى العقول، دينًا كما أرادوه، دينا يتحدث فى الصلاة، وفى الخيرات، ولا يتحدث أبدًا عن استرداد الحقوق أو استرداد الأرض، أو الدفاع عن النفس!، بل كان أولئك الشيوخ الذين يحاضروننا يمجدون مرادًا الخائنَ!

مع الوقت، والتَّكرار تغير فى نفوس البعض مفاهيم كثيرة، لقد صهروا وعيَهم، لا زياراتٍ و لا لقاءَ بأيِّ شخصٍ خارج المبنى.

فالتعذيبُ النفسى أقسى وأعنف من التعذيب الجسدى بكلِّ ما تحمله الكلمة من معنى.

وبعد مرور الأعوام، وجدونا نَحُضُّ النـاسَ على رفـض فكـرتهم، وتعلـيمهم الديـن الصحيح، كنا مع كل محاضرة نُعلى فى نفوسهم، أن هـذه أرضـهم، وأن هـؤلاء سـجانين غاصبين، كنا كمثل الغُصَّةِ فى حلقهم.

وبعدما فشلوا فى أن يَحيدونا عن فكرتنا بتعذيبهم لنا ونقلنا من عنبرٍ لآخـرَ، قـرروا حينها أن يُخرجونا من هنا، وذلك بعدما حدثت انتفاضة جديـدة وتـم أَسرُ كثـيرٍ مـن الأعداد، خافوا أن نجتمع معهم فنثير العنابر كلها ضدهم ونقتل ما يَصْبونَ إليهِ}.

******

انتهى عمارٌ من القراءة، ثم بكى وَحَزِنَ لِمَـا فُعِـلَ في أبيـهِ والرجـالِ وكـلِّ بطـل دافـع عـن الوطن حتى تم تشويهه وسجنه وتعذيبه، ثم تَذَكَّرَ وَعْدَهُ لأمه وغضبه وظـل حـائرًا مُعلقًا بـين جموح الرغبة، وقيد الوعد!

عندما رأى أبيه.. ذهب وَقَبَّلَ رأسَه وقال له في فخر:

- أنت بطل يا أبي.

ثم أعطاه الأوراق التي قرأها، ارتبك ياسر لَمَّا وجدها في يده:

- كيف حصلت عليها؟!

- وجدتُها هنا عندما استيقظتُ.

- يا عمار عدني أن تحفظ نفسك أيضًا، لا أريد لك ذلك.

كان عمار ينظر في وجع الذكرى، ويصمت من قهر فلا ينطق، وتعجب من صبر أبيه على الآلام.

- لا تصمت يا عمار!، أظنك توجَّعتَ وتعجبتَ من حديثي.

- نعم يا أبي.

- هذا طريق كله ألم، وأنا أدرك رغبتَك الشديدة فيه، لكن أمك أخبرتني عن إصابتك، أنت ما زلتَ صغيرًا والطريق أمامك طويل، لا تخسر حياتك يا عمار، لا تقتل أمَّكَ!

لم يستطع عمار أن يخفي إحباطه من تلك الكلمات، ولكنه أَومَأَ برأسه وقال: "أَعْلَمُ يا أبي"، ثم تركه وذهب.

ومَرَّ اليوم وعمار يستعد فيه للذهاب إلى الجامعة، ظل يُجَهِّز أشياءه التي يحتاجها حتى انتهى من كلِّ الإعدادات.

***

في المساء، جلست الأسرة المرهقة، وسهِروا جميعا يتحدثون في أمور كثيرة، وقالت سمية:

- إيَّاك يا عمار وصديق السوء، الجامعة ملأى بالفخاخ والفتن، كما أنها في العاصمة التي حوَّلوها.

كان عمار لا يزال غاضبًا، ولكنَّه قال لها بصوت هادئ:

- حاضر يا أمي.

- واجعل دراستك هي هدفك، وكن كما عهدتُك متفوقًا رغم كل شيء.

- إن شاء الله.

ثم نام الجميع ومرّ الليل، وغردت الطيور مع صلاة الفجر، استيقظ وذهب ياسر وولده إلى المسجد، عندما عادا أخذ أمتعتَه وتحرك ليلحق بالقطار، قبل ذهابه وقفت والدته في الصباح تحتضنه فخورةً به، ثم ذهب ياسر معه إلى القطار.

في الطريق قال ياسر:

- أَعلمُ أنك غاضب يا عمار، ولكن يومًا ما ستعرف إحساسنا يا ولدي عندما تكبر وتُحب وتجد بين يديك صغيرك، ستعلم عندها سبب حرصنا الشديد عليك.

ابتسم عمار واحتضن والده وقال:

- حسنًا يا أبي.

- أعلم أنك وعدتَ أمك، لذا يجب عليك أن تتعلم شيئين: إذا وعدتَ فلا تخلف، وإذا عشقت فلا تغدِر؛ فإن الرجل عهد ولسان، وأقوى عهدٌ في الدنيا هو الحب.

- سأكون عند حسن ظنك -إن شاء الله-.

ثم جاء القطار واحتضن الوالدُ ولدَه، ورَكِبَ عمار ثم لَوَّحَ له بيدِهِ مُوَدِّعًا.

******

(٦)

﴿الْـجَـامِـعَـةُ﴾

عندما دخل عمار العاصمة سار حتى وصل إلى الجامعة، ذهب إلى مكان سكن الطلاب ثم وضع أمتعته ونزل إلى كليته.

وقف بين الطلاب يشاهد هذه الحياة الجديدة والمجتمع الذي لم يعتد عليه في تلك العاصمة التي تم تغييرها كلية، وكأنها بلد غير بلدهم!

كان شغله الشاغل هو البحث عن أمين، كان على ثقة بأنه سيكون ممن تفوقوا وحصلوا على مكان؛ فقد تعاهدا على ذلك، في موجة البحث جاء أحدُهم إلى عمار وقال له:

- مرحبًا، كيف حالك؟

- بخير، الحمد لله.

- أنا سالم، وأنت؟

- عمار.

- من أي بلدة أنت؟

- من بلدة (**سور**)، وأنت؟

- من العاصمة (**الرأس**).

- سعيدٌ لرؤيتك.

- سعيد أيضًا لرؤيتك يا عمار.

صمتا قليلاً ثم أردف سالم متسائلاً:

- أليس لك أصدقاء هنا؟

- أبحث عن صديق لي لم أره منذ مدة.

- حسنًا ألقاك قريبًا يا عمار.

- إن شاء الله.

ذهب سالم ووقف مع فتاة وأخذ يضحك معها ويتمايل، ثم استمر في التعرف على الطلاب واحدًا تِلو الآخرَ، وعاد عمار يبحث عن أمين.

وبينما هو يبحث رأى أن هذه عادة منتشرة في ذلك المكان!

فتيات يتمايلن ويرتدين القصير من الثياب، يقفن جوار الشباب يداعب كل منهما الآخر بالأيادي قبل الألسن!

***

تَذَكَّرَ عمارٌ الشيخَ عزيز ودروسه له، عندما أخبره عن مراد وما جاء به من خطط لتدمير عقيدة البلاد وتغيرها كليةً، كانت الخطة ظاهرة بشدة في العاصمة..

كيف لعب أولئك على تغيير فطرة الناس وطمث هُويتهم، تغييب عقولهم، بل جَعَلوا الدينَ أهونَ شيءٍ على قلوبهم، كيف أصبح عندهم مجرد صلوات يؤدُّونها، وطقوس يحركون فيها أجسادهم في المساجد، حتى إذا خرجوا من المسجد، تركوا دينهم في الداخل.

تذكر كل كلمة قالها له ووجدها حقيقة واضحة أمامه!

تذكر في هذه اللحظات لماذا حذَّرته والدتُه كثيرًا من أصدقاء السوء والفتن المنتشرة في هذه الجامعة!

عمار تربى جيدًا وكان دائمًا ما يشغل باله دينُه ووطنُه، جلس بعدما شاهد وأخرج دفتر مذكراته وقلمه وبدأ يكتب..

{أول أيام الجامعة، بدا لي أنَّ القلوب قد تغيرت، وأن الناس قد باعوا دينهم، فقد نجحت كل خطة في تغير الفطرة، وها قد انعدم الوعي.

فالشباب هنا تافه تحركه شهوته، ربما يتشاجرون على فتاة ويفرحون إن أشارت إليهم، فهذا هو قمة مكسبهم، دعاباتهم غريبة جدًّا، لا يغضب واحد إن سَبَّ صاحبُه أمَّه أو أباه!.. الآن أفهم كلمات أمي عندما قالت: "اعلم يا ولدي أن القرآن حياة القلوب، أن الدنيا فتنة، وإن وقع القلب في فخِّها فلا خلاص له منها!".}.

"ماذا تُدَوِّنُ يا فتى؟".. قاطَع عمارًا ذلك الصوت الذي اعتاد عليه من قبل، فرفع رأسَه يستطلع، ثم تفاجأ وقال في فرح وأمل:

- أمين، اشتقتُ إليك يا صاحبي.

واحتضنا بعضهما البعض، فاضت مشاعرهما بالفرح حتى طغت على الألسن وتوقفت الكلمات..

- كنت أعلم أنك ستأتي هنا.

- لقد تعاهدنا أن نسير معًا في كل طريق.

أغلق عمار دفتره وطفقا هو وأمين يتعرفان على معالِمَ الجامعة ويشاهدان ما يشاهدان من سوادٍ كثيف يتخلله نقاط من نور، ثم قال عمار:

- هيا بنا نذهب إلى غرفتنا في هذا السكن.

***

كان مبنى سكن الطلاب خلف (كُلِيَّتِهِمْ) بشارعَين، في سيرهما وجدا الحراسة الأمنية شديدة حدَّ العجب، فكلُّ بابٍ من أبوابها كان كأنَّه ثكنة عسكرية، الجنود يمرون في الجامعة بأسلحتهم، تحسبًا لأيِّ شغب.

وصل عمار وأمين إلى سكنهم في ذلك المبنى الكبير الذي يقع داخل أسوار الجامعة.. مبنى كبير من أربع طوابق، كل طابق فيه غرف وحمام جامع، في كل طابق عشرون غرفة، كل غرفة تحتوي على شخصين، يجمع هذا السكن الطلاب القادِمين من كامل أنحاء البلاد؛ فهي الجامعة الوحيدة في البلاد.

وفي أول الأيام استيقظ عمار مبكرًا في شغف، كعادته في فعل أي شيء جديد وخصوصا لو كان دافعه الحب، ثم قال بالأمل الجميل لأمين:

- هيا بنا يا أمين.

- هيا بنا يا صديقي.

***

وانطلقا إلى (الكلية) من جديد، جلسا وجلس الطلاب جميعًا في أماكنهم، ودخل المحاضر، دكتور (ناظم).. كان متوسط الطول عظيم الهيئة، له وجه أمْيَل إلى السمرة منه إلى البياض،

عليه لحية خفيفة، يرتدي نظارات تعطيه وقار الأطباء، يرتدي على بدلته ما يرتديه الأطباء من لباس أبيض ملائكي، يدل على الرحمة ويُضفي وقارًا، وبدأ يُعَرِّف الطلابَ بعلم الطب:

"اعلموا أيها الطلبة أنَّكم قد جئتم لأسمى المهن؛ فأنتم ستكونون في المستقبل سببًا في شفاء المريض -بإذن الله-.. الطب علم يحتاج إلى تعب وكَدٍّ، وحياتك ستكون رسالة من أجل الخير، من أجل المريض وعافيته، وثوابكم عند الله عظيم، وقدركم في الدنيا رفيع، فاجتهدوا فيه ولا تتكاسلوا يومًا، واجعلوا نياتكم لله خالصة".

أَحَبَّ عمارٌ دكتورَ ناظم، وبدا له أنه من أهل الخير في البلاد رغم ما حدث فيها، شعر أنه ما زال في قلبه حب الدين، والأمل في الخلاص من الظلم الواقع في البلاد، كحال أغلب القدماء.

ذهبا إليه بعدما أنهى محاضرته، وَعَرَّفَا نفسَيهما له:

- كيف حالك يا دكتور؟، أنا عمار.

- وأنا أمين.

- أهلا بكما يا أطباء الغد، أتمنى لكما مستقبلاً طيبًا.

ابتسم عمار وقال له:

- لقد أسعدتني كلماتك كثيرًا يا دكتور، وبعثتَ في قلبي أملاً وعزيمةً لتحقيق أهدافي.

- كذلك أنا، والحقَّ أنني أحببتُك يا دكتور.

- أحبكما الله يا صغيريَّ، إن احتجتما أي شيء فمكتبي هناك -وأشار لهما ناحيته-، لا تتحرجا مني.

قالا له:

- إن شاء الله.

بعد هذه الكلمات، قَرَّرَ عمار وأمين أن يكونا على الدرب دومًا، وأن يحققا لآبائهما أحلامهم وتعاهدا على ذلك من جديد.

❋❋❋

وعندما خرجا إلى الساحة الخارجية، قال عمار:

- كيف حال مرض أبيك يا أمين؟

بَدَتْ على أمين ملامح الحزن بعد كلمات صاحبه، تعجب عمار لحال صاحبه ونظر إليه في إشفاق:

- ما سبب حزنك يا أمين؟

- لقد مات والدي متأثرًا بمرضه، لم يستطع الأطباء مساعدته.

ثارت في عينَي أمين الدموع، بكى بصمت فحزن عمار على صاحبه وقال له:

- البقاء لله، لم أكن أعلم، أعتذر إليك.

- لا عليك يا عمار، إنَّا للهِ وإنَّا إليهِ راجعونَ، ذلك دافعٌ لي؛ كي أكون طبيبًا ناجحًا عالماً بالطب؛ لكي أساعد كلَّ مريض.

- إن شاء الله ستكون يا صديقي.. إن شاء الله.

❋❋❋

ثم أخذا يستطلعان معالم الكلية، فشاهدا متاحفها وعلما أماكن الدراسة فيها وأماكن الاستراحة، ثم مرَّا على المشرحة فخافا من الدخول في البداية ثم تشجعا ودخلا هناك فشاهدا الجثث وهي تقطع، فخرجا سريعًا.

ومر اليوم بهدوء، قام على التعارف ما بين الطلاب الجدد، ثم ذهب كل طالب إلى مسكنه.

وبينما كانا يسيران، شاهدا –في الساحة التي تفصل بين الكليات التي كانت تبعد عنهما بحوالي مائة متر– تَجَمُّعًا لبعض الشباب، تساءلا عن هذا التجمع، لكن لم يكد يمر الوقت حتى تبددت حيرتهما عندما نادى أحدهم بصوتٍ عالٍ:

– حرية.. حرية..

سَنُحَرِّرُ يَومًا أَوطَانًا – مِنْ بَطْشِ الفَاسِدِ وَالظَّالِم

وردَّد بعده بعض الشباب، اشتعلت هذه الساحة بالشعارات والهتافات، اشتاق عمار لهذه المشاهد..

جرت أمام عينَيه صورةُ المسجد والانتفاضةُ وكابوسُه الذي ما زال يُعاوِدُه حتى الآنَ، شعر بأن الحق المكسور جناحه بدأ يتعافى..

تذكر عمار وعدَه لأمه، فَظَلَّ واقفًا يشاهد على مَضَضٍ، ولم يكد يمر الوقت حتى هطل على الجَمْعِ وابلٌ من القنابل الغازية التي تفرق الطلبة، واستطاع الجنود أن يعتقلوا بعض الشباب، وَفَرَّ البعضُ الآخرُ.

وقف أمين وعمار، واتسعت الحِداقُ من سرعة التعامل مع الطلاب:

- يبدو أنَّ الكفاح له ثمن غال حقًا.

- لن ينحني الجبار إلا إذا كُسر ظهرُه يا أمين.

- أَيُرْسِلُ هذه القوات من أجل تجمع بسيط كهذا؟!، لم يستطع أن يسمع كلمة واحدة لها مرادف الحرية؟!

- هو على يقين أن حياته سرقة وأن ملكه زائف، وما هي إلا مسألة وقت، حتى تحين الساعة التي ما زال يحاول أن يؤخرها قدر ما يستطيع.. بالقتل، والأَسر، والتخويف.

بعد ذلك أكملا سيرهما وصلا إلى غرفتهما في السكن.

***

مرت الأيام، واجتهد الصديقان في عملهما، ضاعفا جهديهما ليحققا أحلامهما، ذاكرا بجِدٍّ واجتهادٍ دون تكاسل عن العمل في أي يومٍ لأي سبب، جعلا من النجاح غايةً أمامهما لن يصلا إليها إلا ركضًا، فلم يتهاونا ولم يتوقفا.

ثم قرأ أمين منشورًا عن تعلم الإسعافات الأولية لطلبة السنة الأولى، فاقترح على عمار أن يشتركا فيه، فوافق.

وعندما حان موعد الدورة ذهبا في صباح اليوم المذكور على المنشور، فوجدا أن المحاضر هو الدكتور ناظم فتفاءلا به أكثر، وتوطدت علاقتهما به أكثر..

كانا يذهبان في كل يوم إلى (الْمَشْرَحَةِ)، يتعلمان هناك خياطة الجروح، وكيفية تركيب العقاقير، وقياس ضغط الدم وغيره من الأمور.

في يوم الراحة، استأذنا للذهاب إلى الدكتور ناظم ليسمعا منه بعض الدروس، عندما وصلا إليه رحب بهما وقال لهما بعدما تحدثا عن أمور شتى:

"الجامعة مكان للتفوق في كلِّ شيء أو الانحطاط في كل شيء؛ مجتمع مفتوح لا رقابة فيه، الطلاب هناك دون أهل، وكل شيء بها يُعِينُ على التفوق أو على الفساد ومحو الأخلاق، فكونا يا أولاد كما آمَلُ أن تكونا؛ فتَيَينِ صالحَين لهما غاية سامِيَةٌ ويَسعَيان من أجلها بكل جهد".

تفاءل الصديقان بحديث الدكتور، فقد جدد الطاقة في صدرَيهما، وكان مُنَبِّهًا لهما كلما اشتدت الفتن وازدادت خططُ المفسدينَ اشتعالاً.

وتعاهدا على أن يُحارباه بكل ما أوتيا من قوة، بنشرهم الأخلاق بالفعل والقول.

المتفوقُ دومًا يكون مَحَطَّ الأنظار لذا أرادا أن يكونا في المركز الأول؛ لنشر ما يريدان.

وأعلنت الجامعة عن مسابقتها الموسمية في الخَطابَة، كانت على مستوى الجامعة ويحضرها جميع الطلاب، شَجَّعَ أمين صاحبَه وقال:

- لا تقف مكتوف الأيدي!
- ماذا أفعل؟
- اذهب وقدم فيها؛ أنت قويٌّ في ذلك.
- أترى هذا يا أمين؟
- نعم بالطبع، ستؤثر في كثيرٍ من الطلاب، جَهِّز خُطبتَك لنشر الأخلاق واستعن بالله.
- إذَن أستشيرُ الدكتورَ ناظم.

ثم ذهبا إليه واستشاراه في الأمر:

- ما رأيك يا دكتور، أقترح على عمار المشاركة في المسابقة ولكنه متخوف.
- لا داعٍ للخوف يا عمار، قَتْلُ الرهبةِ هو بدايةُ النجاحِ.

- أترى ذلك يا دكتور؟

- نعم توكل على الله.

* * *

قَدَّمَ فيها عمارٌ، وَأَعَدَّ خُطبَتَه وَنَمَّقَهَا بالأشعارِ والكلماتِ الحماسيةِ، ثم تَدَرَّبَ عليها حتى جاء يوم المسابقة..

كان مسرحًا كبيرًا، أسفله يجلس الطلاب على الكراسي المرصوصة، وعلى يمين المتسابق تجلس لجنة التحكيم المكونة من أربعة من رواد اللغة العربية.

كانت المنافسات محتدمة؛ قد حضَّر كل متنافس مقالَته أو قصيدتَه، أو ما أراد أن يُلقِيهِ على مسامعَ الناس، من حوله مئات الطلاب، ولجنة التحكيم بجواره تنصت.

رأى عمار كل هذا، فانتابته الرهبة، وقال لأمين:

- هل يا ترى ما كتبتُه جيدًا يا أمين؟

- لا تخفْ، ما كتبتَه ممتاز، فقط أَلْقِهِ كما فعلتَ في حجرتِنا.

- حسنًا.

***

جاء دور عمار في المسابقة، نادى المنادي على اسمه، فصعد بين الناس بكل ثقة، ولكنها مُزجتْ برهبة، مَرَّةٌ من منظر الطلاب الحاضرين، ومرة من لجنة التحكيم.

وقف أمام الناس ثم سمَّى اللهَ في سرِّه وبدأ في الكلام، كانت خُطبةً عصماءَ وقد ألقى على مسامعهم خِطابًا تحدث فيه عن الأخلاق التي اندثرت والحياء الذي مات وأحوال الشباب والفتيات التي لا تَسُرُّ.. بدأ حديثَه بقول الله تعالى:

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ
جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ
إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ
ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُواْ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ
ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ سورة النور: ٣١.

ثم أكمل خطابه واثقًا في نفسه، قوي اللسان بديع البيان، يلقي الحكمة تتلو أختها، يكشف ما داراه الزمن من أخلاقٍ تندثر، وحياءٍ كاد أن يموت، وعن شباب نسوا قضيتهم، وقبلوا عيشهم تحت غطاء الأوهام، ثم أنهاها بأبيات عذبة تفيض قوة وجمالاً:

هُـــمْ لَــمْ يُرِيــــدُوا لِلْفَتَــاةِ تَــجَمُّلًا،   كَـــلَّا؛ أَرَادُوا نَظْــرَةً مِــنْ جِسْــمِهَا!

هُـمْ وَاضِـعُونَ إِلَى التَّبَـــرُّجِ خُطَّـــةً؛   كَـيْ يُـفْسِــدُوا طُهْـرَ الْبَنَـاتِ بِسُـمِّـهـا

**

إِنْ كَـانَ كَشْــفُ الْجِـسْـمِ ذَا حُرِّيَّــةً   فَلِــمَ التَّـحَشُّـــمُ فِي قُيُــودٍ صُــفِّدُوا؟!

**

إِنَّ الْجَمَـــــالَ لَدَى الْفَتَـــاةِ ثَلاثَـــةٌ:   دِيـنٌ، وَعَـقْـلٌ، فَـاحْـتِشَـامُ رِدَائِـهـا

أنهى عمار خطبتَه في حماس قوي، وفوجئ بلجنة التحكيم تصفق، رأى السرورَ على وجوههم، وكأنَّهم قد رأوا في كلماته عودة للماضي الذي طالما أحبوه واشتاقوا إليه بفطرته الطيبة، بنسائه الطاهرات، وبناته اللواتي في حفظ وستر.

ورأى كثيرًا من الفتيات وضعن وجوههن في الأرض خجلاً، وأخريات صَفَّقْنَ بحرارة.

ووسط ذلك كان هناك كثير من الذين ينظرون نظرة اشمئزاز لـما قال، ولكنهم كانوا يدارونها.

سمع أصواتَ التصفيقِ تعلوا خَفَّاقَةً من الجميع، فَسُرَّ لـما فعـل وأصـبحت رسـالتُه خفاقـةً في وسط الجامعة.

في اليوم التالي قابل الدكتور ناظم، فناداه وعندما ذهب إليه عمار، وجده يُقَبِّلُ رأسَه ويشـكرُه على ما قال:

- بارك الله فيك يا عمار.

احمَرَّ وجهه خجلاً، لكنه شكره وفرح بذلك كثيرًا.

***

بعد خطبته بأيام ظهرت النتيجة، حصل عمار على المركـز الأول، وانتشـر اسمـه ورسـالته بين الجميع، الكثيرون توددوا له.

تودد الجميع إليه، وحاولت الفتيات الوصول إليه فيَتَمَّنَع عن الدعابات ويتحدث معهن بكـل أدب ويَقضـي لـن أرادت منـه حاجتهـا ولا يُطيـل، فَـلا بُـدَّ مـن أن يكـون قـدوةً للجميـع. وبينما كان عمار وأمين يجلسان في ساحة الكلية، ذهب أمين يشـتري بعـض الـمأكولات لسـدَّ جوعهما.. انتظره عمار، فجاءه سالم وقال:

- كيف حالك يا عمار؟

- بخير ولله الحمد.

- عندي رسالة لك يا عمار.. أرسلت إحدى الفتيات مع صديقتي رسالةً لأوصلها إليك، قالت لي: "إنها تُريد أن تتعرف عليك وتكونا أصدقاء".

- لا، أعتذر عن ذلك.

- ما بالك يا عمار تتمنع عن الكثيرات؟!

- ما جئتُ هنا لذا الأمر يا سالم!

- آهٍ لو كانت لي شهرتك هذه!

- ماذا؟

- لصادقتُ الكثيرات، واستمتعتُ كثيرًا.

نظر إليه عمار وسأله:

- وما الفائدة إذًا يا صائدَ الجميلات؟

- نستمتع بهذا، نشعر بالحيوية معهن.

- هداك الله يا سالم!

- يا لك من أحمق!

قالها له بنظرة يحيطها الكره والاحتقار شديد.

❋❋❋

كَرِهَ سالمٌ عمارًا، اتخذه عَدوًّا له وحاول جاهدًا أن يشوه صورته حتى جاء يوم قرر فيه سالم أن يَكيدَ لعمار!

في بداية اليوم الدراسي قرر سالم أن يضع فخًّا له حتى يشوهه، اتفق مع فتاة من الخارج وأدخلها وأعطاها بعض المال كي تفعل ما أراد، تَصَيَّدَ -في نفس الوقت- الموقفَ ليجعل الطلاب يشاهدون ذلك..

ذهبت الفتاة إليه في نهاية اليوم الدراسي وانتظرته في مكان لا أحد فيه..

وقفت تنتظر خروجَ عمار؛ حتى تُلقي نفسها عليه ويسقطان على الأرض أمام سالم ومجموعة من الأصحاب ليشاهدوا ذلك، لم تكن الفتاة من الجامعة فلن يضرها ذلك؛ فهم لن يشاهدونها مجددًا.

خرج عمار من المكتبة بعدما أنهى قراءته، لم يكن في الجامعة آن ذاك إلا نفرٌ قليل ومدخل المكتبة لم يكن فيه أحد سوى عمار وخلفه أمين، سار عمار في طريقه ولم يتوقع خيانة أو مكيدة من مثل هذا أبدًا..

- عمار.. كيف حالك يا حبيبي؟

كان نداء الفتاة هو السر بينها وبين سالم المخادع، سقطت الفتاة على عمار ونظر الشباب إليه بعيون متعجبة شامتة..

صُدم عمار من قُبُلاتِ الفتاة عليه، ونظرات الزملاء الشامتين، وابتسامة سالم الخبيثة! صمت عمار ولكنه ابتعد عن الفتاة في رجفة، ودفعها عنه بقسوة على الأرض وصرخ فيها بشدة:

- ابتعدي عني أيتها الفتاة!

صمت المشاهدون وتغير وجه سالم من الفرح إلى الخوف، من شماتة إلى رهبة!

قالت الفتاة في بكاء:

- أنا آسفة؛ هو من دفعني لفعل ذلك وأعطاني مالًا!

وأشارت بإصبَعِها إلى سالم رفقة أصدقائه.

لم يفعل عمار شيئًا.. فقط نظر إليه في قسوة وترك المكان وغادر.

غضب عمار بشدة وقال لأمين وهما ذاهبان:

- لا بُدَّ أن أَرُدَّ له الصاعَ صاعَين!

- إني لأعجب أنه ثَمَّةَ قلوبٌ حاقدة هكذا!

- سأُريه، سأجعله يندم.

- لا عليك يا عمار.. دعك منه؛ هذه الأفعال لن تنتهي، وبرغم عجبي إلا أنني أشفق عليه ولا على من هم مثله.

- أنتَ الذي حُزتَ قلبًا نقيًّا يا صاحبي.

تبسَّم أمين فقط ولم يعلق على كلمة عمار، ثم أردف بعد قليل سائلاً:

- ماذا سنفعل إذن؟

- لا أعلم، لكن لا بُدَّ أن أجعله يندم.

- ما رأيك أن تدعوه لينضم إلينا؟، وبذلك نتجنبه وربما يتغير للأفضل.

- حتى بعد مكيدته هذه؟!

- نعم، هو الآن غاية الغضب والحرج، فقد ضَرَّ نفسَه لا أنتَ.

- يا لك من ساذج!

ابتسم أمين لمقالته وعَلَّقَ:

- ما أعظم السذاجة إذن.. أن تعيش دومًا بقلب يصفح، ينام ولا يحمل شيئًا في نفسه من حقد ولا غضب إلا إذا كان في حق دينه وأهله ووطنه، أما حقه في نفسه يجعله بينه وبين ربه، حسنات وتجارة لن تبور، حتى وإن قالوا سذاجة،
فما أجمل العيشَ بقلب ساذجٍ!..

ذلك القلب الذي حمل مزيجًا من بياض الثلجِ ونقاء الحَمَامِ.. قلب لا يهوى أن يُخبره الآخرون بإساءتهم له!..

هو فقط يحب أن يحبَ الجميع، وإن عومل بالإساءة يقابلها بالصفحِ الجميل..
أراد فقط من أعماله أن تكون بجناحين، أحدهما نية صادقة والآخر من إخلاص!
فيصعدا بعمله الى ربٍّ يجازيه عليه، حتى وإن قالوا عليها "سذاجة"!.. فيا حَبَّذا القلب الساذَج إن كانت هذه عندهم سذاجة!
- حسنًا.. حسنًا، غفر الله لنا ولك.
أكملا الطريق إلى سكنَيهما، لما دخلا إلى غرفتهما ذهب أمين ليستحم وينظف نفسه من عرق اليوم، وذهب عمار ليبدل ملابسه، ثم جلس يفكر فيما قاله صديقه.

خرج أمين وقال لصاحبه:
- إذًا ما قرارك الأخير؟
- سأدعوه كما قلتَ.
- كيف ستفعل؟
- سأذهب إليه قبل الصلاة بقليل لأفاتحه في المسجد فالمكان أنسب، وربما يفتح الله عليه.
- أحسنتَ يا عمار، مُوَفَّقٌ -إن شاء الله-.

بعد شهر من ذاك الحدث رأي عمارٌ سالمًا واقفًا هناك مع بعض الفتيات، فذهب إليه وناداه:

- سالم، أريدك لحديث.. أيمكنك أن تأتي؟

تعجب سالم ثم قال له بفتور:

- حسنًا.

- كيف حالك يا سالم؟

- بخير، وأنت؟

- الحمد لله في السراء والضراء، قل لي يا سالم كيف هي أحوال الفتيات؟

أطلق سالم ابتسامةً عالية وقال:

- إنهن جميلات وأحاديثهن جميلة.

- يا رجل!، كيف هذا؟

- أستمتع بالحديث إلى هذه وإلى هذه أجد المتعة في ذلك، عندما أعيش شبابي وحياتي كما أريد.

في وَسَطِ حديث سالم ارتفع صوت المؤذن ينادي "اللَّهُ أَكْبَرُ.. اللَّهُ أَكْـبَرُ"، مُعلنًا صلاةَ الظهر.

- إنه الظهر يا سالم، تعال نصلي ونكمل بعد ذلك.

فَكَّرَ قليلاً، ثم قال:

- حسنًا.

ذهبا إلى مسجد الجامعة وصلَّيَا، وبعدما انتهت الصلاة اجتمعا هناك بجوار أحد أعمدة المسجد، قال عمار:

- الأجواء هنا مريحة للنفس يا سالم لا أدري لماذا!، ألا تشعر بالراحة؟

ــ بَلَى، أشعر بها، مَرَّ زمن طويل على آخر صلاة لي في المسجد.

قال سالم ذلك في حزن وضيق.

- لماذا؟

- لا أجد من ينصحني، أتعلم أنه بداخل كل مذنب منا بقايا ضمير، يقول له: "عُدْ" كُلَّمَا وجد الفرصة.

- إن أردتَني أن آخذ بيدك دومًا، وكلما حانت الصلاة جئتُكَ وذهبنا سويًّا.. سأفعل.
تبسم سالم في رجاء وقال:

- أنت طيب بحق يا عمار، طالما أعجبني ثباتُك في وجه المغرَيات.

- يا سالم.. الخير في جميع القلوب دائمًا، والتائب يفرح الله بتوبته ويغفر له كل ما مضى إن صدق، وكلنا نذنب ونخطئ ولكن الله يسترنا، ألم تسمع قولَ القائل:

وَيَحْسَبُنِي الْجَمِيعُ مِنَ الْخِيارِ؛ بِسِتْرِكَ يَا إِلَهِي عَنْ شُرُورِي

إِلَيكَ الْحَمْدُ يَا رَبَّاهُ دَومًا، وَمِنْكَ الصَّفْحُ عَنْ سُوءِ الْأُمُورِ

- حديثك جميلٌ يا عمار؛ يريح النفس دومًا، ولكني كنتُ أُكابر.

- حسنا سنأتي كل يومٍ معاً إلى هنا نصلي ونتحدث.. اتفقنا؟

- اتفقنا.

ابتسم في سعادةٍ وقال هذا كأنه وجد طوق النجاة في بحر عميق.

تــوالــت الأيـــام وعمـــار وأمـــين وســـالم يـــذهبون إلى المســـجد، يصـــلون ويتســـامرون. تغير سالم وأصبح معهما في كل وقت تقريبًا، ترك الفتيات وأصبح صادقًا، يقرأ القرآن بل وأحيانًا يؤذن في المسجد للصلاة.

كان عمار أسعد الناس في ذلك؛ فَلَئِنْ يَهْدِ اللّهُ بكَ رجلاً خيرٌ لكَ مِن حُمُرِ النَّعَمِ.. كما قال رسول اللّه.

ولكن لم يكد يمر شهر أو أكثر، حتى وجد عبادة سالم تقل، والْتَفَّ أصدقاءُ السوءِ حوله مرة أخرى، وهكذا تذبذب حاله!

ومر العام الأول على هذه الشاكلة، وجاء موعد الامتحانات.

عمار في هذه الأوقات كان يحتاج إلى أمه كثيرًا، احتاج إلى دعائها في كلِّ صباح، وكلماتها التي تعطيه الحماسة.

كان يعرف أنها بالتأكيد تدعو له في كلِّ صباح، ليس في وقت الامتحان فقط، بل في كلِّ يوم.

ومرت الامتحانات، وظهرت النتائج سريعًا بعدما انتهت بيومين، قبل حتى أن يعود الطلاب لأهلهم.

حقّق عمار أعلى الدرجات، وأصبح أشهر طالب في الكلية، وحقق أمين المركز الثاني أيضًا فكانا خير رفقة وخير دعم لبعضهما البعض.

***

وَدَّعَ الصديقان بعضهما البعض بعد ذلك، وقال عمار:

- أراك بخير يا صديقي في العام القادم، أو ربما في زيارة.

- كُن بخيرٍ يا عمار.

- ألقاك على خير -إن شاء الله-.

- في رعاية الله يا صديقي.

وانطلق كل منهما إلى محطة القطار، أخذ أمين قطارَه، أخذ عمارٌ آخرَ، وانطلق كل منهما إلى أهله.

وصل عمار إلى بلدته، قابله والداه بشوق وحرارة..

قبَّل رأسَ أمه، ويَدَ أبيه، وأخذاه في أحضانهما ثم قال ياسر:

- كيف كان العام يا عمار؟

- الحمد لله يا أبي، كان بخير وتفوقتُ كما تريد، كنتُ الأول كالمعتاد.

- شرفتَني يا ولدي ورفعت اسمي.

قبَّل رأسه وقال له:

- أنت شَرَفي يا أبي، وما أنا إلا غَيضٌ من فيضك.

- حفظك الله يا عمار.

أضحت سمية سعيدةً بولدها أيَّما سعادةٍ.

مرت الأيام كعادتها زاهية، كالبستان في فصل الربيع، وفي إحدى الأيام جلس عمار ووالده يتأملان الغروب من حديقة المنزل فداعبه ياسر قائلاً:

- كيف كانت حياتك مع الفتيات؟

عَلَتْ ضِحكاتُ عمار بعد سؤال أبيه، وأجاب:

- آهٍ منهن يا أبي، أتدري يا أبي: قد جئتَ على جُرحٍ لطالما أرَّقني، فقد كان أكثر ما أعيا قلبي وأسالَ دمعي، هو أنَّ الله قد قَدَّرَ أنْ لا أختَ لي، هذه النعمة التي جَهِلَ الكثيرون قيمتَها.. فإن كانت الصحة تاجًا على رؤوس الأصحاء، فإن الأختَ بئرٌ من الماء في وسط الصحراء!

- أَعلَمُ هذا يا ولدي، ولكن تأكد أن الله من اختار فهذا قدرك.

- أعلم، والحمد لله على كل حال، لكن حياتي يا أبي في حاجة إلى حُبٍّ نقيٍّ؛ إذ لا عهد لي بحديث الفتيات على حاجتي به، وشباكهن قد تُمسك بي يومًا ما!

- اصبر حتى تشرق شمس اللقاء بعد عتمة الليل الكئيبة، اعلم أنَّ الصبر ترياق ذلك الجرح، وإن اشتد بك الأمر فعليك بالصيام.

- أفعل ذلك يا أبي، لكنني في حاجة إليه أيضًا.

- يا ولدي.. اسمع نصيحتي جيدًا، الحب إما أن يكون لعنةً عليك تُنسيكَ مَن أنت، أو أن يكون طائرك الذي يسمو بك فوق سِهام الفتن نحو الجنة، فلا تتعجل في الاختيار، وكن صبورًا.

– لكن ماذا إن عشقتَ يا أبي في يوم؟.. ماذا يجب أن أفعل لأفوز بالحب، ولا أكسر العفاف والنقاء؟

– وقتما تشاء، سآتي معك لأطلبها من بابها، فالحب طِيب الحياة يا ولدي وعطر القلوب، به نرتقي ونسمو إن كنا على طريق الله، والزوجة الصالحة خير متاع الدنيا وطريق الوصل معروف يا ولدي.

فكن قويًّا لا تُشَيطِنْهُ؛ فيكون عليك لعنةً لا جنة!

– جزاك الله خيرًا يا أبي.

منذ ذلك الحين، عاهد عمار قلبَه على ألا يخون قبل اللقاء، عَشِقَ تلك المجهولة قبل أن يلقاها وهو على ثقة بأنَّ اليوم سيأتي، وسيحلو اللقاء.

في مساء ذلك اليوم جاءت رسالة إلى ياسر، كانت الرسالة تطلب منه الحضور وحده إلى بيت بعيد في نهاية المدينة؛ للقاء بالشيخ أحمد والرفاق الغد بعد صلاة العشاء.

عندما حان الموعد ذهب ياسر وحده إلى هناك، وقابل الشيوخ، وقف الشيخ أحمد عندما اجتمع الجميع وقال لهم:

– مر عام كامل على خروجنا، الجميع قد رأى في محيطه رغبة الناس في الخروج.

علَّق أحد الشيوخ:

– وكيف سنقاوم؟

- لقد كنا ندبر الأسلحة منذ فترة عن طريق السفن التجارية التي تأتي خلال النهار، وعن طريق بعض رجالنا مع الحدود، وتم تخزين الأسلحة في أماكن خفية في كل بلد حتى الموعد الذي سنبدأ فيه.

وعندما اتفق الجميع على ذلك خرجوا منتظرين اللحظة المناسبة.

ولم تكد الإجازة تبدأ حتى انقضتْ، وحان موعد ذهاب عمار، فَوَدَّعَ أبوَيه وذهب إلى جامعته.

****

(٧)

﴿لقاء وإعداد﴾

عاد ياسر من صلاة العشاء إلى المنزل، ودخل إلى حيث كانت سمية تُعد له العَشاء، ولما انتهت، جلسا معًا على المائدة، وبينما هما في ذلك الوضع نظر إليها ياسر بحنانٍ وقال:

- أَوَّاهٌ يا سمية، أَبَعدَ هذه السنين نجلس جِلستنا مجددًا، يا لحلاوة اللقاء!

- لقد تذوقتُ المرَّ في غيابك كثيرًا، وهل لقمر أن ينير لو غابت الشمس؟!

ابتسم ياسر ابتسامةً دَلَّتْ على انشراح صدره وسعادة قلبه ثم ضمها بين أحضانه وعاد بذاكرته طويلاً..

- يا لذلك اليوم الذي لم يغب عن ذاكرتي قط، كنت في الخامسة عشرة لكنني ما زلتُ أذكره ولا يغيب عني.. يوم عرفتُكِ يا سمية..

- لم تحكِهِ لي يومًا يا ياسر، كيف عرفتَني؟

- حسنًا.. كنتُ في المسجد أتعلم القرآن وأجلس مع الشيخ يقرأ عليَّ الصغار، وعندما دخلتِ علينا أول مرة وأنت ما زلتِ غصنًا غضًّا يانعًا في التاسعة من عمرك، رحب شيخنا بك وبأبيك وبدأتْ رحلتُك في تعلم القرآن.

يومًا بعد يوم كنت أستمع إليك وأنت تصدحين بآيات الله بصوتك النديِّ الذي يُثلج الصدرَ ويُريح النفسَ.

وأذكر لعبنا بعد الحفظ في ساحة المسجد مع الأطفال ونحن هنالك صغار لا نعرف شيئًا إلا البهجة التي عُرفتْ عن أرضنا.

فكانت اللحظات لا تُنسى ومرت الأيام وحفظتِ القرآن في عام واحد متفوقةً على كل أقرانِكِ، وحُببتِ إلى شيخنا كثيرًا؛ لسرعة انتباهِكِ ودقة حفظكِ وصوتِكِ الذي كان يَنعتُه بالملائكيِّ..

وما زلتُ أذكر تلك النبضة التي أحيَتْ قلبي، أول مرة رق فيها لك بعدما رأيتُك تبكين لوفاة والدك عندما تغيبتِ عن الدرس فترة وعدتِ، فحكى لنا الشيخ حكايةً والدك مع القرآن وكيف كان يعلمه في صغره ففرت الدمعة من عينيكِ لما تذكرتي مرضه على صغرك حينها.

تذكرتْ أباها الذي فارقها صغيرة فعبستْ من ألم الذكرى، ودعتْ له:

- رحم الله أبي، وجعله من أهل الجنة.

ضَمَّها، وتَرَحَّم عليه معها ثم تابع..

- حينها رق قلبي الصغير أول مرة بالحب الذي لم أدركْ حينَها أنه حب سيدوم معي إلى ما لا نهاية، كأنَّ دموعَكِ كانت التعويذة التي سحرته، والدين الذي ملأه، والدماء الذي ضخها في كامل جسدي!.. تمنيتُ لو أنني أقدر على احتضانك وقتها؛ لأواسيكِ كما أفعل الآن. ومسح دموعها المنسابة على خدها:

- طالما أنا حيٌّ فلن أسمحَ لهذه الدمعة أن تسقط من تلك العيون مجددًا.

ثم طبع قبلة على جبينها وأردف..

- في العام التالي مباشرة من قدومكِ تفرقنا، فقد انتقلتِ لمجموعة الفتيات وانقطعت الصلة بيننا، ولكنكِ كنتِ تكبُرين على عيني، أراكِ تكبرين ويكبر حبي لك..

ومرت عشر سنوات وأنا أكتم في صدري لوعة اشتياقي كلما رأيتُ الغصنَ الغضَّ أصبح شجرةً طيبةً مُزهِرَةً، فأصبحتُ أفكر فيكِ كل ليلة، وأراكِ مع كل نجمة، وأسمعُكِ في صوت كلِّ كروان، وفي كل دعوة تخرج من قلبي في سجودي..

حبٌّ كأنَّه ألم، ولكنه ألم جميل رقيق يسرُّ بأوجاعه!..

وكانت كل مرة أراكِ فيها صدفة في ساحةِ المسجد أو في سوق البلدة أو في حُلمي الذي كنتُ أختلس فيه النظرات بلا خوف، أشعر بالألم الجميل الذي يُسعد ولا يُؤلم، وأطلق زفرةً من جوى العشاق المشتاقين..

بعد ذلك اخترتُ الوصال واستخرت الله، ثم عزمتُ أن آتي لخِطبَتِكِ واتجهتُ إلى شيخِنا -طَيَّبَ اللهُ ثراه- وقَصصتُ عليه القَصص، استبشر وقال لي: "نِعْمَ الفتاة يا ياسر"، وطلب من زوجتِه التي كانت تشرف على تعليم الفتيات أن تسأل والدتَكِ عن ذلك الأمر.. انتظرتُ ليلتين، مرَّا كأنهما عامان، كأنِّي قابضٌ على الجمر من شدة الترقب حتى أتاني الشيخ بالبشرى وأسعدني، فتهلل وجهي وانطلقت السعادة في عيني من فرط الفرح.

تبسمت سمية واقْشَعَرَّ جسدُها ثم فَرَّت دمعتها وقالتْ:

- آه يا ياسر لقد كان يومًا جميلاً ذلك الذي ننعم فيه بالوصل في حلال، كان الشيخ جمال -رحمة الله عليه- يقول عنك أنك أنجب طلابه وأحسنهم خُلُقًا فأثنتْ عليك زوجته -وهي قدوتي آنذاك- فما كان لي إلا أن استخرتُ الله، فكانت الليلة هي أرق ليلة في نومي وأصفاها

على قلبي يوم حلمت بأنِّي ألعب مع طفل لي وكان بشوشًا نَضِرَ الوجه حسن الصوت له طلَّة تشبه الشمس في شروقها، فتهللتُ عندها وعلمتُ أنَّها بشرى من الله لي ودعوتي للقبول.

تهلل وجه ياسر وقبَّل رأسها من جديد:

- لقد اشتقتُ إليكِ يا سمية، حتى كاد الشوق يفعل في قلبي ما لم تفعله القيود في راحتي، وكان الأَسر يُشعرني بالذنب طويلًا لأنكِ زوجة بلا زوج ولا زواج، فسامحيني يا سمية.

نظرت إليه في إشفاق وقالت:

- أتدري يا ياسر، هناك قلوب تستقبل الأوجاع بصدر رحب، ليس لأنها قوية، ولكن لأنها أحبتْ وما أرادتْ أن تُظهر لمن أحبتهم ذنبَهم، فالتمست العذر لهم، وتحمَّلت في صمت!، فكيف أحزن منك وأنت لم تُذنب؟!، أأحزن منك ومكانتك في قلبي مكانة الروح من الجسد، ومكانة الماء من النبتة، فهل لقلب أن يستثقل روحه يا ياسر؟!

لم يستطع إلا أن يتنهد ياسر لكلماتها وقال مبتسمًا:

- أتدرين، لَم يؤلمني في أسرِي ذاك التعذيب أو الجوع أو العطش أو كل ذاك فالجوع هناك نقدر عليه، والتعذيب نصبر عليه.. ولكنه جوعي لغذاء الروح، لتلك الكلمات الطيبة التي تغذي قلبي الضعيف هناك، كنتُ احتاجكِ كثيرًا.. لمستك، بسمتك، كلماتك الصافية.

- الحمد لله يا ياسر أن ردك إلينا بعدما طال الغياب.

ونام الحبيبان بعدما وجد قلبُ كل منهما رُوحَه بعد الغياب.

***

في صباح اليوم التالي بينما يُفطر ياسر وزوجته طرق الباب فذهب لينظر من ذا الذي أتاهما في الصباح الباكر.

فإذا به طفل يحمل إليه رسالة من الشيخ أحمد أنهما سيتجمعون اليوم في منزله بعد صلاة العشاء.

أخذها ياسر ثم كتم الخبر عن سمية.

جاءت صلاة العشاء فذهب ياسر إلى الصلاة ثم إلى منزل الشيخ أحمد للاجتماع، رحب به الشيخ وأدخله إلى الغرفة فوجد هناك مجموعة السجن كله بما فيهم الشيخ أسعد الذي جاء من البلدة المجاورة، سلَّم عليهم ياسر بحمية وجلس.

بدأ الشيخ أحمد حديثه:

- الآن، وقد خرجنا من الأسر وما زال وطننا في أسره، ما زالت الأصفاد في راحته لا بد لنا من وقفة، قد غَيَّرَ المستعمر كثيرًا مما أَلِفناه في حياتنا حتى كاد أن ينجح في خطته التي يستخدمها هنالك مع المسجونين في تغير دينهم دون أن يشعروا، وإني أراه ينجح في ذلك. الناس يعتقدون أن دينهم صلوات يؤدونها وصومًا يصومونه ومعاملات فقط، قد جعلوا الدين في المساجد، وأضحى الشيوخ شغلهم الشاغل الحديث في نواقض الوضوء والنزاعات، بل وينتقدون من يصدح بكلمة حق في حق الغاصب الظالم..

أَنسَوهُم حتى أصل الكُربة، فلا بد لنا من إشعال الحمية من جديد وتذكير الناس بدينهم، ما زالت في أفئدة الشباب براكين ثائرة لا بد لنا من إطلاقها؛ فالوطن لا بد وأن يتحرر ولن تأتي الحرية هدية لنا فهي تُسلب وتُنتزع من يد السجان والمحتل..

فهل نجدد بيعتنا الأولى على تحرير الوطن واسترداده عنوة من قيود الغاصب؟، أم أنكم تركتم حياة الجهاد من أجل الراحة والسكون والدعة؟!

كان خطابه هادئًا لكنه حماسيًا، جمع بين الضدين في آن واحد، تحدث بكل ما أسرته نفوس الأبطال فوافقوا جميعًا على العمل.

ثم علَّق ياسر:

- أرى أن إعدادنا سار على ما يرام، الأسلحة أصبحت معنا في مواضعها التي لا يعرفها سوانا، وجميعنا عمل على توعية الناس في الطرقات، وفي خطب الجمعة عن فضل جهاد الظالمين وذكرنا قصص من الأمس عن قطز والتتار وكيف قابلوهم رغم جبروتهم، فأصبحت صدور الناس متأججة من جديد، وإني أرى أن نتحرك بعد عدة أشهر من الآن.

أُعجب الجميع بحديثه، وتم الاتفاق.

ثم ختم الشيخ أحمد:

- توكلنا على الله، لكن علينا أن نعمل في هدوء، وألا تكون الخطب واضحة كل الوضوح حتى لا يَشعر الجواسيس بعملنا، الآن كل منا في أسرته وأصحابه والشباب قد وصل إلى حوالي خمسين، وسنكملهم بأمر الله في كل مدينة إلى مئة قبل البدء ومع بداية الحرب سينضم لنا -إن شاء الله- الكثيرون، وسنمشي بخطى ثابتة وتخطيط لكل خطوة حتى لا نخسر.

***

تفرقــوا جميعًــا بعــدما تبــايعوا علــى التجــارة مــع الله مــن أجــل ديــنهم ووطــنهم. عاد ياسر إلى سمية وأخبرها على ما اتفقوا عليه، وعلى غير المتوقع ابتسمت الزوجـة الصـابرة وقالت لزوجها:

- كنت أعلم أنك لن تكلَّ يا ياسر، رغم علمي أنه لا خير فينا إن تركنا الحق حتى وإن كانت العاقبة موتنا، إلا أنها حقيقة قاسية.

تبسم ياسر وقال:

- لا تحزني؛ الشجاعة لا تقدم الموت.

***

وبدأ العمل مع شروق صباح اليوم التالي، استمر الرجال في التوعية في المسـاجد رجـلاً برجـل في خفاء، ومع كل جمعة يُحيون في نفوس الناس من جديد ما كان قد أوشـك علـى أن ينـام، ومن ينضم إليهم يذهب إلى التدريب على السلاح في أماكن بعيده عن العيـون في أقبيـة المنـازل التي على أطراف المدينة.

حتى مرت ثلاثة أشهر كان كل يوم يضاف إلى المجموعة واحد على الأقل مع كـل شـيخ مـن العشرة، وكل واحد ينضم يضم صديقه، وفي نهاية الأشهر وجـدوا أنهـم تعـدوا العـدد بفضـل الله.

فاجتمع الشيخ أحمد برأس كل مجموعة، ودلهم علـى أمـاكنَ السـلاح فأخـذ كـل واحـد مـن الأبطال سلاحًا، ثم جاءت ساعة البدء..

جاءت الجمعة المحددة وخطب الجميع بحماسة عن الانتفاضة الأولى والثورة التي حـدثت وأحيتْ روح الجهاد من جديد ومات على إثرها ذلك الطفل وأبـواه اللـذان جَسَّدَا بموتَيهمـا إرهابَ الغاصب وكذب العالم ونقاء وبراءة روح كل شهيد!

واشتعلت الثورة في هذا اليوم، بعد صلاة الجمعة، خرج كل شـيخ مـع مجموعتـه الـتي اتفـق معها، قسموا أنفسهم خمسين مجموعة، كل مجموعة فيهـا مـن عشـرة إلى عشـرين شـخص؛ حتى لا يلاحظ أحد، كان الجميع يتذكر روح الجهاد بعد الخطب الحماسـية الـتي ألقيـت، ثم ذهبت كل مجموعة إلى المكان المحدد لها، كان الشيخ أحمد عسكريًّا قديما مُحَنَّكًـا، كـان من رجال القصر مع الملك الراحل، وشهد يوم الخيانة والاغتيال.

وضع الخطة بحيث تلتقـي كـل مجمـوعتين بعـد حمـل السـلاح في نقطـة محـددة حتـى إذا اجتمعت كامل المجموعات أقامت على البلدة حصارًا من كامل الجهات.

وُضع على الجهة المواجهة لبلدة (الدار) المجاورة للبلدة العددُ الأكثـر لتوقعـه قـدوم المـدد منها، وعلى ناحية النهار والناحية الحدودية لم يضع أحدًا، وعلى الناحية الجنوبية، كانت المجموعات أقل، أما وَسْط البلدة كانت مجموعات مقسمة حتى يسيطر على كامـل المدينـة في أسرع وقت ممكن.

انطلق الجميع في اللحظة الـمُتَّفَقُ عليها، واشتعلت المدينة سريعًا، كانت كـل مجموعـة في مكانها، وأطلق الشيخ أحمد من منتصف المدينة شعلةً حمراءَ في الهواء فكانت علامة البدءِ.

في هذه اللحظة تم قنص كل الجنود الذين كانوا في المدينة، واستولى الرجال على مناطقهم وأخذوا معداتهم، ثم هجمت ثلاث مجموعات على حامية البلدة الرئيسية. قتلوا كثيرًا من جنود الحراسة، وفر البعض هاربًا حتى استولوا على كل ما فيها من مدافع، وأسلحة وعتاد.

وتمت السيطرة على المدينة كلها، ولم تلبث الأخبار أن انتشرت في كامل المدن بعدها بأيام، وبدأت حرب في كل المدن، مما أدى إلى حدوث خلل في قوات مراد التي استيقظت على الخبر المفزع، والشبح الذي يؤذن باضمحلال ملكه.

ولكنه النهار.. النهار الذي ينسل بلطف ليبدد الليل الكئيب، ويُنهي عهد الظلمة!

وأخذ الفدائيون يتتابعون على مدينة (**سور**) حاضنة الثورة، حتى أصبحوا قوةً لا يُستهان بها ولا يمكن للاحتلال كسرها بسهولة، في ظل ما هو فيه من خلل، وما كان عليه جيش التحرير كما أطلقوا على أنفسهم من تنظيم، واشتعلت الثورة في (**سور**)، واستطاع الجيش الصغير إحكام السيطرة عليها ومنع الجنود أن يأخذوها منهم!

****

(٨)

﴿نَـارُ الْـحُـبِّ وَالْـحَـرْبِ﴾

لما وصل عمار إلى الجامعة مع أول أيام العام الجديد، التقى بأمين وبعض الزملاء في الدراسة محمود كمال وأيمن محمد، وبحثوا عن سالم لكنهم لم يجدوه.

تسامر الزملاء قليلاً ووقفوا في الساحة يستقبلون الطلاب الجدد.

كان كمال خفيف الظل، يلقي دومًا الدعابات التي تهوِّن عليهم مرارة الوقت، متفوقًا في الدراسة أيضًا، وكان أطولهم قامة، وأخفهم وزنًا.

أما عن أيمن فكان أقصرهم طولاً، وكان أهداهم طبعًا، يُكثر التأمل في الأمور، ويحب أن يسمع أكثر مما يتكلم، وإن تكلم أصاب.

فسأل محمود مداعبا كعادته:

- من منكم جرَّب حُبَّ العيون؟.. عندما تَهوَى من النظرة فتجد جمال الحب، وتشتاق إلى نعيم الوصل؟

فعلَّق عمار:

- كيف لرجل أن يحب من نظرة عين خاطفة؟!

فردَّ أيمن في هدوئه:

- الحب لعنة لا تعرف متى ستأتي أو كيف، من نظرة، أو من كلمة، أو من أي مكان، حتى وإن كان من الحلم!

أخذوا يتجادلون حول الحب وأسبابه، وكل له رأيه الذي لا يغيره ثم انتهى الحديث وذهب عمار وأمين.

في سيرهما بدءا يتفقدان الكلية في يومهما الجديد، ثم مرَّا على جَمْعٍ من طالبات السنة الجديدة وهن يستكشفن الكلية الجديدة، ويقرأن الصحيفة التي تعطي أخبارًا عن أهم أنشطتها في كل عام.

لم يكد عمار يمر حتى أخذت كل فتاة أُذُنَ صاحبتها؛ حديثًا عن ذلك الفتى الوسيم عمار..

وقفتْ هناك (يَمَانٌ).. فتاة في السنة الأولى وسألتْ صديقتَها لَمَّا شاهدت الموقف:

- لم يتحدث الجميع عن هذا الفتى هكذا؟

- لا أعلم، ربما واحد من رُفقاء الفتيات في هذا المجتمع يا صاحبتي فقاطعتها فتاة أكبر منهما في تعجب:

- ألا تعلمان عمار ياسر؟!

فأجابت أميرة نافية:

- إذا، عليكما أن تقرآ هذا.

وأعطت لهما صحيفة الكلية، والتي على صفحتها الأولى صورة عمار في مسابقة الخطابة، وصورته وهو يتم تكريمه لحصوله على المركز الأول، وكلمات عن حوار أدير معه عن الجمع بين الأنشطة والتفوق، ثم أتبعت قائلة:

- عمارٌ ابنٌ لأحدِ الأَسرى الذين حُرِّرُوا العام الماضي، أولئك الذين تم وضعهم في السَّجن عند الانتفاضة الأولى وسبب شهرته أنه في العام الماضي شارك في مسابقة للخطابة، و...

- عمار.. عمار.

قاطعت إحدى الفتيات حديث صاحبتَهما تُنادي عليه، فالتفت إليها عمار في حياء

وأجابها في احترام، ومن ثَمَّ مَدَّت الفتاة إليه يدها ولكنه لم يسلم عليها فقالت الفتاة في ضيق:

- آسفة.

فاعتذر عمار إليها:

- لا داعي للآسف، ألكِ حاجة؟

- كنت أريد أن أعرف منك كيف يمكن لنا أن نجمع ما بين التفوق في الدراسة مع ممارسة الأنشطة المختلفة؟

- كل ما عليك فعله هو تنظيم الوقت، وجعل الدراسة والمذاكرة في أوقات ثابتة ولا تؤخري عمل اليوم إلى الغد.

- شكرًا لك.

- الشكر لله.

أُعجبتْ يمانٌ بفعل عمار ولكنها امتعضت كثيرًا لفعل الفتيات اللواتي أخذن يتحدثن عنه بهذا الإعجاب الشديد.

أتبعت الصديقة حديثها عن عمار، فانتبهت يمان لأن أبيها كان في السجن وحُرر من فترة أيضًا.

ثم أكملت الفتاة تقول لأميرة ويمان:

- وبعدما وقف وألقى خطابًا تحدث به عن لباس الفتيات وما يفعلنه من عدم الاحتشام وغيره من الأمور.. أصبح أشهرَ رجال الكلية وزادت شهرته في النهاية أنه حصل على المرتبة الأولى في نهاية العام.

أثنت أميرة على كلام الفتاة وقالت: "ما شاء الله!"، بينما ظلت يمان صامته تنظر بعيون ثاقبة يملأُها التساؤل، أيُعقل أن يكون هو ابن الشيخ ياسر الذي حكا لها أبوها عنه؟

وصل الصديقان أخيرًا إلى السكن ثم ارتاحا من اليوم الأول، وتتابعت أيام الدراسة ولا جديد يذكر.

***

حتى وجدا في يوم تجمع من الطلاب، ورأيا أنه قد تم الإعلان عن مسابقة الخطابة من جديد.

جاء موعد المسابقة، وكان لعمار دور شرفي لكونه الفائز في مسابقة العام الماضي كما جرت العادة.

في يوم المسابقة، كانت القاعة هذا العام أكثر اتساعًا؛ فقد كان هنالك مسرح واسع يعلو عن المقاعد قليلاً، جلست لجنة التحكيم على يمين المتسابقين، وكانت المقاعد متدرجة كالسلم، فكلما تأخرتَ صَعِدتَ لأعلى، وفي جوانب القاعة ما يشبه شرفات المنزل في الأعلى يجلس فيه الحضور الأعلى قيمة، كالعمداء والأساتذة، كانت القاعة مبهجة بلونها السماوي، ومقاعدها البُنِّيَّة، كان يتوسط السقف مصباح كبير مُزَيَّن ومطرز برسوم.

جلس الجميع في صمت عندما بدأ المتنافس الأول، استمعوا إليه لكنهم لم يجدوا في خطابه ما يشد انتباههم:

"إن التعايش هو ما يبني المجتمعات، والحب هو ما يصنع القوة، ولذلك يجب علينا أن نتعلم الحب والتعايش، أن ننهي الحروب ونصنع السلام، نقبل الآخرين ونمحو الماضي، هكذا نبني مجتمعًا ناضجًا...".

***

لَمْ يُسَر عمار من هذا الخطاب، فخرج يشرب قليلاً من الماء، وذهب يُقَضِّي بَعضَ حَاجِياتِهِ؛ لم يجد في خطبته لا قوة ولا أصالة، فقد كانت تدعو للتنازل عن الأرض وإن لم تكن بصورة مباشرة.

ثم عاد متأخرًا قليلاً، ولكنه وجد الكل منصت، وسمع صوت فتاة تلقي بحماس، فدخل وجلس وأنصت معهم، ولم يلبث أن أعجب بها أكثر.

– وأنتم ما بكم يا معشر الشباب.. ما بالكم كيف تعيشون؟!، ولأي غاية تطمحون؟!.. أفيقوا من سُباتكم، وانهضوا بأهدافكم، ورَتِّبوا حياتَكم، ألم تسمعوا من قبل قول الشاعر:

قَالُوا: بِأَنَّـكَ إِنْ سَـعَيتَ لِقِمَّـةٍ.. ~ فَاضْرِبْ كَـسَـهْـمٍ لِّلسَّماءِ قَدِ انْطَلَـقْ

مَـا رَدَّهُ دِرْعُ السَّـمَاءِ بِعَصْـفِهِ؛ ~ فَهْـوَ الْقَـوِيُّ بِنَفْسِـهِ، هَـا قَـدْ وَثَـقْ!

سمِع عمار كلماتَها فازداد إعجابُه بها، كانت متفوقة في عباراتها، سامية في أهدافها، قوية في إلقائها.. فكر عمار فيها طويلاً، وأخذ يتابعها في صمت.

***

بعد ما أنهت يمان مقالها ونزلت، ذهب عمار خلفها متسائلاً مَنْ هذه؟.. فقال لها:

– أحسنتِ، بارك الله فيك.

أجابته بصوت قوي تَتَبَدَّي عليه الرجولة.

– شكرًا.

ثم أومأت برأسها تطلب الذهاب، فقال عمار:

- إن احتجتِ أي شيء في الدراسة فأنا هنا للمساعدة.

فأجابته يمان:

- إن شاء الله.

فسأل عمار مبتسمًا:

- هل تحتاجين شيئًا آخرَ؟

كان متلعثمًا؛ كأنه لا يدري كيف ينهي الحديث أو كيف يقول لها السلام، فارتبك وأخرج كلامًا عشوائيًّا.

فنظرت في تعجب إليه وقالت بأدب:

- شكرًا لك، عذرًا مضطرة إلى الذهاب الآن، سلام عليك.

وذهبت وعمار في حرج ما بعده حرج، حتى جاء أمين ورأى وجهه محمرًا مما هو فيه، فسأله:

- ما بك يا عمار؟

- فَقَصَّ عليه ما حدث.

فضحك أمين على ما وقع فيه عمار وعادا إلى غرفتَيهما.

***

لما عاد عمار إلى البيت، قضى ليلته يتفكر في كلمات هذه الفتاة، وكأنَّها ملكت عليه جوانحه بأهدافها السامية.. وَتَذَكَّرَ موقفَه معها فقال:

- ليتني لم أفعل ما فعلتُ يا أمين، تُرى كيف تفكر فِيَّ الآن؟.. لا بُدَّ أن ظنَّها فِيَّ الآنَ ظن السوء.

- ما بك يا عمار؟!، موقف عابر لا عليك.

- أتَرى هذا؟

- نعم، لم تتجاوز في النهاية، لكنها قدوة ما شاء الله عليها.

- الحمد لله.

***

ومرت الأيام بعد ذلك وعمار عاد إلى ديدنه في الحضور والالتزام ولم ير الفتاة مجددًا لاختلاف أماكن الدراسة والمواعيد، لكنه كان يفكر فيها كثيرًا.

وفي صباح أحد الأيام جلس عمار في الساحة ينتظر أمين الذي ذهب ليشتري بعض الأطعمة..

فمرت أمامه يمان تلك الفتاة التي لم يكن يعلمها عمار بعد، لكنه أُسر أول مرة بلسانها وعقلها، واليوم بجمالها الذي امتازت به عن قريناتها، وكأنَّها جَمَعَتْ كلَّ أسباب الجمال.. الفكري والشكلي.

اتسعت عيونه فجأة وتعلقت مع يمان التي اختلست نظرة سريعة منه، وقال في نفسه بعدما تَسَمَّر في مكانه:

- ما هذا الذي أراه؟!

وأكملت يمان سيرها ناظرة إلى الأرض، لكن عقلها لم يكن معها، وقلبها قد شق صدرها. نادتها صديقتها أميرة مرتين فلم تجب، فنادتها مجددًا بصوت مرتفع قليلاً ومدت ألف اسمها:

- يماان.. ما بك؟

- هاه.. لا شيء!

لم يَرُدُّ إليها عقلَها وقلبها كلماتُ أميرة صديقتها، وأخذت تُنكر على نفسها ما حدث وتتعجب!

عاد أمين بعدها فوجد صديقه يقول بصوت منخفض:

- لكنَّهُ الحب!

- ماذا؟

- هاه، لا شيء يا أمين.

كان محمود وأيمن آتيان مع أمين، فعلق محمود قائلاً:

- صدقتني الآن يا عمار، من النظرة الأولى إذن.

ضحك عمار في حرج وقال:

- لا.. لا، فقط هي جميلة يا شباب.

ابتسموا جميعًا، ثم ضربه محمود على كتفه ثم قال أمين:

- هيا نفطر قبل أن يموت صاحبنا من جوع القلب والبطن!

فابتسم عمار وقال لهم:

- تبًّا لكم.

ثم بدأوا في أكل فطورهم.

* * *

- ماذا بكِ يا يمان؟

- هاه، ماذا هناك؟

- أراكِ على هذا الحال من بعد المسابقة، أصبحتِ شاردة الذهن مذ رأيتِ ذلك الفتى.

- لا أعلم ما هذا يا أميرة بحق!

- يبدو أنه المختار يا فتاة!

- كفاك سُخْفًا يا أميرة، لا مختار ولا شيء.

- أليس الحب هو أن يرق القلب مرة، لا ندري كيف ولا متى؟، ولكنها تلك النظرة التي تجعله يهتز، تلك الفكرة التي تسرق ذهنك!

- والله إن لم تصمتي لضربتك!

ضحكت أميرة بصوت عال وداعبت يمان التي غَضِبَتْ منها ؛ لسُخريتِها منها وتعمُّدها إحراجِها.

***

نشأت (يمانُ) في أسرة متوسطة الحال، والدها الشيخُ (أسعدُ)، رجل طويل القامة، كثيف اللحية، وقور، هادئ الطبع، قليل الكلام.

كان مُعلمًا للقرآن و مدرسًا للعربية في قريتهم، ربَّى أبناءه على آيات الله، فعلمهم القرآن كل شيء، أُسر في أيام الانتفاضة الأولى وقابل في السجن الشيخ أحمد وبقية المجموعة، لكنه أحب ياسر بشدة ونشأت بينهما علاقة من علاقات الأخوة، لم يفرقهما شيء بعدما طالت بهم مدة الأسر، رغم أنه خرج قبل ياسر بثلاث سنوات من السجن إلا أنه طالما حَدَّثَ أسرتَه عنه وعن سنواته معه.

وكانت أمها من هؤلاء اللواتي يعلين من قيمة أبنائهن، فكانت تربيهم على الثقة، تعلمهم أنَّ الحياة قصيرة، وأنهم يجب أن يسيروا فيها بخطى ثابتة، على قضبان الحق كالقطار، فمهما حادت الطرق فلا يحيدون هم عن طريقهم.
قالت لهم عند كل كربة مذكرة: "إن الجنة هي نهاية القضبان، والدنيا هي القطار الذي تملأُه العربات".

كان لهما ولد وبنت، الأصغر (سفيان)، وُلِدَ في وقت متأخر، فكان عمره يوم دخلت يمان الجامعة سنتين فقط، كان ولدًا ضحوكًا، شقيًّا، لا يتعب ولا يكل، يهوى الجري في الحقول.
ويمان، كانتْ فتاةً فيها من الجمالِ حدَّ شروق الشمسِ مع غروبِها..

كأنَّ وجهها أشعة الشمس في الوقتين مندمجة، كان لها جمالٌ ما فَقِهَتْهُ العقول، ولا رأته العيون.

تعلمت القرآن في صغرها ونشأت نشأتها الطيبة، أصبحت بسمة للجميع، محبوبة من الأطفال والكبار، تفوقت في دراستها حتى دخلت كلية الطب.

***

بعد شهر ظهرت نتائج المسابقة وكانت يمان ضمن المكرَّمين في ذلك اليوم، جلس عمار مع الحضور ليشاهد الفائزين.

ودخلت يمان متألقة متزينة بما لا يخالف معتقداتها..

خفق قلب عمار بشدة و تعلقت نظراته، تسمر واقفًا ينظر سحرها الذي ملك عليه جوانحه، ثم أخرج دفتره الصغير في وسط الجمع ليكتب مجددًا..

"رغم مرورها السريع لم يخطف لبي إلا ذلك الطُّهر المتجلي كما الملاك، بعدما استمعتُ إليها أول مرة وهي قوية صادحة بالحق.. يا تُرى من تكون؟!.. حورية نزلت من السماء؟!.. فتاة لها من الجمال ما للطاووس عندما ينفش ريشه، سلبت ما في صدري، وأنا أنظر نحوها ولا أحرك ساكنًا...".

وصدح صوت المنادي في القاعة قائلاً:

- الفائزة بالمركز الأول الطالبة يمان أسعد.

فقال عمار في نفسه:

"إنها يمان إذن، تبعث الخير في كل شيء، تُيَمِّنُهُ وتُهَذِّبُهُ.. اسمٌ عَلَى مُسَمَّى!".

- عمار!

علا صوت أمين وقال لصاحبه:

- ما بك ناديتك أكثر من مرة!

- آسف يا أمين.

- منذ رأيتها وأنت لم تعد أنت.

- إنه الحب يا أمين، نار جميلة بحلاوة الماء، ولوعة شقاؤها ممتع، لا تدري كيف بدأ؟، أو كيف سينتهي؟!، خليط غريب من المشاعر.

ابتسم أمين وقال له:

- لقد وقعتَ وخرج الأديب من صدرك أيها العاشق!

وعلا صوت الصديقين بالضحك، ثم عادا إلى سكنَيهما.

***

في الصباح التالي تأخرت يمان في نومها، فذهبت أميرة لتوقظها بدعابتها المعتادة:

- هيا يا يمان استيقظي.

- حاضرة يا أميرة.

- آه من الحب، جعل يمان ساهرة تتأمل النجوم وتتأخر في نومها.

فقفزت يمان من على سريرها وجرت خلف صديقتها تقسم أنها سوف تضربها على ذلك.

بعد قليل تجهزت أميرة، وتأخرت يمان قليلاً فنادتها أميرة:

- هيا يمان ستفوتنا المحاضرة.

- حاضرة يا أميرة أكاد أنتهي.

استعدت يمان وصديقتها أميرة للذهاب إلى الجامعة، أميرة هي صديقة يمان الوفية وحافظة سرها، فتاة طيبة ذات طَلَّةٍ بهية.

وصلا إلى الجامعة، كان عمار جالسًا في مكان قد اتخذه بحيث يراها منه كل يوم.

استحت يمان من النظر كعادتها، لكنها كانت تعلم بحبه لها، وإعجابه بها، فكانت ترسل ابتسامة خفية حتى أميرة لم تكن تراها.. إنها ابتسامة القلب!

بعدما انتهت المحاضرة، صعدت يمان وأميرة إلى مكتبة الكلية؛ لاستذكار بعض الدروس.

في نفس الوقت كان عمار يجلس في المحاضرة شاردًا يفكر في أميرته، فلاحظه أمين فضربة على رأسه وقال له:

- أفق يا عمار.

- لا أدري يا أمين.. ماذا يحدث؟!

- دعك منها الآن ونتحدث بعد ذلك.

_حسنًا.. حسنًا.

انتبه عمار إلى المحاضر من جديد حتى انتهى الشرح، وبعدما خرج الأصدقاء، جلسوا معًا قليلاً وقال عمار لهم:

- أتدرون ما هو الحب؟

قال أيمن:

- كلٌّ مِنَّا له تعريف لحبه، قل لنا كيف تراه يا قيس؟

- الحب هو أن تلتقي بتلك الروح التي خرجت من صدرك يوم ولدت فأخذتَ تبكي، وأخذ قلبكَ ينتفض وينتفض كأنه يركض بحثًا عنها، ذلك النبض ما هو إلا حزنٌ على فراق النصف الآخر، والدليل أننا يوم نلتقي من نحب يتوقف القلب للحظات وكأنه أخيرًا وجد ضالته، وهدأ.

فعلَّق محمود:

- وكأنه المجنون يتغزل في ليلى!

- إنه صِدْقُ الشعور الذي يحركنا يا محمود.

- حسنًا أيها العاشق، سنعود إلى سكننا، هل ستأتي معنا؟

- لا؛ سأذهب للمكتبة قليلًا أنا وأمين.

- حسنًا.. نراكما غدًا.

ثم تفرق الأصدقاء وذهب عمار وأمين.

صعدا إلى المكتبة، وعندما دخلا رآهما عمار..

نظر تلك النظرة الخاطفة ثم ارتبك قليلاً لما تلاقت عيونُهما، تلاقت للحظات قصيرة فكانت كافيةً لفضح كل منهما للآخر.

كأنه يقول لها: كيف حالك؟.. لكن يمان أعرضت عنه وحركت شفتيها مستنكرة ذلك.

كانت يمان تَوَدُّ النظر لكنها كانت حادة الطباع، ليست ممن يعترف بالحب بسهولة وإن تمكن منها، إن بدا في نفسها شيء تخفيه وتظهر عكسه، لكنها كانت مرهفة الحس نقية المشاعر لا تبدي ذلك لأحد.

كان لها قلبٌ حنون نقي تغطيه قشرة من الجفاء والقوة التي إن انكشفت، انبثق يَنبوع من الحنان والحب لا ينضب أبدًا.

ذهب عمار إليهما وألقى السلام، نظرت إليه يمان نظرة ولم تجبه، بل حركت رأسها في تعجب.

كان إعراضها عن عمار يزيده تعلقًا وشوقًا.

فقال له أمين في تعجب:

- غريبٌ طبعك يا عمار؛ تعرض عنك فتزداد تعلقًا بها؟!

- هكذا هو كل بعيد، يتمنى المرء أن يصل إليه مهما أعياه الطريق، فكيف إن كان البعيد شقيق الروح؟!

لم يعلق أمين على عمار، أحاط رأسه بساعده ثم ذهبا وجلسا في زاوية بعيدة من المكتبة.

بعدما اختفيا عن أنظار الصديقتين، تساءلت أميرة:

- لمَ لَم تجيبي يا يمان؟

- ولماذا أجيب؟!

- كعادتك يا يمان، تظهرين عكس ما تكتمين.

- سأقول لك مرة واحدة أيتها اللحوحة: إن كنتُ كما تقولين أظهر عكس ما أبطن، ففي هذه بالذات لا بد أن أفعل، لستُ أنا ممن يتركون سلطان الحب يحيدهم عن طريق الحق، إن أراد وصالًا فهو يعرف الطريق يا أميرة.

- وكيف سيعرف وهو بالكاد يعرف اسمك؟

- من أراد بصدقٍ بَحَث عن السبيل يا صديقتي.

عاد عمار وجلس على مقعده في المكتبة، شاردًا هائمًا، وهنا رآه أمين في حيرته ولوعته وهو في ذلكَ العشِّ فقال بسخرية:

- آهٍ من الحب!

- حتى أنت تسخر؟!

- إنه الحب الذي كنتَ تسخر منه، أتذكُرُ أولَ يوم؟

تجاهل عمار كلماته، فقد أخذ القرار بأن يحدث والدَه عندما ينتهي العام، وعزم أن يبحث عن مكان إقامتها واسم والدها الكامل.

❋❋❋

مرت الأيام وعمار ويمان على حالهما من الجفاء الذي يُخفي كثيرًا، حتى جاءت لحظة علم عمار أن يُمَهِّدَ له الطريقُ.

عندما جُمع طلابُ الفرقتين الأولى والثانية للقيام بنشاط هام، ودخل عليهم المحاضر وهو الدكتور ناظم، وأعطى لكل طالب من الفرقة الأولى بحثًا يُعِدُّهُ مع طالبٍ من الفرقة الثانية، وكان الاختيار عشوائيًّا بأرقام الطلاب.

في اليوم التالي عُلق المنشور بأرقام كل طالب من الفرقة الأولى مع زميله من الفرقة الثانية. ذهب عمار ليرى رقمه فوجد يمانًا هناك تبحث، وفي هذه اللحظة رأى عمار رقمه مع يمان، تفاجأ الاثنان في هذه اللحظة أمام المنشور، ثم ذهبت يمان بعدما ألقت نظرة جافة أخفت كثيرًا من الفرح ولم تتفوه بكلمة، إلا أن عمارًا كان في السماوات من فرط السعادة!

منذ أن رأى عمار هذه الفتاة، أراد أن يصل إلى قلبها بدعوى الحب، ولكن يأبى الحياءُ إلاَّ أن يحرِّكَه، في مساء ذلك اليوم أخذ عمار يكتب في دفتره من جديد..

مذ سرقتْ عقلي صورتها، وشرب قلبي خمرها، أضحى كقبطان حرَّكته الأعاصير فلا يدري أين المكان ولا متى الزمان، هكذا هو الحب!..

كُلُّ شيء تعلَّق حتى صار لي مكانًا أجلس فيه في وقت من أوقات اليوم، كحمامة ترقد على بيضتها في عُشها الصغيرِ تنتظر وتنتظر، فلا الوقت يمضي، ولا القلب يهدأ، ولا البيضة تُكسر!..

وتوالت الأيام وما زال القلب يأبى أن يهدأ، واللسان يأبى أن يتكلم، والعين تأبى إلَّا أن تبوحَ في كل مرةٍ قائلةً:

وَكَمْ كَتَمَ الْفُؤَادُ عَظِيمَ عِشْقٍ، وَتَأْبَى الْعَيْنُ إِلَّا أَنْ تَبُوحَ
عُيُونُ الصَّبِّ إِنْ لَاقَتْ حَبِيبًا.. فَعِطْرُ الْحُبِّ يَهْوَى أَنْ يَفُوحَ

ثم أغلق دفتره وذهب إلى مرقده؛ عَلَّهُ يرى هنالك صورتَها في أرض العالم الآخرَ.

***

في اليوم التالي، ذهب عمار ليعرف كيف سيكون البحث وكيف سيتم، وجد الدكتور ناظم قد وضع لكل اثنين موضوعًا ينظمونه ويتجمع كل اثنين في المكتبة حتى يتفقا على كل شيء. أصبح عمار أسعد الناس في تلك اللحظة ولكنه عزم أن يكون أمامها مُخفيًا ما به.

- أظنكَ الآن تطير فرحًا.
- ألن تكفَّ عن إحراجي يا أمين؟!، ولكن الحقَّ أنني سعيد جدًّا.
- طبعًا.. طبعًا، الآن ستتحدث مع ملكة أحلامك.
- سأذهب الآن إلى المكتبة.. وداعًا.

برغم فرحة عمار إلا أنه عاهد نفسه على التمسك بالمروءة والنُبل، قرر ألاَّ يُظهر لها مشاعره البتةَ، وأن يتعامل معها بتجلد؛ إكرامًا لها ولحبه لها قبل كل شيء.

ثم ذهب عمار إلى المكتبة، فوجد يمانًا تنتظر هناك، فألقى عليها السلام ثم سألها بودٍ:

- كيف حالك؟
- الحمد لله بخير، إذًا ما هو مشروع عملنا؟
- هذا بحث عن مرض الشلل، وكيف يحدث.
- حسنًا لنبدأ به.

أخذا يبحثان عن الكتب التي سيستخدمانها في البحث في المكتبة، ثم أتى كل واحد منهما بكتاب وجلسا على طاولة معًا، كان كل طالب يجلس مع زميله في ذلك الوقت على طاولة يتحاوران، ولكن عمار ويمان لما جلسا معًا كانا ثنائيًا بديعًا.

ظلاَّ يتحدثان وعلى وجه كل منهما ابتسامة نقية، مليئة بالرضا والاطمئنان. ظل عمار منحنيًا إلى الأمام وهو يتحدث، واضعًا يدًا فوق الأخرى في سكينة على الطاولة.

أما يمان فكانت تحاول أن تداري كل شيء، كانت أكثر تحفظًا وانضباطًا، تسند ظهرها إلى المقعد وتضع يديها المشتبكتين فوق أقدامها في لِينٍ وهدوء.

لم يدر عمار ماذا يقول، أو عن أي شيء يتحدث، كان فقط سعيدًا بجلسته هذه، ثم تجاذبا الحديث قليلاً عن طبيعة الكتب التي يقرأُها كل منهما:

- حسنًا، تُرى هل تحبين القراءة مسبقًا أم أن هذا سيرهقك.

- بالطبع أقرأ، وهل يستقيم العقل بلا كتاب؟!

- أحسنتِ، أنا أيضًا أحب القراءة، أحب الأدب وخاصة الشعر.

ثم ألقى عمار نكتةً طريفةً عن بعض الشعراء، بعفوية تامة خرجت الكلمات المداعبة منه، فاستجابت إليه يمان بضحكة طفلة صغيرة، فقدت للحظة تحفظها الأنثوي الذي ترتديه دومًا وتخبئ تحته كل مشاعرها الرقيقة، أطلقت ضحكة رنانة أسعدته بشدة.

صمتا لوهلة بلا كلام، كأنهما قد اطمئنا واستراحا..

كانا متناغمَين، منسجمَين تمامًا، كوردة فوقها فراشة، تبدو على وجه كل منهما الألفة النابعة من قلب مطمئن راض يقول:

"أنتَ الذي أردتَ!"، ولكن لم يبح أي منهما بما في صدره.

ولكن كلاًّ منهما يكاد يرى ذلك في وجه الآخر، في النظرات الرقيقة الخاطفة، الإيماءات الهادئة، الانفعالات السعيدة، كأنهما نصفان قد تشابها في الخِلقة، قد أتمَّ كلٌّ منهما نصفَه الآخر فصارا جميلين!

أحاطتهما هالة نقية مضيئة، كأنَّ الكونَ قد فرح باجتماعهما، فنسج عليهما من حُسنه تلك الهالة ليزيدهما جلالاً، وَوُضع على وجه كل منهما تميمةً من الابتسام تحفظهما من الحَزَن، ثم قيل لهما بكل لغات المحبين: "ابقيا هكذا دومًا.. حبيبَين طاهرَين سعيدَين".

كان أمين يجلس على طاولة تجاورهما بقليل، نظر إليهما فرأى على وجهَيهما هالةً منيرةً من فرط السعادة، فابتسم ثم تابع مع زميله.

قطعت يمان صمتَها، واستدركتْ ما حدث:

- حسنًا.. لننظر إلى البحث إذًا أم ماذا؟!

ارتبك عمار هو أيضًا:

- نعم.. نعم عذرًا، آسف على ذلك.

- إذًا سأقرأ هذا وأوافيك بتلخيصه وما ينفعنا منه في نهاية الأسبوع.

- حسنًا وأنا كذلك.

ثم ذهب كل منهما في طريقة، كان عمار مرتبكًا وسعيدًا في آنٍ واحدٍ.

خرج أمين بعد عمار ثم قابله أمين في الخارج، فأغمض عينَيه ووضع كفَّهُ على صدره وقال له:

وَارَحْمَتَاهُ بِعَاشِقٍ أَخْفَى الْهَوَى، لَكِنْ لَهُ عَـيْنٌ تَبُـوحُ وَتَفْضَـحُ

عَجَبًا لَهُ؛ ذَاقَ الْهَـوَانَ بِحُبِّـهِ، لَكِنَّـهُ عَـنْ عِشْـقِهِ لَا يَـبْرَحُ!

ضحك عمار من صاحبه وجرى خلفه في غضب ولكنه جميل.

***

في هذه الفترة، كانت قد قامت الثورات في المدن كما قامت في مدينة (**سُور**)، بعدما ازداد القمع والفساد، وكان الطاغية يتحرك بقوة لقمعها حتى لا تنتشر بكلِّ الوسائل المتاحة.

وفي نفس اليوم، عندما عاد عمار وأمين إلى غرفتيهما مبكرًا ليقوما بما طُلب منهما. حدث ما لا يتمناه الطاغية حيث قام عدد من الشباب في الجامعة كانوا قد اتفقوا مُسبقًا بانتفاضة كبيرة، لم تحدث من قبل في الجامعة مثلها. خرجوا بأعداد كبيرة لا خوف عندهم

من موت قريب، أو أَسر تغيب فيه كل معاني الحياة، كانوا مقبِلين غير مدبرِين، حريصِين على النضال من أجل الحق.

في خِضَمِّ الأحداث، سمِع الصديقان أصوات هتافات تعلوا، ورصاصات تُضرب لأول مرة. وقد أُغلقت المداخل حتى يستطيع الأمن تطويق فاعلي الشغب -كما قيل في المذياع-، فلا مَن في السكن يستطيع الخروج ولا مَن في الساحات يستطيع الدخول، وهدأ الطلاب ثم عاد كل منهم قبل أن يعود الأمن وينقض عليهم بعدما سمعوا ذلك.

وبعد ثلاثة أيام قامت تظاهرة أكبر اشتركت فيها كل الجامعة، وكانت أشد من الأولى، شاهد عمار فيها يمان تشارك، فازداد حبه لها، وقعت عينه في عينها، فاهتز قلب كل منهما، وثبتت العيون كأنها تقول كن بخير، كانت ثوان معدودة من اللقاء، ولكنها كانت كافية جدًّا لخروج كل كلمة كانت في القلب، وحياء يمان وسرعة إبعاد عيونها كانا كافيان لفضحها.

بعد مدة قليلة عادت الفتيات لما أتت قوات الأمن، وبدأ الغضب يعمُّ في أرجاء الجامعة، ولكنَّ لم يَدُمْ طويلاً؛ فقد دخلت القوات الأمنية ورفعت الأسلحة على الطلاب، وسالت الدماء، وأصبحت الجامعة وكأنها ساحة حرب، ثم أُسِرَ مَن أُسر، ومات من مات، وعاد من استطاع الفرار.

في نفس اليوم عُلِّق منشور بأن الدراسة قد توقفت وعلى جميع الطلاب العودة إلى منازلهم بسبب الأحداث الدامية.

فجهَّزَ الجميع أمتعتَهم، وتحركوا عائدين إلى بلادهم.

كان عمار يفكر في يمان ولقائه بها الذي قد انتهى، وعندما وصلا إلى المحطة علِما بأنَّ بلدة (**سور**) أصبحت مركز الثورة، واستطاعت طرد كل الجنود منها!

فقال أمين:

- اسبقني يا عمار إلى هناك، سأذهب إلى أمي أودعها وآتي إليك كي أشارك.

- حسنًا يا أمين، حفظك الله.

- في رعاية الله.

***

عادت يمان في نفس الوقت إلى بيتها، لم تكن تفكر إلا في ذلك الفتى عمار، صاحب الشهرة الواسعة والعين التي حركت قلبها، وماذا حدث له في هذا الشغب.

تتساءل في ليلها من هذا الفتى يا تُرى و لم أحبتْهُ؟، أصبحت شاردة الذهن وكأنها في حيرة من أمرها لا تفهم ماذا يحدث من حولها.

- يمان .. لقد ناديتُك عدة مرات ماذا هناك؟

- عذرًا؛ لم أسمعك يا أمي.

- أصبحتِ شاردة الذهن مذ عدتِ، ليست هذه عادتك.

- إنها الثورة فقط، أفكر في البلاد.

- حسنًا، هيا تعالي للعَشاء.

- حاضرة.

ذهبت يمان إلى العشاء، وانتهت منه.. بعد ذلك هَبَّتْ إلى أبيها لتتحدث إليه قليلاً عندما عاد من اجتماعه في مدينة (سور) بأصحابه، سألته:

- كيف حال الثورة يا أبي؟

- الحمد لله، مازلنا نسيطر على الأوضاع في (**سور**)، انضم إلينا الكثيرون.

- حسنًا.

ثم شردت يمان، أرادت أن تسأله عن الشيخ ياسر لتتعرف إن كان عمار ولده أم لا، ولكنها استشعرت الحرج قليلًا.

- ماذا هناك يا يمان؟.. أعلم أنكِ تخفين أمرًا.

ابتسمت يمان ثم قالت:

- دائمًا ما تكشفني يا أبي، في الحقيقة نعم.

- حسنًا.. أخبريني.

- أَتَذْكُرُ الشيخَ ياسر الذي حدثتَني عنه؟

- نعم، كنا معًا منذ قليل، لمَ؟

تورد خدها قليلًا، ثم قالت:

- عنده ولد اسمه عمار؟

- نعم.

- حسنًا هو معي في الجامعة كنتُ أتأكد منك فقط.

لاحظ أسعدُ تورد خدها وحرجها عند السؤال ولكنه لم يحبب أن يثقل على صغيرته غير أنه علم ما بها.

- نعم يا يمان أعلم، هل هناك شيء آخرُ؟

- لا يا أبي شكرًا لك.

قبَّل أسعدُ جبينَ صغيرته ثم قال لها: إن أردتِ شيئًا يا يمان فقط أخبريني.

- بالطبع يا أبي.

ثم ذهبت يمان إلى غرفتها، وفرحت أن عمار هو ابن الشيخ ياسر الذي لطالما امتدحه أبوها.

أخذت تناجي ربها كعادتها تقيم الليل وتقول: اللهم إن كان فيه خيرٌ لي فاجعله من نصيبي، وإلا فاصرفه عني.

أرادت أن تكون عفيفة وإن شقت، ستكتم حتى لا ينمو حبٌّ ربما ألا يكون له وصلًا في الغد البعيد.

***

بينما عمار في طريقه إلى البلدة، لم يكن في رأسه إلا شيء واحد..

"تُرى سأرى هذه الحورية مجددًا، أم أنَّه قد سُلِبَ قلبي، وتُرِكتُ دونه"

حفِظ عمار القلبَ لها وحدها، كانت صورتها تداعبه في كلِ ليلة، فكم وقف في ليلة من ليالي الصيف يتأمل القمر، يداعبه بكلّ عِفَّةٍ آمِلاً في رَدِّه ويُناديه:

- تُرى هل ما فيك من رسائلِ العشاق فيها من الطهارة أم أنَّ كلَّها شوقٌ وولعٌ؟!، تعب ونَوَى؟!، افتراق يَشُقُّ القلوبَ ويَفتِك بها!.. هل يا تُرى الحب لا يكتب له اللقاء وكان على العاشقَين الفراق؟

فيسمعه يجيبه:

- بالطبع، كل المحبِّين عانوا من البين، من الآلام يا عمار.

- الحب أسمى من كل ذلك أيها القمر!، وحبي ليس من ذلك النوع؛ حبي أرويه برسائلَ العشقِ التي أكتبُها بِحِبرٍ من الأوردة على ورق من القلب، فأُهدِيها إلى أميرةٍ ما زالت محروسةً في خِدرها، وَصِفاتُها في عقلي، ستأتي وإن طال الغياب، سألقاها رغم المسافات.. بدعوات من القلب تصعَد من وسط السجدات إلى السماء فتفتح الملائكة لها الأبواب من طهارتها.

وأخذ يردد دعوته:

"اللهم ارزقني حبًّا يسمو بي إلى الجنة، ويكونُ لي على الأرضِ جنة!".

وحينَها سيكون وَصْلِي لها لا تُقَطِّعهُ الأيامُ ولا تُبعِدُه المسافات؛ فإنَّ الطهارةَ لها أبواب وأبواب!، أَوَلَيسَ في نقاءِ الحبِّ لقاءٌ حتى وإن تفرَّقت القلوب وماتت الأجساد؟!؛ فحب الأرواح يدوم، وما دونه يموت!".

****

(٩)

﴿يَـومُ السُّـقُـوطِ﴾

عندما وصل عمار إلى البلدة، وجد الحراسة على أبوابها أشد ما يمكن، وقف القطار في محطته فوجد الجنود في كل مكان ينتظرون كل قادم، إن كان معه سلاح أمسكوه ثم عرفوا من هو وامتحنوه حتى يطمئنوا له، لما وصل عَرَّف الجنود أنه عمار، فدخل البلدة. وبينما هو سائر إلى بيته، رأى عمار أن فتيل الثورة قد اشتعل في قلوب الشباب، فقد أصبحوا عازمين أن يكونوا الفعل الذي سيغير مجرى التاريخ وقرروا أن ينتصروا هذه المرة، حتى وإن أصبحت حربًا نهايتها إما نصر أو موت!

أصبح الرجال كالنار المستعرة على الطاغية، وبدأ الشباب يطالب بالحرية، تحركت التظاهرات لكن هذه المرة مخططة ليست عشوائية كحال الانتفاضات السابقة.

عندما وصل عمار إلى بيته، ذهب لأمه فسلم عليها وقبَّل يدها، كانت سمية قلقة على عمار كثيرًا بسبب ما حدث في الآونة الأخيرة:

- لقد قلقتُ عليكَ كثيرًا، سمعتُ ما حدث في الجامعة، ومع اشتعال الأحداث قد أصابني الخوف.

- لا تقلقي يا أمي، لقد وعدتُكِ.

- حمدًا لله على سلامتك، هيا اذهب لتستحم وتزيل عمك آثار الألم.

وضع عمار أمتعتَه وذهب، عندما خرج وجد والدتَه تقرأ في كتاب، جلس جوارها ثم تحدثا حتى خَيَّمَ الليلُ، عندها عاد ياسر من مجلسه فقابله عمار وقبل يده.

***

بعد أن أكل ياسر طعامه ذهب معه إلى مجموعة القيادة، سلم عليهم جميعًا ثم وجد الوجوه قد ازدادت والبعض قد غاب، أو قد صعِد إلى السماء في حرية مع وفاته.

في هذه اللحظة جمع الشيخ أحمدُ أكبرَ عدد من الشباب وأخذ يتحدث إليهم حتى يبين لهم كل الحقائق:

- البعض هنا لا يعرف الأحداث التي جرت في الماضي، عندما حلَّ علينا ذاك اليومُ يوم الخيانة التي لم يتوقعها أحد، ولكن لا بُدَّ للجميع أن يعرف الحقيقة؛ لأن التاريخ عِبَرٌ، وفي العِبَرِ الحَيطةُ والنجاةُ..

في يوم من الأيام قبل أكثر من ربع قرن، كنا نجلس جوار الملك لما استدعاه ليخبره بما حدث، كان عندها شابًّا في الخامسة والعشرين من عمره، لما جاء (مراد) قال له الملك:

– يا مراد.. كيف حالك؟

– بخير يا مولاي في نعمتكم وفضلكم.

– عندي لك خبر طيب، تم اختيارك أنتَ وحمزةُ لتكونا مبعوثَي دولتِنا إلى دولة (**أَسِيكَا**)؛ للاطلاع على المعدات الحربية الحديثة والتدريب عليها.

– حقًّا يا مولاي؟!

– نعم، وستسافر إلى هناك بعد أسبوع.

– شكرًا على ثقتك يا مولاي.

عندها ذهبَ مراد إلى دولة (**أَسِيكَا**)، كانت دولة متقدمة خصوصًا من الناحية الحربية، أقام هناك مرادٌ وحمزةُ أخوه طيلةَ ثلاث سنوات يتدربان على تلك الأسلحة، ثم عادا بعد ذلك ومعهم منحة من تلك الأسلحة المتطورة، كانت المرة الأولى التي نرى فيها الطائرات، قام الملك بترقية مرادٍ كقائد للقوات الحربية؛ لأنه رآه أعلم الجنود بما تطور منها..

بعد ذلك بعدة سنوات جاءت بعثة من تلك الدولة إلينا..

كان مراد ومستشار الملك في استقبال تلك البَعثةِ، كان قائدها رجل يبدو أنه في منتصف العمر، تبدو عليه الهَيبة على عكس أقرانه، كان يُدعى (جاكون) وكان كبيرهم.

ذهب جاكون وقومه مع القائد مراد إلى بلدة (**كوك**)، كان القائم عليها بأمور الدولة هو حمزةُ أخو القائد مراد فمكثوا جميعًا هناك، اختاروها لأنها الأقرب لقصر العاصمة..

وبعد تسعِ سنينَ حدث ما حدث من تلك المجموعة وخان البلادَ مرادٌ، لا ندري ما دار خلف الأسوار، كل ما عَرفناه هو أن البلاد قد استيقظت على ذلك الكابوس.. يوم طلب مراد من الملك أن نجتمع للعشاء ومناقشة أحوال البلاد كلها، وَرَحَّبَ الملك بالفكرة ورحَّبنا جميعًا، ومع بداية العشاء في قصر الملك وجدنا الهجوم..

آلافَ الجنود بقيادة حمزةَ ينطلقون محاصرين القصرَ بأكملِه، على جوانبَ القصر جثث الحُرَّاسِ مترامية بدأتْ تتساقط، ومن بقيَ حيًّا منهم أصبح يعاني من آلام السُّمِّ الذي تَمَلَّكَ من جسده وبدأ في مصارعة الموت فقتله جنودُ حمزةَ بسهولة..

اقتحموا البوابة ودخلوا إلى القصر قاتلين كلَّ من يجدونه في طريقهم حتى أصبح القصر مُخَضَّبًا بالدماء.

اقتحموا القاعة مدجَّجِين بأسلحتهم، أدرك الملك والقادة ما يحدث، فوقف غاضبًا يقول:

- ماذا يحدث هنا؟!

فحمل سلاحه، ووقف معه القادة منهم مراد الذي أظهر حَمِيَّةً مُصطنعةً؛ حتى لا يبدو لهم الأمر؛ فلربما أراد أن يحصل منهم على معلومات ما في وقت لاحق.

وقف الملك مناديًا:

- اثبُتوا فإما أن نموت كِرامًا أو أن نحيا أحرارًا.

وقف القادة فوجدوا حمزةَ يدخل..

صرخ الجميع في صوت واحد:

- حمزة؟!

وصرخ الملك في غضب:

- ماذا يحدث هنا؟!

انضم مرادٌ إلى حمزةَ، ثم دخل جاكونُ عليهم وَسْطَ الجنود المحاصِرين للقاعة من كل باب وقال بعدما رفع سلاحه:

- أحسنت يا حمزة، ثم ضرب على كتفه بفخر.

وقف بين الجميع وجلس واضعًا قدمًا على قدمٍ ثم نظر إلى الملك وقادته:

- الآن يا سفيان قد أخذنا كلَّ شيء، وأنت ستموت.

- من أنت؟

- ألا تعرفني؟!.. حسنًا لا يهم، أنا الملك الجديد.

أخذ القادة ينظرون إلى بعضهم وينظرون إلى الملك، ثم قيل له عندها:

- إنه مبعوث دولة أسيكا الذي أتى منذ سنوات وأقام في كوك.

عَلَّقَ الملك في عجب:

- الخونة!

- ألم تعلم يا سيدي أن الخِداعَ أعظمُ حيلةٍ في الحرب؟!

ثم صاح إلى الجنود: "ضعوهم في الأسر"!

استطاع الجنود أن يسيطروا عليهم بعدما قاوموا.

ثم جاء جاكون إلى حيث احتجزونا، وأخذ يعذب فينا، في هذه اللحظة سببتُه بغضب فأطلق رصاصة دون كلام على قدمي؛ لتشيع الرهبة في قلوب الجميع، هذه سبب عَرَجِي إلى الآن!

ثم أخذ الملك وقال له:

- هَلْ تَعْرِفُ كَيفَ سَأَقْتُلُكَ؟

- لا يُهم؛ الموت ليس النهاية، لكن النهاية تأتي عندما نحيا خائفين من الموت.

- كيف؟

- نحن لا ننتهي، نعلم أن الموت هو البداية، وأن الموت في حرب نحن فيها لم نكن معتدين بل مُعتدَى علينا نكون مَوتَى، ويا لفرحة من مات منا في سبيل حريته!.. صحيح نسيت أن هذه المصطلحات كبيرة عليك.

ضحك جاكون في استهزاء ثم قال للملك:

- هه هه، الآنَ يا سفيان سأنزع رأسك، وأعلقها على سارية العلم؛ ليرى الجميعُ ملكَهم الذي يحبونه.

- صدقني، ستُقطعُ رأسُكَ وتُعلَّق يومًا ما.

- ألم تدرك بعد أن المنتصر هو من يكتب الحقائق، ستثورون الآن بكل تأكيد، ولكننا وضعنا خطة لكل ذلك، ستقمع الثورات الآن إما بقتل أو بأسر، ثم بعدها سنوضح للعالم أنها كانت ثورة على ملك، وسيقبلون بعدما يختفي الاعتراض، هذا هو الحال.. أحسِبتَنا ظللنا عِقدًا من الزمان بلا تخطيط؟!، لقد فعلنا كل ذلك حتى نبدو للجميع أننا من داخل البلاد، فلا يستطيع أحد أن يدافع عنكم، نُظهرُ الدينَ، ولكننا لم نؤمن به يومًا، إذًا كل هذه الأسباب معًا ولا سبيل لكم.

رد الملك سفيان بكل ثقة:

- إن كان معك العالم كله، فنحن معنا الأرض، الحق، الدافع، الموت نفسه معنا.. معادلة منتهية هي، وإن قُمعت أي ثورة ستقوم عليك الثورات تترى.
- حسنًا، الآن لا صوت يعلوا فوق صوت القوة.

ثم احتل الجنودُ القصرَ والعاصمةَ، أَسَرُوا القادةَ ثم أرسلَ جاكونُ جنودَه إلى بلدة كوك مع حمزةَ الخائنِ من جديد ومعه الحامية التي وُعد بها استعدادًا للمقاومة.

***

وقف جاكون وأمر بإعدام الملك أمام أعيننا، سَلْسَلَنَا جميعًا وفَتَحَ أعينَنَا قَهْرًا، وقف خلف كل واحد منا جندي يثبت رؤوسنا، ويمنعنا من إغلاق أعيننا، ثم جز رقبته أمامنا..

وانفصل الجسد عن الرأس، كان الملك في هذه اللحظة ثابتا قويًا، لم تهتز له شعره، وقبل قطع رأسه قال:

- لا تيأسوا، ولا تهلعوا، الموت بداية الحياة، وليس نهايتها، لا تخافوا، أكملوا المسير، والله سينصركم.

ونطق بالشهادتين..

ثم أُخذَ رأسُه وعُلِّقَتْ وَسْطَ العاصمةِ على السارية.

- ولماذا خان أولئك بلادَهم بكل سهولة؟!

- مرادًا وأخاه؟!.. لا أدري، ربما أغرُوهم بالسلطان والقوة.

***

أَكْمَلَ أحدُ الشيوخ الذين كانوا من أهل العاصمة:

- استيقظ الناس وخرجوا إلى أعمالهم، فوجدوا رأسَ الملك مُعلَّقًا والمدينة منتشرة بجنود يحملون البنادق..

ذُعرَ الناسُ مِمَّا يرونَه من كثرة الموت ورأس الملك والجنود المنتشرين في كل مكان، ثم خرج مرادٌ من شرفة القصر وخلفه جاكونُ ونادَى في الجُموع أنه الملك الجديد للبلاد، وأنه فعل ذلك في الملك عندما وجده يخطط لسلب الأموال من الناس ويعذب الأهالي في السجون..

وكان قبلَها قد أوصى الجنودَ بالتجبر وسلب الأموال من الناس حتى يكرهوا الملك -وقد كان والكل لا يدري-، حتى زاد السُّخْطُ والكُرْهُ في كثير من القلوب.

وكان كل فترة يختفي بعضُ الناس، يتم وضعهم في السجون ويقابَلون بأشد أنواع العذاب، ويُقال لهم إن الملك أمر بذلك.

وبعدما خرج مراد، أمر بإخراج أولئك الأسرى إلى أهليهم، ففرح الناس، ولكن.. وقف واحد من الجنود، كان هناك في تلك السجون ونادى أن من فعل هذا مراد وجاكونُ وهما من خططا لكل ذلك، فتم قتله على الفور.

وكتبت الصحف ما قاله مراد، فانقسم الناس بين مبتهج بعودة غائبه، وبين مكذب يعلم أن الملك كان أمينًا وما كان ليعذب أو يظلم أحدًا. وانتشرت الأخبار كالنار في الهشيم في كل البلدان أن مرادًا قد انقلب على الملك!

***

تذكر ياسر ما حدث بكل تفاصيله.

في اليوم التالي، انتقل الخبر إلى بلدة (سور) وذُعر الناسُ هناك، أخذ الجميع يتساءل ماذا سيحدث؟، هل ستترك البلاد تقع في ذلك الأسر؟!

كادوا يصدقون الأخبار، ولكنهم كانوا يحبون الملك، وعندما غضب أحد محبي الملك وقال إن ذلك كذب، وجد رصاصة في رأسه من الجنود الذين تم أمرهم بقتل أي مشاغب.

وبذلك اتضحت الحقيقة في سور فثارت ولم تخمد النار فيها يومًا.

فوجدوا جنودًا مدججين بالسلاح قادمين إلى البلدة وأقاموا عليها حصارًا شديدًا، لا أحدَ يستطيع الخروج منها، كانت أعدادهم متوسطة ليست بالعدد الكثير الذي لا يُرد، ولا بالقليل الذي يَسْهُلُ ردعَه.

عاد ياسرٌ إلى سميةَ بعد صلاة العصر، وقال لها متسائلاً:

- أسمعتِ ما حدث أمس يا سمية؟

- نعم سمعتُ، تُرى ماذا حدث وماذا سنفعل؟!

- لا أدري.. سمعتُ أن هناك مجموعةً ستخرج اليوم من البلدة للمقاومة ومحاولة ردع الجنود.

- ستشارك معهم؟

- ماذا ترين؟

- أخاف عليك من الغياب إن ذهبتَ فأفقدك، وأخاف أن أحرمَك شرف المشاركة في حق تربينا عليه!

- لا تخافي يا سمية، أقدارنا مكتوبة وأعمارنا معلومة شئنا أم أبينا.

- اذهب يا ياسر، ولكن كن بخير.

- كعادتك يا سمية.. أنتِ الأمان الذي رُزقتُه، والدعم الدائم.

- كن بخير يا ياسر، وَعُدْ إِلَيَّ مرفوعَ الرأس.

ثم احتضن ياسرٌ زوجتَه وتلاحمت الأرواح والقلوب، مودِّعًا إياها قبل الخروج بكل حمية، واشتعلت البلدة، وسالت الدماء، وأصبحت مهدًا لثورة حقيقية!

****

(١٠)

﴿الـذِّكْـرَى وَالْـكَّـابُـوسُ﴾

عاد ياسر ليلاً إلى المنزل بصحبة عمار، وقد تذكَّرا كل ما كان في اليوم النَّحِسِ.

لما دخلا المنزل، رأتهما سمية تتطاير الكآبة من عيونهما، عابسَين غاضبَين على عكس ما اعتادت عليه.

- ما لي أراكما واجِمَينِ؟!

رد ياسر:

- لا شيء، نحن بخير.

وقال عمار بعده مباشرة دون مقدمات:

- سأذهب الآن للنوم، تصبحان على خير.

كانت سمية في حيرة من أمرها، ظنت أنه ثمة شجار حدث بينهما فتركتهما حتى يهدآ ولم تُعَقِّبْ، وقالت في نفسها أن تسأل ياسر وإن كان كذلك، أصلح بينهما في الصباح إن شاء اللّه.

***

ذهب عمار إلى الغرفة متذكِّرًا كل ما حدث، فأرقتْه الذكرى طويلاً حتى أرهقتْه وأثقلت الليل عليه، لم يستطع النوم، ظل يتأمل سقف غرفته محاولاً أن يتناسى ما استيقظ في رأسه، ولكنه لم يستطع، وظل على حاله هذه حتى غلبه النوم.

- ماذا بك يا ياسر؟

- أتدرين، لقد ذكرنا الشيخ أحمد بكل ما حدث يوم قُتل الملك، بل وما حدث في بيتنا هنا.. أتذكرين؟

- وكيف أنسى يا ياسر؟!

أصبحتْ واجمةً مثل زوجها من ألم الذكرى، ومتوجسة قلقة من العاقبة ومن حدوث ما حدث مجددًا!

عندما عاد ياسر من بلدة (الدار) يوم انتفضوا ضد انقلابهم على الملك سفيان، وقد أدرك أن البلاد ستدخل إلى نفق مظلم، وأن نهاية الانتفاضات قد حانت قبل أن تبدأ، كان خائفًا، ليس على نفسه ولكن على زوجته وولده، كان خائفًا من حدوث شيءٍ ما، فيستطيع الجنود فصله عنهما، ولكن لما رأته سمية طمأنته، أخذته في أحضانها وقالت له:

- لا بأس، كل شيء سيكون على ما يرام.

عندها اطمأن قلب ياسر قليلاً، شَعُرَ بالدِّفءِ بين ذراعَي زوجتِه ووجد الأمان، فوقف أمامها ونظر إليها في شرود قائلاً:

- أردتِ أن تأخذي بيدي إلى الجنة، لَكِنْ...

- لكن ماذا؟

رفع ياسر عينيه ونظر إليها نظرة طويلة فيها كل معاني الإشفاق والحب:

- لم أكن أعلم أني سأراها بعينَيَّ في حياتنا الأولى حتى رأيتُكِ، كأنَّكِ الجنةَ يا سمية!

اِحْمَرَّ وجنتَيها؛ من فَرط الخجل، وأشاحت بوجهها لحظات.. جذبها بين ذراعيه، ومسح بيده على رأسها.. ثم تنهد في أسى:

- ماذا لو كان لقاءنا الأخير يا سمية؟!

- لا تقل ذلك يا ياسر.. إياكَ!

اعتذر إليها، وقال:

- صدقتِ، فاللهُ خيرٌ حافِظًا.

- نعم، هو والله خيرُ الحافظينَ.

ثم دخلا بعد ذلك ليناما، آملَين في أن تصبح البلاد أفضل، وأن يعينهما الله على تربية ولدهما الصغير.

***

لم يكد يمر الوقت على كلمات سمية وزوجها، حتى ضُربت الأبوابُ بشدة، وعَلَتْ في الأجواء صرخاتٌ هائجةٌ تُنادي في قسوةٍ:

- ياسر.. أين هو ياسر؟، افتحوا الأبواب حالًا!

استعد ياسر في غرفته في جَلَدٍ وصبر لمصيرهِ المحتوم وقال لزوجته في صبرٍ عجيب:

- لقد أدركوني يا سمية، عمار وديعتي عندك فاحفظيها.

بكت الزوجة المرتعدة وأجابته والدموع تنهمر على وجنتيها.

- سأنتظركَ مهما طال الزمان.

مسح ياسر دموعها ورفع رأسها نحوه، ونظر في عينيها نظرةً طويلة وكأنَّهُ يقول لها لا تجزعي، وقبل رأسها واحتضنها بين ذراعيه في حنوٍّ طويل.. كانت لحظة النهاية!

كان عمار قد غط في النوم، فأخذ يتذكر هو الآخر كابوسه وقد بدأ عند تلك اللحظة من الذكرى.. رأى عمار كل ما كان في حلمه.

***

سار ياسر صامدًا مُحتسبًا.. وأخذتْ سميةُ بِيَدِ ولدها عمار ودخلت غرفة بعيدة وقالت له:

- ابق هنا يا عمار ولا تخرج من الغرفة مهما حدث، وإياكَ أن تُصدِرَ صوتًا. قطع ذلك الضجيج المتعالي محادثتها مع الصغير.

كُسِرَ البابُ ودخلت مجموعة من الرجال مدججين بأسلحتهم، والشرُّ يقطر من أعيُنِهِمْ، صرخ قائد المجوعة في غضب:

- أين أنت يا ياسر، لا مفر لك الآن من قبضتنا؟

وقف ياسر أمامهم، مقبلاً على مصيره غير مُدبرٍ، لم يَهبْهم قَطُّ، لم يندم على سَيره في الطريق الذي بدأه.

بكل قسوة أخذوه وكبلوا يده خلف ظهره، أسقطوه على بطنه في مشهد من مشاهد الذل المؤلمة!

صرخت سمية في فزع:

- لا تأخذوه.. لا تأخذوه!

فرفع يده وضربها على وجهها بلا رحمة، فسقطت أرضًا وجسدها يرتعد من كل شيء حولها!

- اصمتي أيتها الساقطة، إياكِ أن تتفوهي بكلمة أخرى!

كانت تلك الضربة على قلب ياسر أشد من ألف رصاصة، وبرغم كل الألم كان صابرًا قويًّا محتسبًا، لكنَّ ضربةً واحدةً على وجه زوجته جعلته أتعسَ الناس على وجه الأرض وأكثرهم بؤسًا.

كان الفتى يشاهد من ثُقبٍ في الباب ما يحدث، على صغره لم يتحمل ولم يفهم لماذا ضُربت أمه ويقيد أبيه من هذا العملاق.

فجرى عمار من غرفته، وهو طفل لا حول له ولا قوة، نحو ذلك الجنديُّ محاولاً حمايتها. دافع عن أمه العاجزة، وسلاحُه صرختُه وقلبه الشجاع البريء قائلاً: "لَا تَضْرِبْ أُمِّيَ يَا وَغْدٌ!"!

ثم انطلق وضربه بين قدمَيه، فالتفتَ إليه الجندي في ألم بعدما أصابه، ثم ركل بقدمه الطفلَ بشدة حتى سقط على الأرض مَغشيًّا عليه.

سالت الدموع من عيني ياسر، بعدما حاول أن يمنعها قدر استطاعته، ولكن ما الذي سيفعله رجل سُلبت منه كل قوة؟!

ورُغم أسرهم لياسر وضرب زوجته وولده أمام عينه حتى كاد يموت من الحزن عليهما، ولكن ظمأَهم للبطش لم يرتوي بذلك فقط، بل أخذوا يجتثون ما بقى من قوة في قلبه.. أذلوه وأحرقوا قلبه بسُخريَتِهم من زوجته، وبضربها على وجهها وهي تبكي وتصرخ تارة من الألم، وأخرى من القهر وأخرى من ظلم الأيام!

ثم عاثوا في البيت فسادًا.. كسروا أمتعته، ونهبوا كل ما في داخله وحطموا كل ما فيه تقريبًا.

أخذ ياسر يتلوى تحت قبضتهم ويحاول جاهدًا أن يَفِرَّ منهم ليدافع عن زوجته الجريحة، كأنه ذبيحة بين يدي قصاب لا رأفة ولا أمل لها؛ فهي مذبوحة لا محالة!

لم يستطع أن يحبس آلامَه طويلاً حتى شَقَّ صوتُه سكونَ الليل صاعِدًا إلى السماء وانساب الدمعُ من عينه:

- يا رب.. مالنا سواك!

استيقظ الفتى الصغير من غفوته على صرخات أمه -المتهالكة على الأرض- وهي تقول لهم -والنحيب يقطع صوتها، والدموع تسيل من عينها وتسقط على أخواتها التي بللت الأرض من تحتها-:

- لا.. أرجوكم لا تأخذوه.. أرجوكم.

ليرى على صِغَرِهِ ما جعلَه شيخًا عاجزًا..

أباه مُكَبَّلاً بين أيديهم، وعيونه تبكي من شدة العجز لا من الخوف، وأمه المنهارة الباكية التي فقدت زوجها!

فصرخ عمار مستيقظًا يصرخ بنفس صرخته عند هذه اللحظة..

- لا.. لا تأخذوا أبي!

ثم أدرك أنه الكابوس مجددًا، قام وشرِب قليلاً من الماء البارد، ثم استعاذ بالله من الشيطان وحاول أن ينام مرة اخرى، فلم تسمعه أمه ولم تأت لتغني له كما كانت تفعل وهو صغير، فهي اليوم قد تذكرت ما يُؤَرِّقُها أيضًا!

***

في القصر، بعدما قُمعت الثورة، وانتشر الجنود في كل مدينة مدججين بأسلحتهم، منتظرين أوامر قاداتهم الذين يأخذون أوامرهم من (مراد) الذي يأخذها بدوره من مبعوث الدولة الكبرى (جاكون).

- الآن قد اشتعلت ثورة في (سور)، وردوا الجنود بتضحياتهم، ماذا نفعل يا جاكون؟

- أَرْسِلْ حمزةَ بحاميةٍ كبيرة إلى البلدة المجاورة لهم الدار حتى يقمعهم هناك بالكمائن ويأسرهم، لا أظن أنهم مجموعة منظمة، وكل هذا في الحسبان.

- حسنًا.

خرج مراد ونادى حمزةَ، ثم دعاه أن يذهب إلى مدينة (**الدار**)؛ حتى يقمعَ أولئك الذين استطاعوا التمرد في بلدة (**سور**).

تحرك حمزةُ في مَساء ذلك اليوم، واستطاع أن يأخذ معه قواتٍ كثيرة مُعَدَّةً لمقابلة الخطر من هذه (القوات الخاصة).

ثم انطلق وقابل الرجال في بلدة (**الدار**) وقمع من قمع وأسر من أسر، ومن فر أرسل خلفه من يتبعوه سرًّا حتى يمسكوه من قلب بيته لينشروا الفزع في قلوب الجميع.

كانت خطة (جاكون) مثالية وشيطانية، استطاع أن يقمع كل من ثار، وفي خلال عام واحد، كانت السجون ممتلئة والقبور كذلك.

بعد ذلك العام سافر (مراد) إلى كافة الدول ممثلاً للبلاد، واعترفت به جميع الدول مغلقة عيونها عما فعل من سلب للحقوق وسفك للدماء!

فَهُمْ في الأصل من أرسلوا (جاكونَ) ليفعل كل ذلك، فكيف لهم ألاَّ يعترفوا به، ولو قتل أو أسر، فقيامهم يكون على خراب دول أخرى.

بعد ذلك العام، كان جاكون قد أمر مرادًا بتغيير كافة الصِّحفيين، والقائمين على الإذاعة، وجاء بجدد ممن تخرجوا في مؤسساتهم، رفقة أولئك الذين دسوهم من قبل حتى يكتبوا ما فعل على أنه شيء عظيم.

وأصبحت الصحف كلها تبث الخنوع لمراد الحاكم الجديد، وجاكون يعمل من خلف الأسوار.

واستمر العمل بعد ذلك كل هذه السنين حتى الانتفاضة الجديدة، السجون فيها تغيير لعقول الرجال.

والصحف فيها تغيير لعقائد الأطفال، حتى نشأ جيلٌ مشوَّه، لا يُمَيِّزُ الحقَّ من الباطلِ، لا يدري كيف يتقدم مع علمه بكل هذا، أصبحت العاصمة مدينة محصنة بكافة الأسلحة، استمر حمزة في مدينة (**الدار**) يقمع الثورات، وذهب إلى مدينة (**كرمة**) لما قامت فيها ثورة

تطالب بحياة كريمة، فقتل البلدة بأكملها، والصحف لا تكتب خبرًا عن كل ذلك، والعالم كله لا يرى الدماء!

***

أقاموا مطارًا حربيًّا في (الدار)، حيث يقيم حمزةُ، وامتلأ بكافة المعدات الحربية حتى أصبح كأنه قاعدة عسكرية، ليكون سلاحًا أقوى للقمع، وأقيم في العاصمة واحدٌ آخرُ، رُغْمَ أنَّ الطائراتِ والمعداتِ الحربيةَ في هذه الأوقاتِ كانت بدائيَّةَ الصنعِ، إلا أنها كانت مدمرة، واستطاعوا الحصول على أجهزة اتصالات، رغم أنها لم تكن موجودةً في البلاد، ولم يكن أحد يستطيع التواصل إلا بالرسائل.

ثم أصبحت العاصمة محصنة بأقوى التحصينات، حيث وضعوا حول ناحيتَي النهرَين أسوارًا جديدة، وأصبحت الأسوار تمتلئ بالجنود، وشيَّدوا عددًا من الحصون خارج أسوار العاصمة.

وكانت العاصمةُ هي المدينةُ التي تحتوي على كبار المنتفِعِينَ؛ فحياتهم رَغِيدَةٌ ولا يرَونَ في الثورات إلا تمردًا، يؤيدون الملك الذي أعطاهم الحرية في فعل أي شيء كما يريدون، والجامعة كان أغلب مدرسِيها من خارج العاصمة، لكنَّه لم يستطع تغييرهم، فقد تركهم ولكنه منعهم حتى من قول أي رأي في أي أمر.

مع الوقت أصبحت البلادُ بها عاصمةٌ فاسدة مستمتعة، ومدائنُ مترامية كَئِيبَةٌ، كلها قمعٌ وحزنٌ وخوفٌ وَتَجَبُّرٌ مِنَ الجنودِ، وانتصر (مرادٌ) و(جاكونٌ) ومن معهم على شعبٍ بأكمله!

******

(١١)

﴿حَـيَـاةٌ وَمَـوتٌ﴾

نمت الثورة وانضم إليها الشباب وُفودًا، كأنهم قد وجدوا فيها ضالَّتهم بعدما عانوا من الظلم والفقر.

وعلِمَ القادة أن القوة هي التي تحسم الصراع، فاستغلوا كل ما غنموه من معدات من مقرات الأمن التي سيطروا عليها في تحصين أنفسهم.

كانت مواجهات محتدمة على حواف مدينة سور، ولكنهم استطاعوا رد كل جندي جاء محاربًا، فسلَّم مرادٌ وجاكونُ بسقوطها في هذه اللحظة، وبذلك أصبحت لهم شوكة تُنَغِّصُ على مرادٍ وجاكونَ حياتَهما.

في هذه المواجهات فَقَدَ بعض الثوار حياتهم كما حدث لرجال مراد.

وعندما أُقيمت عليهم الجنائز، وقف الشيخ أحمد وقال:

- رحم الله من مات ومن سيموت في سبيل حرية وعدالة هذا الوطن، وكما مات منا قد مات منهم، ولكن شتان بين هذا وذاك.. بين رجل رأى في الدماء أزهد ما يقدمه للوطن وللحرية، فقد علم أنَّها زهرة لا تنمو إلا بدماء الصادقين، وآخرُ دفعها مجبورًا مُدبِرًا خائِفًا.. لا لشيء إلا لظلم واستبداد، فادعوا لهم بالرحمة والقبول عند الله، وكونوا على العهد ثابتين لا تعودوا أبدًا إلا وأنتم آخذين ثأرهم وثأر كل مظلوم.

وقف الثوار يزأرون كأسد قام بعدما ظنَّه صيَّادوه قد مات متأثرًا بإصابته في الماضي، حتى يُفاجَؤون به لما عاد قويًّا منتقمًا يناديهم:

"ها أنا قادم لا أهاب شيئًا، أنا عدت بعدما عذبتني طلقة الصياد الغادر، فزادتني حرصاً وقوة!".

عزم الجميع على أن تنمو الزهرة، فلو نفِدت رصاصات الطاغية على أجساد الصامدين ما نفدت قطرات التضحية أبدًا!

***

الانتفاضة المفاجئة قد أغضبت مرادًا و جاكونَ في القصر غضبًا شديدًا، فأصبح كل واحدٍ منهما كالثور الهائج الذي لا يرده أحد.

فجمعا كل الرجال هناك، وأمرا باجتماع عاجل، وبدأ مرادٌ يتحدث بلسان جاكونَ؛ فهو العقل المدبر لكل شيء:

- ما هذا الذي يحدث؟!، كيف لكم أن تسمحوا بذلك؟!، أخبرتُكم من قبل أنني أكره التمرد ولا أحب سماع حكايات عنه.

- يا سيدي إنها ثورة كتلك التي تحدث كل فترة وسنقمعها.

- وماذا عن هذه الأخبار التي تقول أنهم قد سيطروا على (سور) وأخذوا كل معداتنا فيها؟!

- كانت مفاجأةً لنا فقط، ولكننا سنستعيدها ككل مرة.

فوقف أمامهم بين الكرسي و الطاولة غاضبًا، ضاربًا بيده عليها في حِدَّةٍ وقد لَمَعَتْ عُيونُه:

- أريد منكم جميعًا أن تجعلوهم يندمون على خروجهم هذا، حتى لو قتلتم كل من يثور.

ثم وجه حديثَه إلى حمزةَ قائلاً:

- وأنت يا حمزةُ، إذا حاولوا التقدم اضربهم ضربًا شديدًا استخدم الطائرات التي أتتنا بالسفن من الأصدقاء خلف البحر، اجعل ليلهم جحيما ونهارهم موتًا، لا ترحمهم ولا تأخذك بهم شفقة، أريدهم أن يعلموا أن الموت قادم لا محالة، لا رأفة لهم ولا هوادة!

هيا انطلقوا إليهم ولا أريد أن أسمع عن هذا التمرد مرة أخرى!

فأمر القادة كل الجنود بحزم أن ينهوا ذاك التمرد، فنقلوا إليهم حالة الغضب الشديدة التي يعيشها القصر.

***

اجتمع الشيوخ كلهم من جديد في الأحداث الجديدة، وذهب عمار مع أبيه ورفض البقاء متمردًا على والديه، فكان الشيخ أحمد يتحدث، فأشار لهما بالجلوس ثم أتبع:

- الآن.. لقد حققنا خُطوة كبيرة في مسارنا الطويل نحو الحرية، انضم إلى بلدتنا الكثيرون من باقي المدن وأصبح كل شيء كما نراه الآن.

أنا أعتقد أن الخطوة القادمة سيزداد الطغيان، وسيزداد القتل فينا، فلا تيأسوا إن حدث كل ذلك، مهما جرى أكملوا المسير، فكلما تعرضتم للخطر كلما كنتم على الطريق الحق، فهل تعاهدوني على ذلك؟

فأجاب الجميع في صوتٍ واحد، كأنها بيعة الموت من أجل الحق:

- نعاهدك يا شيخ.

***

بعد ذلك أصبح الثائرون قوة تؤرق نوم الآثمين، وقف الجميع صفًّا واحدًا، يدركون أن النهاية ما زالت بعيدة، لكنَّهم وقفوا على أول الطريق، وها هي الثورة تنمو لتنتصر!

ولكن هيهات أن تنمو الزهرة بلا شمس، بلا ماء، بلا مزيد من التضحية؛ فعبير الحرية لا يأتي سريعًا، ولا بُدَّ من مرارة الانتظار!

ازداد الجنود في طغيانهم على الضعفاء وطالت مخالبهم التي تأسر الناس كما يأسر النسر فريسته.

أصبحت المدن الأخرى التي قامت فيها انتفاضات تعاني الأَمَرِّينَ؛ حيث أصبح كل جندي ساديًّا يهوى التعذيب، لا يعرف أي معنى للرحمة!، كأنه نوعٌ آخرُ من الخلق، يُخَضِّبُ شعره بدماء الناس، يسرق شبابهم ليتمتع هو بالشباب الدائم، ويطرب أذنيه بآهات المُعذَّبين!

فوضعوا العلماء بحق في غياهب السجون والقبور، وعلماؤهم يصدحون في كل مذياع يحرفون الكلم عن مواضعه!

فأصبحت (سورُ) مهدًا لكل الثائرين، هدأت كل المدن، وانتقل كل من أراد الثورة إلى الجيش الصغير فأخذ ينمو شيئًا فشيئًا.

في هذه الأثناء وصل أمين إلى أبواب البلدة أخيرًا، قابله عمار بعدما قال للحرس أنه صديقه:

- أهلا بعودتك يا أمين، حمدًا لله على سلامتك.

- أهلا بك يا أخي.

فتحت الأبواب، ودخل أمين حاملاً معه روحه على كفه، مشاركًا في السعي للحرية. دخلا إلى الساحات، عازمين على الفوز أو الموت.

شاهد أمين ما كانت تتوق إليه نفسه، الرجال يقفون عازمين على النصر، لم يعودوا خائفين من البطش، أدركوا أنهم أصحاب الحق وأن صاحب الحق منتصر في كل أحواله.

***

هدأت الانتفاضات إلا في (سور) وفي القرى المجاورة لها.

وذهب عمار وأمين في قرية مجاورة لسور مباشرة تُدعى (**دير الخير**)، وكعادة الأيام أن تبدو اللحظات المفصلية تِباعًا.

بينما يتأمل عمار -كعادته- وُجُوهَ الثائرين؛ ليرى بها نَسَمَاتِ الأملِ التي تُذهب حرارةَ الألم.

في آخر اليوم، وجدت عيناه التي لم تنس طَلَّة الحورية التي أسكرتْها تُخطف من بين رأسه، كأنها فرخ للتو تعلم الطيران ففرح وطار، ولم يستمع إلى نصائحَ أمِّه من شدة فرحته،

ولم ينتبه إلى أين يطير! ، وقال:

- انظر يا أمين، انظر سريعًا.

- ماذا هناك؟

- إنها يمان، تنزل من ذاك المنزل.

- يمان!، أما زلتَ تتذكرها؟!

- عجبًا!.. وكيف لي أن أنساها يا أمين؟!

فضربه على ظهره وتبسم، ثم جلسا بعدها وأخرج عمار دفتره وكتب فيه:

"نزلت كحورية ثارت لتشاركنا الحرية، فكان وقعها على عيني كأنَّها نجمة سقطت من بين عقد اللؤلؤ المنتشر في السماء، فأنارت رُوحي، واختطفت بقايا قلبي بعدما أخذته أول مرة، أحقيقةً ما أرى؟!..

سمعتُ صوتَها يعلو مُطالِبًا بالحرية، فوقع على أذني كشدو كروان فأراح قلبي وطمأن روحي، ولكنه كان على العدو زئير أسد خرج يطلب أشباله من خطر الضباع!

لم أكن أؤمن حينها بالحب الذي يخطِف القلوبَ بشباك العيون، ولكن ها هي من كذَّبت ظني في الجامعة، عادت اليوم لتؤكد أنني مخطئٌ.

قُرى دُمِّرت، وأطفال قُتِّلوا، والكثير الذي تلعثم لساني عندما حاول أن يبوح به، قد تسبب في رجوعِ الكثيرين، تراجعوا عنها وكأن في رجوعهم خَلاصًا من بطش الجلاد، وقالوا الأمانَ.. الأمانَ دعونا نعود كما كنا؛ أولادنا أهم من كلِّ شيء حتى من الحرية!،

لكنها كانت رغم كل ذلك واقفة بكل شجاعة تناضل..

حقًّا احتار عقلي سائلاً:

"كيف يا تُرى أسترد الفؤادَ المسلوبَ؟!، هل في البَوحِ سبيلٌ لهذا"؟!".

واضطرم الصراع الشديد!

ثم رفع رأسه ناظرًا لصديقه، وسأل مُتعجبًا:

- أكل هذه الرقة تشاركنا؟!

- يبدو أنها أَسَرَتْ قلبَك يا عمار، لماذا لم تخبر أباك؟

- سأخبره بالتأكيد، ننتهي من هذه القرية، ونعود إلى بلدتنا وأخبره.

***

صرخت أميرة في المرة الثالثة تنادي صديقتها:

- يمان، ماذا هناك أين أنت؟

- معك.. معك.

- أما زلتِ تفكرين في هذا الفتى إلى الآن؟!

- كفاكِ سخريةً يا أميرة!

_حسنًا.. حسنًا كما تشائين!

جلست يمان على سريرها تتأمل النجوم من شرفتها، تتساءل مع نفسها وتحدث القمر:

"ما هذا الذي يحدث؟!، أهذه أنا؟! .. كيف سقطتُ في هذه الشباك؟!، أمن نظرة خَارَ قلبي؟!.. بالطبع هذه ليست أنا!"!

ظلت يمان حائرة شاردة الذهن، تحاول أن تشغل أفكارها بما ينسيها ذلك الأمر، قررت

حينها أن تصلي قيامَها وتدعو الله من جديد بأن يرزقها العفاف، أن يحفظها من فتنةِ التَّعَلُّقِ، وألمِ الحب الذي لا سبيلَ للوصال فيه.

وقفت تتضرع وتبتهل في سكون الليل، تدعو بأن يخلص الله الوطن من ظلم المستعمر وأن يحرر البلاد، وانتقلت بعد ذلك تدعو وهي تبكي أن يرزقها العفاف تقول: "يا رب اجعله لي إن كان فيه خيرٌ لي، وإلَّا فاصرفه عن قلبي".

***

في خضم الأحداث كانت نيران الثورة قد اشتدت، كما لو كانت أمسكت ببحر من الوقود، وكذلك الطاغية أيضًا، أصبح همجيًّا كالغول الذي عدّه الناس –من الوحشية التي وُصف بها– من المستحيلات الكونية!

فهاج في البلاد يتغذى على لحوم الضعاف، ثم يرتوي بدماء الآمنين، وأقسم على أن ينهي تلك الانتفاضة ولو أغرق البلاد في بحار من الدم!

***

طافت المسيرة في القرية كلها، وعندما وصلت إلى أطرافها، قابلوا جنودَ مرادٍ هناك ينتظرونهم بالأسلحة، تجمعوا متأهبين لأي حركة.

فتوقفت المسيرة مبتعدة عنهم ونادت بحماس:

"حرية.. حرية"، وفي لحظة من لحظات الحماسة، رفع الجنود بنادقهم وغازاتهم التي يفرقون

بها، وأمطرت السماء عليهم وابلاً من الرصاص والقنابل الغازية.. وظهرت بطولة البعض هناك.

أولئك الذين وقفوا أمام الرصاصات بصدورهم العارية، وذاك الذي انطلق نحو قنبلة الغاز وأمسكها وقذفها على الجنود متناسيًا كل ألم، متحملاً عن إخوانه عناءها وآلامها وحده، وفي هذه اللحظة تَبَطَّل عمار..

رأى قنبلة من الغاز تتجه نحو يمان، ثارت الدماء في عروقه لما رأى نظرة الخوف في عينها، حرك كل ذرة من ذرات رجولته، وأثارت كل ساكن من عواطفه..

انطلق نحوها حاملاً قلبه في يديه، ثم أمسك هذه القنبلة التي تكتم الأنفاس في الصدر، وتسيل الدموع من العين، وحملها وقذفها بعيدًا.

وحينها لم يتحمل كل هذه الغازات، بل أتت واحدة أصابت رأسه قبل أن تطلق غازها، فسقط على الأرض مغشيًّا عليه..

جرى أمين نحو صديقه وحمله بعيدًا، أخذ يطببه ويمسح الدم عن جبينه الذي أصيب، وهو يصرخ في أذنه.. لكنَّ عمارًا لم يحرك ساكنًا، فحمله أمين بعيدًا في خيمة من الخيام التي أعدها الثوار في عَرَصَاتِ المنازل والحواري.

ثم استمر الوضع بين كَرٍّ وَفَرٍّ، جنود تضرب ورجال يصدون، حتى استطاع الجنود أن يهجموا هجمةً شديدة عليهم فقمعوهم وأسروا الكثير منهم ثم ذهبوا، اختبأ الرجال على أسطح المنازل وفي الطرقات الملتوية، ثم عادوا ليلاً فتجمعوا مرة أخرى ليُعِدُّوا العُدَّةَ للانتفاضة القادمة.

ذهب أمين للخيمة مجددًا التي نُصبت لمداواة الجرحى، وجلس جوار عمار حتى بدأ يستعيد وعيه، وقال بصوت متقطع:

- أين أنا؟

فأجابه أمين بسؤال آخر:

- عمار هل أنت بخير؟

نظر إليه عمار وهو يعدل من جلسته:

- نعم.. بخير.

أفاق بعد ذلك وهدأ الصراع، وقد أَسر الجنودُ من استطاعوا، ومات من مات منهم.

ثم جاءت يمان مسرعة نحو الخيمة تطمئن على الجرحى، ثم ذهبت إلى عمار وقالت له:

- شكراً لك.

قالتها وذهبت سريعًا دون أن تسمع منه ردًّا..

فبريء عمار من كل جرح وقال لأمين:

- يا ليتني يُغشى عليَّ كل يومٍ؛ حتى أسمع هذا الصوت مرة أخرى.

- هل هذا وقت لحديثك هذا يا عمار؟!

تنهد عمار وابتسم ولم يجب صاحبه.

*****

وفي الليل، عندما هدأت الأوضاع، وذهب الجنود معهم من معهم من الأسرى وعاد الناس إلى منازلهم والرجال إلى الخيام التي نصبوها، وصلت الأخبار إلى (سور) نفسها، فقرروا إرسال حامية بالأسلحة على كل قرية مجاورة من صباح الغد.

بينما الناس نيام والقلوب مطمئنة، ظل عمار متأملاً القمر، يفكر في هذه الفتاة التي لم تغِبْ عن ناظرَيه أبدًا..

ولكنه فوجئ بصوت كأنه الرعد قد خلع قلوب النائمين من صدورهم، غارة تضرب البيوت في إحدى النواحي من القرية، فتنسفها نسفًا.

- استيقظ يا أمين.

- ماذا هناك يا عمار؟

- استيقظ لنحتمي؛ هناك قصف شديد.

- ماذا؟!

خرجا من الخيمة وأيقظا البقية واحتموا جميعًا خلف صخرة كبيرة، وأخذوا يشاهدون القصف، وبلغت القلوب الحناجر مما رأت، الكل يجري من منزله مخافة القصف يحتمي في أي شيء.

كانت هذه أول مرة يستخدمون فيها الطائرات على أناس عاديين!، لم يتخيل أحد أن هذا قد يحدث حتى، النيران تتساقط من السماء كأنها المطر فتنير الليل، كأن الصبح أشرق فيه..

صرخ عمار في غضب شديد من الألم الذي يشاهده بلا حراك عاجزًا:

- الغادرون.. يقصفون الآمنين في جوف الليل!، الخيانة تجري في دمائهم.

كانت الصواعق تسقط على الأرض فتهزها كما لو أنَّ زلزالاً قد ضرب القرية!

خرجت من الأرض سحابة سوداء، تحجب البصر، تخللتها بعض النيران في مشهد يرعب القلوب!

وفي مشهدٍ آخرَ، أُمٌّ تأخذ الماء لتخفف عن ولدها مرارة الألم، و تبكي، فالنار قد أحاطت بولدها فلا يد لها لتخترقها، ولكنَّها تبكي لعل دموعَها تُطفئ النار التي أمسكت به ولكن لا جدوى!

فباتت أجساد الناس حطبًا للنيران، والرصاصات المتتابعة زيتًا يزيد الحطب اشتعالاً، كأنَّ حياةً تُبعث من رحم الموت!

أخذ الجميع يشاهدون النار والحُطام، النساء يغلقن أفواههن بأياديهن، وعيونُهن دامعة، والرجال أصابتهم الصدمة مما يشاهدون، والجميع يتساءل، ماذا حدث لهذا الرجل؟ هل أصابه الجنون؟ أيقصف الناس؟ هل أصبح الكل عنده وجبة يجب أن يأكلها ويشرب من دمائها ليروي حكمه الجائر ولو على بقايا دولة؟!.. فقد كسر الطاغية كل القواعد، أطلق الطائرات، أصبح جنوده يأخذون من الناس أرواحهم، بعدما اعتادوا أن يسرقوا أموالهم بدعوة منه؟!

دمَّر كُل شيء، هل أصبحنا في اللاآدمية؟!

أطلق عمار صرخة من أعماقِ أعماقِ صدره ونادى:

- يا رب اغثنا!

أمسك به أمين، وقال له اصبر يا عمار:

- هذه عادة الطغيان.. في كل زمان ومكان يأبى أن ينتصر الحق مهما كانت الخسائر، لا ضير عنده في فعل أي شيء، حتى وإن قتل طير السماء!؛ فالرغبة في الملك تعمي القلوب قبل العيون، فكيف إن كان الغاصب طاغية لا دين له؟!، يأخذ أرض غيره بقوة جيشه، وطيبة أهلها؟!

لم يحزن يومًا على تفريق أحباب، أو استعباد أطفال أو حتى كسر الرجل وطعنه في أعزِّ ما يملك!

كاد عمار أن يبكي ولم يستطع أن يتحدث بكلمه، كان يشاهد بفزع لم يحدث له مثيل من قبل.

*****

بعدما هدأت العاصفة، وزال التراب، وغادرت الطائرتان بعدما قصفتا البلدة، تمنوا لو أنَّ التراب بقي، أو أن عيونهم سُلبت حتى لا يروا!

كانت جثث الأطفال مترامية في كل مكان، إما برصاصات قد اخترقت أجسادهم الصغيرة، أو محترقة بسبب النيران التي أكلتهم.

والأرض قد وارتها بقايا المنازل المتهدمة، فلا مكان لقدم!، وتحت الأنقاض أطفالٌ في عمر الزهور قد أصبحت الصخور لهم غطاءً، والموت كان رحمة لهم!

ونساء قد كانت بطونهن أمامهن ينتظرن في صبر خروج أول أبنائهن، ولكن ها هم أطفالهن الصغار قد خرجوا بعد صبر.. قِطعًا متفحمة من اللحم!

كان الموت يحيط بهم ويضرب من فوقهم، مات الكثيرون وكان يومًا داميًا، ولم ينجُ إلا من كُتبت له السلامةُ في ذلك اليوم.

بعدما طبب الأطباءُ -من بينهم عمار وأمين- الجرحى، وحملوا الموتى إلى قبورهم التي كانت أحن عليهم من الدنيا واتساعها، وصلَّوا على الموتى وَدَعَوا لهم بالمغفرة والجنات.

طار عمار بعينه في كلِّ لحظة على بيت قد تهدَّم من القصف، وقلبه في كلِّ مرة يخفق من هول ما ظن!

فإذا بالبيت ومن فيه نجا بلا إصابات، فعلى ما يبدو أنهم قد خرجوا عندما سمعوا صوت الطائرات في مقدمة الغارة وفروا منه!

فَحَمِدَ اللهَ على سِتْرِهِ.

في أثناء رعاية الجرحى، رأى عمارٌ يَمانًا تُطبب في جراح بعض النساء والأطفال، نظر إليها مبتسمًا؛ إذ لما رآها هدأ قليلاً.

ثم أخرج دفتره وكتب:

"ما فَزِعتُ يومًا مثلما فزعت اليوم، كان قاسيًا شديدًا علينا، كِدتُ أُجَنُّ مما حدث، حتى رأيتُها فهدأتُ.. إن من أَحَبَّ بصدق، فرؤية محبوبه ترسم على وجهه ابتسامة، حتى وإن لم يتكلم اللسان؛ فالقلوب في هذه اللحظات قد باحت بكل معاني السعادة، والكلمات مع الحب تقلل من قيمته، وعيون المحب أصدق من أي

شيء!".

- ما أخبارهم يا بُنَيَّتِي ؟

سمع عمار شيخًا يناديها، فنظر متعجبًا:

- إنه هو!

- من يا عمار؟

- إنه والد يمانٍ هو الشيخُ أسعدُ، صديق والدي من السجن!

أجابت هي:

- بخير جروحهم طفيفة يا أبي.

- حسنا يبدو أننا سنذهب إلى (سور)، فلم يعد هنا أمان.

ثم أخذ ينظر إلى الناس فرأى عمار.

- ما هذا، من هناك، هل هو عمار؟

ثم رفع صوته مناديًا عليه: "يا عمار".

نظر عمار إلى المنادِي فإذا به الشيخ أسعد، صمتَ لوهلة من الفرح والاندهاش قال في نفسه:

"إنه الشيخ أسعد، أيُعقل هذا؟!.. هل يكون والدها رفيقًا لأبي صديقًا له بعد كل هذا؟!".

قاطع حوارَه المكتوم صوت الشيخِ أسعدَ مناديًا له مجددًا:

ـــ ألستَ عمارًا؟

سأله الشيخ أسعد في سرور لما رآه:

- نعم يا عم، أنا عمار.

- كيف حالك يا ولدي؟

- بخير، الحمد لله

- ماذا تفعل هنا؟

- كنا نشارك مع الثوار لننقل الأخبار هناك للشيخ أحمد والمجموعة.

- حسنًا، هيا بنا نعود إلى هناك الآن.

***

وتجمع الجميع وانطلقوا نحو المدينة، كي يقيموا هناك ويخبروهم عن القصف، ووصلوا إلى المدينة، واتخذ اللاجئون خيامًا.

ثم ذهب الشيخ أسعد ومعه عمار إلى الشيخِ أحمدَ يخبرانه ما حصل، وكان معه رجلٌ آخرُ تبدو عليه ملامح القوة والجَلَدِ، عرَّفَهُما به:

- هذا القائد خالد، أحد قادة الجيش الذين فَرّوا من العاصمة، وسيكون من أعمدة جيشنا - إن شاء الله-.

رحبا به، ثم قص الشيخ أسعد عليهما ما حدث من قصف بالطائرات فأجابهما:

- لقد تكرر هذا الأمر في أكثرَ من بلدةٍ، وكلها تخرج من مطار بلدة (الدار)، اذهبوا للنوم الآن، وفي الصباح نقرر.

في الصباح وقف الشيخ أحمد وجمع الناس، ونادى فيهم:

- بعدما جُنَّ مرادٌ، أصبح واضحًا للجميع أن الحرب قد بدأت، اشتعلت الانتفاضة التي أراد مُشعلوها أن ينتصروا حتى وإن قابلوا الموتَ وإن هُددت حياتهم .

أدرِكوا أن الحياة مَحَطَّةٌ وأن الميتة واحدة، فإما أن تكون بكرامة ومنها تُبعث الحياة، وإما لا!، والحرية تؤخذ ولا توهب، لا تنمو إلا بتضحيات، ودماء، هي جزء من الحق.

والتاريخ قد عَلَّمَهُم أنَّ الحقَّ لا يأتي إلا بعدَ جِهادٍ طويلٍ ومشقة، وطريقه ليس مفروشًا بالورود، بل مليء بالأشواك.

والجميع هناك قرر أن يموت مِيتَةً شريفةً، لا خوف فيها من شيء؛ فالموت جنة والانتصار حرية.

فكما قال الشاعر:

مَا دَامَ مَوتُ الْمَرْءِ يَجْرِى خَلْفَهُ..   فَالْعَارُ؛ إِنْ عَاشَ الْحَيَاةَ ذَلِيلَا

يَرْضَى الْهَوَانَ يَظُنُّ فِيهِ نَجَاتَهُ..   حَتَّى يَخِرَّ مِنَ العَذَابِ قَتِيلَا

****

(١٢)

﴿أَمَــلٌ وَأَلَــمٌ﴾

عاد عمار إلى بيته، حاملاً فوق رأسه هموماً من كلِّ نوع، تلك المشاهد التي لم تخرج من تلافيف دماغه مُذ أرسلتها عيناه إلى ذاكرته.

قابلته أمه القلقة، لامَتهُ على ذَهابه خارج البلدة ومشاركته على عكس ما وعدها:

- لقد أخلفتَ وعدكَ يا عمار!

لم يستجب لها عمار بل تركها وذهب سريعًا إلى غرفته، وظل يحدث نفسه؛ غاضبًا من أمه التي تلومه كلما شارك في الحق.

لم تغب صور الموتى عن عينيه، وظل على حاله هذه حتى كاد يقتله الهم، فخرج من غرفته وذهب ليغتسل.

وبينما ينظر عمار لهذه القطرات التي تتساقط على جسده، تذكر القصف الذي سقط من السماء على أناس أبرياء.

لقد أحاط به الإجهاد، ثقيلاً مؤلماً يكاد يَدُكُّ الجبلَ إن حملَه، كان ألمه النفسي أشد وأقسى من الآلام التي غزت جسدَه المنهك.

تفكيره بهؤلاء الذين تم قتلهم بدم بارد، صور الضحايا التي شاهدها لم تغادر عينه، ذلك الطفل الذي حمله بين يديه ودماؤه تتناثر من رأسه المتفجر..

أخذ يبكي من شدة الألم!

وتساءل:

"لماذا يحْدُثُ كلُّ هذا، لماذا تتركه يظلم ويقتل فينا يا رب؟!"!

خانته نفسه من شدة الألم؛ لم يدرِ ما يقول لكنَّه سُرعانَ ما عاد مُستغفرًا من تلك الوسوسة الشيطانية وأجاب نفسه قائلاً:

"أليست الدنيا دار ابتلاءٍ لنا؟!، لا بُدَّ أن نُختَبَرَ؛ لنَميزَ الخبيثَ من الطيبِ، من سيسلَم من الفتن فيها، ليصل إلى بر الأمان، فيجازيه الله بالنجاة.. كم أحتاج إلى الراحة!".

ذهب إلى سريره ليستريح قليلاً، ترك جسده ينام قليلاً وأكمل حلقته مع الفكر، أخرج دفتره وكتب لعله يُخرج ما حوى قلبُه من وجع:

"لم يعد في قلبي إلَّا أمران لا ثالثَ لهما، ألَّا أفقدَ الوطنَين في آنٍ واحدٍ!، وطني الذي نشأتُ فيه وسلبه الخونة رغمًا عن أهله سنينًا، جعلوا من أبنائه أضاحيَّ له، يذبحونها وقتما يشاءون، ووطني الذي لطالما حَلُمْتُ به؛ فوطن الرجل في حب ينمو وينتهي بزيجة تُنسيه غربةَ الماضي، فماذا إن كان وطنه هذا جميلاً حدَّ سرقة القلوب؟!".

***

أخذ عمار يدور في هذه الحلقة المغلقة من الأفكار، تصفعه تارة فتطيح به، وأخرى تهدأ، قاطعتْ أمه حبلَ أفكاره المهلك عندما طرقت باب غرفته:

- هل أنت بخير يا عمار؟

أجابها بفتور:

- نعم.

رُغم سُخطِها إلا أنها كانت رقيقة لم تستطع أن تتركه على حاله؛ فقد رأى الموت بعينيه وكاد أن يهلك مع الهالكين.

فدخلت غرفتَه وطبعت قُبلةً على جبينه وقالت:

- أراح الله قلبكَ يا ولدي.

خرجت وأغلقت باب غرفته، ثم أكمل عمار تساؤلاته..

"ما الذي أستطيع فعلُه لوطني الجريح؟، كيف سأقتصُّ لهؤلاء الشهداء؟، نار الغضب اشتعلت في صدري، أريد أن أنتقم من ذلك الغادر، الذي جعل الطفل في يَدَيَّ جثةً متهالكة، ولكن لا أستطيع.

وهذه الفتاة التي أسرت قلبي واشتعل شوقي لها، كل مشاعري تميل إلى الحديث إليها، وكلُّ مبادئي تقول لي لا!..

أصبح الصراع في عقلي مُميتا قاسيًا، كأنَّه جنديٌّ غاضب في ساحة الحرب وعدوه فيها قلبي.. تكاد هذه الاضطرابات أن تُذهب عقلي، وتـ....

ـــأيمكنني الدخول يا عمار؟

طرق ياسر الباب، فكان قاربًا قد جاء وسط العاصفة لينتشل عمارًا الغريق من بحر هذه الظنون المميتة.

- نعم.. تفضل يا أبي.

دخل ياسر وجلس بجواره عمار ثم سأله:

- قالت لي أمك أنك مهموم، ماذا بك يا ولدي؟

- ما رأيتُه اليوم كان مُهلِكًا بشعًا جعلني مُضطربًا، كل ما في قلبي يتمنى قتل ذلك القاتل، ولكن لا أستطيع.

- لقد أخبرناك ألا تخرج يا عمار، أمك لن تتحمل فراقَك وكذلك أنا.

لم يعلق عمار على أبيه من الهم.

- حسنًا.. استرح يا ولدي، وكل شيءٍ سيكون على ما يُرامُ -بإذن الله-.

- حاضر.

وقف ياسر وكاد أن يرحل.. فناداه على استحياء:

- أبي، أريد أن أستشيرَكَ في أمر.

- بالطبع يا عمار، ماذا هناك؟

تنهد عمار ثم قال:

- إذا التهبت مشاعرنا حد الاحتراق وتلعثمتْ ألسنتُنا من حرارة الاشتياق.. ففي أي شيءٍ يكون التسكين؟

تبسم ياسر لعمار وفَهِمَ ما به، لكنه قال بنبرة رقيقة:

- على رِسْلِكَ يا ولد.. لا تكن أديبًا على أبيك، قل لي ببساطة.

- في الحقيقة أنا أحب فتاةً بشدة يا أبي، ولكني لم أستطع فعل شيء، فقل لي كيف العفاف واللقاء معًا؟!

ذهب ياسر وجلس جوار ولده مجددًا، ثم وضع يده على ظهره وقال له ما أراح قلبه:

- اعلم يا عمار أن الحب لم يكن ذنبًا، ولكن ما يفعله الناس بدعوى الحب هو ما شوهه،

ولكن كتمانك يا ولدي برغم لوعة الشوق كان صوابًا، فالحب كالنبتة في الأرض، إن صبرتَ عليها بالعفة نَمَتْ، وإن استعجلتَها بحديث مسترق أو بوح في غير موضعه قتلتها، فاستخر ربك، واستفت قلبك وتوكل على الله وإنَّا إن شاء الله معك فيمن اخترتَ.

- حقا؟

- نعم يا عمار؛ فالظلم كله أن نقتل قلبًا أحب بصدق، والقلوب ما كانت أبدًا طوعًا لأصاحبها.

ابتسم عمار وتنفس الصعداء، ثم احتضن أبيه وقبل رأسه:

- أنت فَرَجِي في كل كرب.

داعبه ياسر حتى يُريح قلبه.

- حسنًا.. تعالَ نجلس تحت ضوء القمر وحدثني عنها.

دخلا الشرفة، وجلس كل منهما على كرسي يقابل كرسي صاحبه:

- إنها أبنة الشيخ أسعد يا أبي.

- أسعد؟!.. صاحبي؟!

- نعم يا أبي هو.

- أبشر يا عمار.. فقد سَهُلَ كل شيء هكذا، سنخطِبها لك لا تقلق، ماذا جذبك بها إذَن؟

- آه من جمالها يا أبي.. لما رأيتُها صدفة تسير، أَسَرَتْ قلبي، لا أدري كيف حدث ولا لماذا، فقط كأنها ألقت عليَّ تعويذة سحرت قلبي، وشقت صدري واستولت على ما به من قلب.. تابعتُها بعد ذلك، فوجدتُها وقورًا هادئةً لا تتحدث إلا لحاجة ،عفيفة في نظراتها، حَيِيَّة في صوتها، كأنها حورية جاءت من السماء!

- جعلتَني مشتاقاً لرؤيتها يا عمار.

- وأنا أيضاً يا أبا عمار.

قهقه ياسر لكلمة ولده، وأخذا يتحدثان هذه الليلة طويلاً، وبعد حديث هانئ ذهب عمار لنومه، وأخذ يغط في نوم عميق.

في اليوم التالي، لم تخلُ المدن من مظاهرة هنا، ولاجئين في خيامهم هناك، وفي نهاية اليوم جلس عمار مع أمين وقال له:

- لقد حدثتُ أبي يا أمين.

- وماذا قال لك؟

- رحب بحديثي، وأخبرني أنه سيأتي معي.

- ما شاء الله، يسر الله لك كل خير.

***

في هذه الليلة، تم تكليف عمار وأمين للحراسة، كانت ليلة ممطرة من ليالي النصف، يَطلُّ البدر بين حين وآخر من بين الغيوم في على الدنيا بصورته الآسرة وكأنه حسناء تطل على الحي من شرفات منزلها.

نظر عمار إلى القمر مُتَذَكِّرًا كل ما كان من رسائل العُشّاق، ثم حدثه بعينه فسخر منه البدر وقال:

- أتذكر عندما وقفتَ تحت ضوئي ساحرًا من العاشِقِين؟!، ها أنتَ ذا واحدٌ منهم الآن، أنين قلبك يتصاعد فأسمعه عندي كما تسمع أنت أنين العاشقين في أمطار الشتاء المتساقطة بعدما

فرّت هنا من عيونهم!

وكلُّ ما تعانيه الآن جزء واحد مما في نفوسهم، التي فقدت وحارت ولم تجد سبيلاً للوصل،

أراك كالشاعر الذي قال حزينًا:

كُلُّ الأَحِبَّةِ.. طُولُ الْبَينِ يَقْتُلُهُمْ، فَاجْمَعْ إِلَهِي مَنْ بِالشَّوقِ يَحْتَرِقُ!

- أتعاتبني أيها القمر على طهارتي؟!.. سأظل على عهدي فعشقي لها كان قبل أن ألقاها، وضعتُ صورةً منها في صدري وأخذتُ أحبها ولا أدري أتأتي أم لا!، وهكذا الحب.. روحان تعرفان بعضهما قبل اللقاء، نقص في صدر كل واحد منهما ويكتمل بما في صدر الآخر، يعرفان بعضهما وإن طالت المسافات.

ولما رأتها عيني انتفضت روحي وقالت: "هذه هي!"!، فازداد عشقي، أليس عشقُ العيون متممًا لعشق القلوب؟!، يُزَيِّنُهُ ويجعل أزهارَه تُثمر فيتحول القلب إلى جنات من النعيم نهايتها الوصل.

وتجمَّع حديث القمر الساخر، وبكاء السماء الصاخب، ومشاعر عمار المضطربة، كأنهم جنود في حرب ضروس، الكل فيها متحالف، ولا عدو إلا قلبه، ولم تكن غايتهم فيها قتل قلبه، بل تعذيبه حتى يخطئ!

***

وبينما عمار في هذه الدوامة يغرق، وضع أحدهم يده على كتفه وقال:

- ما لي أراك في لوعة مستمرة يا عمار؟

- ماذا؟!.. سالم!

- نعم أنا.

- ماذا تفعل هنا؟

تفاجأ عمار لوجوده في ميدان الثورة؛ كيف له أن يكون معهم مُضَحِّيًا، وهو مِن أبناء العاصمة؟! وقال في نفسه: "لعلَّ الله هداه!".

- أنا أشارك في الثورة.

- حقًّا؟.. أأنت معنا؟

- بالطبع، أأرى طريقًا للحق ولا أسير فيه؟!

- إذًا أين كنتَ في بداية الدراسة؟

- مرضت أمي مرضًا شديدًا فاضطررتُ إلى البقاء معها، ثم حدث ما حدث وماتت كمدًا.

- البقاء لله.

- الآن لا أحد لي، فلم لا أموت مدافعًا عن الحق.

- لقد تغيرتَ حقًّا يا سالم!

- ومالي لا أتغير يا عمار؟!، إن مَن فقد عزيزًا على قلبه، فالحياة.. كل الحياة تهون عليه بعدها.

- صدقتَ.

كان الوقت قد تأخر حتى نادى الفجر، فاستأذن عمار من سالم، ليتوضأ قبل الفجر، أن يقف مكانه.

وبينما هو في الطريق إلى منزلهم، وجد نارًا تضيء في خيمة آل أسعد ينتشر ضوؤها في هذا الليل!

حاول عمار أن يرمي عينيه داخل الخيمة، حاول أن يسرق بعض الجَمَال، كما يسرق المارد

السمع من السماء فإذا بالصاعقة تسقط على رأسه.

ها قد احترق كما احترق المارد، أتبعه هناك شهاب ثاقب، وهي قد ألقت عليه بكلماتها شهاب حارق..

"الله أكبر.. اللهم انتقم من القاتلين، وانصر الثائرين، اللهم احفظ قلبي وارزقني العفاف، اللهم ردَّ إلينا الوطن"

- يا يمان، تعالي يا ابنتي.

***

استسلمت عيون عمار للخجل.. رجف الجسد وقال العقل للقلب: "أما آن الأوان لعودة بلا غفلة يا أيها القلب الأعوج؟!"!

وعاد في صمت حاملاً صوتَها الرقيق، ودعاءها العذب، وأخرج دفتره الصغير وأخذ يسطر كعادته، لكن هذه المرة ليمان:

"علمتُ الآن أنَّ اعوجاج المرأة الذي نتغنى به أصله كان من ضلع الرجل، فضلعه قد حوى قلبًا فاسدًا تحركه شهوته!..

الآن زال عجبي حينما تساءلتُ كيف خرجوا من الغارات والناس نيام، فقد كانت واقفة لله تصلي، تدعوه، فنجاها بمعيته.. علمتُ الآن أنَّ الله لا يضيِّع أبدًا من توكل عليه، صلاة في جوف الليل نجَّتهم من قصف غاشم غير معلوم، ومن قلبٍ جاء كالذئب الجائع ليسرق قَبَسًا من نور وجهها.

علمتُ كيف سيكون الوصل الذي دعا به الشاعر، والذي أنشده والدي، هذه هي الإشارة في الطريق تدلني نحو الصواب، وتناديني بكلِّ رقة، وأنا أجيب عليها في ندمٍ يخالطه الهناء.

سأعود إليك يا يمان، ستكون المسافات الطويلة بيننا قريبة بصلة الدعاء، فكما يدري كل من جرَّب الحب أن من أحب، روحه من روح حبيبه، كأنَّ قلبَيهما قد خرجا من صدر واحد وتفرقا ليجتمعا من جديد!

ولكني سأجعل من حبي سُلَّمًا من العفة أرتقي به إلى السماء لأفوز بكِ عندما يكتمل الحب بحلاوة الزواج وجمال الطهارة والعفة!

وعهدي إليكِ الآن أرسله مع النجوم لتكونين نوري في كلِّ ليلة، أني سأستوي ولن أجعل في قلبي مزيدًا من الاعوجاج!

سأسير إليكِ وفي قلبي كلمات لن ينساها أبدًا: **"وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِـرْتَ"**، وسأحقق لكِ مرادَك وسيكون مهرُكِ الوطن، واشهدي على قولي أيتها النجوم الطاهرة".

***

ثم عاد فتوضأ وصلى الفجر، ثم سلَّم الحراسة لمن يليه وعاد لينام نومًا هانئًا، عندما استيقظ، اتفق مع أبيه على زيارة الشيخ أسعد بعد العشاء وطلب يمانًا لولده منه.

ثم قرر أن يكتب رسالة لها، وجلس يكتب أول ما يكتبه لها ليكون هديته الأولى عند اللقاء.

وعند العصر اجتمع عمار بصديقه أمين، والتحق بهم سالم.

- ماذا؟!.. سالم!

تفاجأ أمين لوجوده معهم، كما تفاجأ عمار.

- نعم.. سالم.

- والله أسعدتني رؤيتك هنا في الميدان.

- أشكرك يا أمين، كان لك ولعمار الفضل بعد اللهِ فيما أصبحت.

- لم نفعل شيئًا يا فتى.

أجابه عمار، ثم تابع:

- المهم سأخبركما شيء، سأكتب لها رسالة قبل أن أذهب إليها مع والدي بعد العشاء، وإن وافقت سأهديها مصارحتي.

- أخيرًا، لقد أتعبتَني معك!

ضحك الثلاثة بعدها وهدأ قلب عمار.

قاطعهم القائد خالد وقال:

- اجتمعوا يا ثوار، هناك قرار هام لكم ويجب أن تنصتوا..

سنبدأ بإذن الله تحريك جيش وسنهجم على المطار الذي هجم على القرية في الغد ليلا، ليستعدَّ منكم من سيذهب معنا للحرب، جددوا نياتكم

- استعِدًّا لنذهب ونعود بالوطن.

- حسنًا يا عمار، لنجدد النوايا.

- سأذهب الآن لأودِّع أبواي، وأطلب منهما أن نذهب ليمان، فأبي لن يستطيع الخروج لأن أمي ستلد قريبًا.

- كُن بخير وأحسن القول لهما.

- حسنًا.

ثم ودعه وذهب.

***

وصل إلى البيت، قابلته سمية وسألته عن حاله، فحمد الله، طلب منها ومن أبيه أن يجتمعا:

جلس الوالدان ووقف عمار أمامهما ثم قال:

- بالغد سأتحرك في مسيرة الجيش نحو الحرية، أرجوكما لا تغضبا مني ولا تمنعاني، فإما النصر، وإما الموت.

ظَلَّ عمار مترقبًا ردتهما في توجس شديد.

فقامت سميةُ من المجلس ولم تعلق عليه، فقط قامت غاضبة منه.

ثم قال له ياسر بنبرة جادة:

- هل أنت عازم على ذلك يا عمار؟

- نعم يا أبي.

لم يستطع الوالد أن يقول له أمرًا آخرَ، فقال له: "كن بخير"، واحتضنه.

بعد قليل سأله عمار عن أمر يمان وخِطبته، فقال له:

- تعال نخبر أمكَ علها تفرح بذلك، دخلا الغرفة وقال لها ياسر:

- سنذهب لخطبة يمان لعمار اليوم.

تعجبت سمية من قوله:

- ماذا؟!، لم تخبراني من قبل.

- عذرا يا أمي، علمتُ فقط أمس أنها ابنة الشيخ أسعد صاحب أبي.

- حسنا ومن يمان هذه إذن؟!

- إنها ابنة الشيخ أسعد يا سمية، كان أسيرًا معي من قرية مجاورة لنا.

ردت عليهما ببرود لم تستطع أن تخفيه، كانت ما زالت غاضبة من عمار الذي تمرد عليها ولم يرد أن يستمع إليها:

- حسنًا!

لاحظ عمار غضب أمه فجلس على ركبتيه أمامها وقال له بوجه كله رجاء:

- آسف يا أمي، أعلم أنك غاضبة، ولكن هذا ما تعلمتُه، لا أستطيع أن أمنع نفسي عن نُصرة الحق.

وضعت سمية كفيها على خدي عمار ودمعت.. ولم تعلق.

- ستظلين أثمن النعم التي أكرمنا الله بها.

قَبَّل رأسها ثم خرج منتظرًا أبيه.

جلس ياسر جوار زوجته وحاول أن يخفف عنها، وقال لها لا تجعليه يخرج وأنت ساخطة عليه، هكذا لن يكون مطمئنًا.

نظرت إليه سمية وحاولت أن تمنع حزنها، وقالت له حسنًا وارتمت بين أحضانه.

ثم خرجا إلى عمار، واجتمعوا جميعًا في حضن واحد، ليعلنوا للعالم، أنَّ الفرحة التي في بيتهم لا يمكن أن يقطعها شيء.

ثم قال ياسر لعمار أنهم سيذهبون بعد صلاة العشاء إلى الشيخ أسعد.

كان عمار أسعد إنسان في هذه اللحظات، فهو سيخرج أخيرًا وأمه لن تمنعه، وسيذهب أخيرًا إلى يمان!

استعد عمار ثم جلس ينتظر حتى تحين صلاة المغرب ليصلي ثم يجلس مع أمين حتى تحين العشاء ويقابل والديه ليذهبوا جميعًا.

***

ما زال الفرح يتدفق في عرق عمار ممتزجًا بالمهابة، كأنَّه في آخر ليلة من ليالي الامتحانات، فلا يدري أيفرح لقدوم الراحة بعد طول التعب، أم يهاب الامتحان والفشل؟!

جلس على كرسي في شرفته يشاهد آخر أضواء النهار من حوله، يرى جمال الكون، يتخيل سعادة الأيام في الغد مع يمان، كيف سيكون اللقاء الأول بينهما يا ترى، والسعادة تجري في عروقه، كما يجري الدم!

ثم دخل إلى غرفته.. أخرج الورقة والقلم، وبدأ يقرأ ما كتبه إلى يمان، تنهد في أمل وقال بصوت رقيق:

بسم اللهِ الرحمن الرحيم..

إلى يمانٍ ..

في إحدى الليالي المقمرة، بينما أتأمل جمال السماء، التي تبدو كعروس ترتدي على عنقها قلادة من الزمرد، حباتها من النجوم المتلألئة، تنتهي بجوهرة في هيئة البدر..

سقطت واحدة من هذه النجوم النقية على عيني تداعبها من دون أن تدري، وكانت هذه النجمة أكثرهم جمالاً، وأكثرهم ضوءً، وأعلاهم قدرًا، فلها ضوءٌ قد جعل أشدَّ ليالي الصيف نهارًا، فكيف لها بشعاعها الثاقب ألا يضيء قلبي الذي تاه كثيرًا في الظلمات ؟!

كانت الدُّرَّة التي تمشي في وسط الجامعة فلا أهنأُ بها إلا باختلاس النظرات، ولا قوة لي في أن ألمسها، رغم أني من وجدها ورأى سطوعها السرمدي، فقد حُرّمت الزينةُ على الرجال!..

فعزمتُ حينها أن أتمسك بها، أن أحصّنَها من كل عين أخرى، فتحتُ قلبي ووضعتُها به، ترتع فيه كيفما تشاء، تأخذ من حياتي إن أرادت؛ فقد جعلتُه لها.

هذه كانت أنتِ، يوم فتحتُ قلبي بعدما حرمتُه على الكثيرات، قد جذبت الصفات التي وضعتُها به صورتَها، ليكتمل الحب بداخله.

ويوم اجتمعنا، سرقنا لحظة من الزمن توقف عندها، لم أنسَ قط صوت ضحكتك التي طلعت، فخلعت قلبي حتى لامس السماء!..

كنتِ حورية في عيني لا أرى لها مثيلًا، فازداد ما في قلبي اضطرامًا.

ولما حَرَمَت الحربُ قلبًا أحب من رؤية حبيبه سقطت من جديد على وجهي في ساحة النضال، وبعدما عادت الفرصة وعلمتُ أن طريقَ العفة أسلم طريق، كتبتُ ما في القلب من مشاعرَ على سطور من الورق، وعزمتُ أن أقدمه لك عندما آتي مع أبي -إن شاء الله-، أَطْرِقُ البابَ، وأَطلبُ القلبَ، وأَهنأُ بالسرور بعد أن يتم القَبول..

ومهرك سيكون عودتي بعد انتهاء الحرب، منتصرًا آتيًا بالوطن الذي تحلُمين به، أو أن تأتيك جثتي الهامدة تتبسم لكِ عندما تنظر إلى وجهك الجميل على السماء ساعة الموت!.. فحينها سأكونُ قريبًا منك!

وعهدي إليكِ أن تكوني بِرَغْمِ الْبُعْدَ حَاضِرَةً، فكم من قلب قد عاش على ذكرى وصوت أما صوتكِ فقد كان مُصلِحًا لقلبي عند فساده، قد كان في دعوة بعودة الوطن لأعود إليك، فأنت وطني قبل الوطن الذي تمنيتُه!

فإمَّا سعيدٌ آتي بالمهر لأفوز بالجنة جنة الدنيا، وإما إلى الجنة الآخرة حيث الموت، وأبتعد عن حياةٍ غابت فيها الجنة!"

ثم أغلق الخطاب مع نداء المؤذن للمغرب، فتحفز واستعد بجميل الثياب، ثم أخبر والده أنه سيذهب إلى أمين وسيلقاه عند صلاة العشاء.

ذهب قبل الصلاة إلى صاحبه أمين:

- هذه أول رسائلي إليها، وقرأها عليه.

فقال:

- أعاد الله وطننا إلينا، وأعاد وطنكَ إليك.. وابتسم.

وذهبا إلى الصلاة، في مسجد صغير يبعد عن بيته قليلاً، كان الإمام ينادي وهما متأخران،

فَلَحِقَا الصفوف المتأخرة، أصبح قلب عمار يخفق من الفرح والأمل، "الله أكبر" عَلَتْ.. الفاتحة تُذَكِّرُهُ بما سيكون اليوم؛ فبداية الخِطبة فاتحة، يتلو الإمام الآيات، صوته يريح القلوب، وكأنَّ القدر يقول له اهدأ، والآيات تعلو في السماء:

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ سورة الروم: ٢١

***

أنهى الإمام الآيات وتعلو الآية في رأسه، يعلن بعدها تكبيرة الركوع، ويسبح الجميع بعظمة الله، سمع الله لمن حَمـــ..

لكن كل شيء ذهب!

ما هذا الصوت، طائرات جاءت و قصفت البلدة بشدة.

وجد عمار نفسه ملقى على ظهره، ويسمع طشاش صوت مرعب يتسرب إلى أذنه والضوء حوله في كل مكان..

قصفًا شديدًا كالذي كان بالأمس القريب، أصبح الصوت مرعبًا، صوت طائرات تقصف، وصُراخ ينتشر من أفواه المرعوبين، فهذه صرخة أمٌّ تجري وتقول في صوت مجروح: "ولدي"، وهذا ينادي: "أبي"، وتلك التي تبكي بصوت يكاد يمزق أوصال القلب، وينزع الضلوع، أو يعلو إلى السماء فيسكت صوت الطائرة المدوي.

مرَّت الطائرتان سريعًا، فوقف وجرى، فرأى الصورة أصبحت أشلاءً تتطاير، وأشجار تحترق، تجدد المشهد من جديد..

ولد يسقط على بطنه من رصاصة أتته من الظهر، هذه اللوحة الخضراء الممتزجة بسماء صافية في البلدة، جاءها مفسد، كره الجَمَالَ فأضاف عليها اللون الأحمر الذي امتزج بكل نقطة في الصورة، فأصبحت فاسدةً مؤلمةً، تدل على موت الحياة!

نادى القائد خالد بعدما عبرت الطائرتان في مذياع المسجد الكبير، وأمر بجمع الجرحى ونادي بصوت يخترق تلك الضوضاء أن تعالوا إلى المسجد هناك لتحتموا به.

يتفحص عمار المشهد في ذهول، الدماء في كلِّ مكان، بيوت هُدِّمَت، والجميع يجري من الخوف، النيران تأكل في كل عشب، وكل شجرة، وكل جمال للبلدة.

❋❋❋❋❋

وبعدما مرت العاصفة، أقام بعض الأطباء مكانًا لعلاج المصابين، ليهتموا بالجرحى ويطهران الجروح، انضم إليهم وأخذ يطببهم، وحُمِلَ إلى المكان الصغير الذي كان هو وأيمن فيه، جسدان متهالكان..

صمت عمار وجحظت عيناه، أنكر ما يرى، وصرخات قلبه تتعالى ولكن في صمت، أصبح الكون قاتماً، ليل بهيم أصاب شروق أمله، أصاب قلبه، ثم انفجر بصوت شق السماء:

- أمي، أبي، أجيباااااااني!

- أنا أعتذر لك يا ولدي؛ فقد كانت حياتي معك قصيرة.

- لا تقل ذلك يا أبي، ستعيش.

أخذ يضرب على صدره، ويساعده بكلِّ ما أوتي من قوة!

- كُنْ دوماً كما أنتَ، وحرر الوطن يا ولدي.

- عمـ ... ا ر!

سمية تنادي بصوت متقطع.

- نعم يا أمي، بالله عليك لا تذهبي!

ودموعه تهطل على وجهها.

- لا بأس يا ولدي، أعتذر لك، فقد كان ذلك يوم خِطبتك، تعالَ لأقبلك مرةً أخيرةً.

- أمي، أبي.. لا تذهبا.

وماتا على يديَه، فأخذ يصرخ:

- لا.. أمي ردي عليَّ، أجبني يا أبي، بالله عليكما لا تذهبا، أنتما لم تموتا بعد أنا أعلم بذلك!

أصبحت مقلتاه كسحابة، عصفت بها الرياح في ليلة من ليالي الشتاء القارس، فذابت وسقطت الأمطار منها، كما سقطت الدموع من عينه، على صوت الرعد معها كما على نحيبه الذي يقطع وَوَلْوَلَتِهِ..

لم يعد يدرك أنه هنا، توقفت كل مشاعره، وهاجت كل معاني الألم، البكاء الآن لم يتوقف، ولم يعد يعلم أين هو؛ فإن روحه قد ضاعت كما تحمل الريح معها ريشة طائر حيث تشاء، لم يعد له رغبة في الحياة ولا طاقة، كما لتلك الريشة، التي تذروها الذاريات!

وأخذ يصرخ قائلاً بصوت قد تعب: "أمي.. أبي!"!

وقال في نفسه وهو يحتضنهما معًا ويبكي على صدريهما:

"قد خرجت من قلبي كل معاني الأمل في الحياة، على ماذا سأبتسم؟!، ولِمَ سأحيى؟!، إن كان كل ما لي في حياتي قد ذهب!..

لم تكد كلماتي أن تصل إلى آذانهم بعد، كنت أداعبهما، وأخبرهم أنني سأعود بالوطن

أو أسبقهما إلى الجنة والآن، قد ذهبا ولم يودعاني، لم تحتضنني أمي، ولم يحتضني أبي!، فيا لقسوة الوجع ويا لمرارة الألم!"!

شاهده أمين وحاول أن يحمله عنهما ولكنه فشل، فبكى خلفه وقال في نفسه الحزينة:

"وكأنَّ طبع الغادرين دومًا أن يسرقوا قلوب الناس وأحلامهم، يأبون للأرض أن تُعمَّر ولو حتى بهم، فهم لا يستنشقون الهواء كباقي البشر، ولكن يهوون رائحة الدماء الآتية مع الغدر!..

كما قتلوا العظماء من قبل في صلاتهم، ضربوا الضعفاء اليوم في ركوعهم"!

وحاول أن يساند عمار مجددًا ولكنه أبعده بذراعة وظل ممسكًا بهم وقال في نفسه:

"الآن رآني الجميع أبكي كثيرًا، وأصمتُ طويلًا!"!

ثم لم يَبُح بشيء، فقط نظر إلى وجهَيهما، وقال بصوت رخيم تقطعه دموع الحسرة:

"جهزتُ الخطاب يا أبي، أما زلتِ غاضبة يا أمي؟.. والله كنتُ أفاجِئُكِ!"! والدموع تنهمر على ورقته وأمين ينظر ويبكي، فجلس خلفه واحتضنه، ووضع يده على كتفه وقال:

- اصبر يا عمار، أَوَلَسْتَ من قال لهما اليوم: "سأسبقكما إلى الجنة"!، أو لست مَن علَّمنا أنَّ للتضحية أثمانًا وأثمانًا، وقلتَ أنَّ في دماء الصادقين إنماء الزهرة النقية التي نسعى لها؟!، ألستَ من قال -لمن فقد الأمل في الحياة، ونزل بساحات اليأس بأيادٍ مكبلة فيكون لها فريسة-:

قُلْ لِلَّذِى عَاشَ الْحَياةَ بِلَا أَمَلْ:
أُطْرُدْ هُمُومَكَ يَا بَطلْ،
لَا تَنْتَظِرْ..
مَهْمَا تَزَايَدَ كَرْبُنَا،
وَتَكَالَبَتْ أَحْزَانُنَا
حَدَّ الْخَطَرْ،
هَوِّنْ عَلَيكَ؛ فَرَبُّنَا
خَلَقَ الْبَشَرْ،
كُتِبَ الْقَدَرْ،
وَالْخَيرُ يَأْتِي مِثْلَمَا جَاءَ الضَّرَرْ
فَلْتَصْطَبِرْ؛
إِنَّ الْحَيَاةَ دَوَائِرٌ
يَومًا بِلَا مَاءٍ بِهَا!،
أو يومَ تُكْرَمُ بِالْمَطَرْ
يَومًا تَرَى ظِلَّ الْحَبِيبِ مُفَارِقًا،
مِنْ ثَمَّ تَفْرَحُ بِالنَّظَرْ،
فَلْتَصْطَبِرْ.

فاصبرْ يا صديقي، وأخذه بين ذراعيه.. وبكيا معًا!

*****

لم يكن في رأس عمار حينها، إلا أمران والداه وذكرياتهما، والتفكير في حال يمان، هل هي بخير أم أنَّ ضربات القصف الغاشم قدْ سرقتها؟!

ثم نظر إلى أمِّه وقال بوجه شاحب عابس كأنه خرج من قبرٍ وقال:

- ألن تضميني يا أمي؟!

فبكى الجميع لحاله.

أخذوا عمارًا بعيدًا عنهما حتى يُعِدوهما للدفن، وجلس الفتى في خيمة بعدما تهدم بيتُه، بجانبه أمين، ولكنه في عالم لا يرى فيه أحد، يضم قدمَيه إلى صدره، ويشاهد الذكريات التي جرت في رأسه كجري الدموع التي لم تتوقف على خده، حياته مع أمه مرت كاملة في لحظة واحدة..

وناداها:

- أمي الطيبة..

تذكرتُها عندما كانت تعود معي في طفولتي طفلة تلهو وتلعب، نغني سويًّا أجمل الأغاني بطفولية وعفوية، نلعبُ ونجري، ذكرى يديها عندما تدغدغني ما زالت على جَسدي!

تذكرتُ أنها كانت لي في كلِّ مرض دوائي، كان دواؤها من نوعٍ آخرَ، تتمنى أن تنزِع المرض بيدَيها من جسدي الضعيف وتضعه في قلبها وأُشفَى أنا!..

كانت مُضَحِيَّةً حنونة، أمي هي الشيء الوحيد الذي يتلعثم قلبي عندما يذكرها وهي بيننا حيةً وأسمع ضربات قلبِها، فكيف بعدما ذهبتْ؟!

أراها عندما أشتكي مصائب الدنيا، وأبكي فأرى يدًا خرجت من عينها عندما نظرت بكلِّ الحنانِ، تقول لي: "لا تخف!"..

عندما تضيق الدنيا بصدري، فيتسع كلُّ شيء عندما تأخذني بين يديها في حضنها وتقول لي مهما ضاقت الدنيا؛ ففي حضني يكون اتساعها!..

الآن جفَّ الدمعُ، وَمَرِضَ الجسمُ، من يا أمي يا تُرى يطبِّبُني بعدكِ؟!..

من يا أمي لي ألوذ به من الضباعِ التي تحوم؟!..

أبي..

الحصن المنيع الذي ألوذُ به من كلِّ عدو، لم أستمتع بصُحبتي له بعد!..

أبي مظلتي التي تحميني من كلِّ سَوطٍ كان يضربني، أبي الذي كان صرحًا مُمَهَّدًا من النصائحِ النقية والآمال العالية!..

كيف الحياة بعدكما يا ترى؟!، شريط الحياة يمر، فيَزيدُ في الصدر مرارةً تجعل العسل علقمًا مُرًّا لا أستسيغه!..

طفولة ولعب، أمل تلاشى وحلم ضاع، وكآبة أضحت كُرِّيَّات في دمي، وخلايا تعيش على جسدي!، ذهب الجميع ليستريح بعدما تعب، حتى القمر ذهب!.. إلا أنا، يا ليت الموت يخطفني!

بعد ساعات جُمع الناس، وصلوا على الموتى جميعًا، ثم دفنوهم، وعمار في كل ذلك بين الحزن والتكذيب في صمت مطبق لا يقوى على الحديث، ولكنه بكى بحرقة شديدة عندما وُضع أبواه في التراب.

بعد ذلك عاد عمار مع أمين إلى الخيمة، وظل معه حتى نام.

***

عندما أشرقَ الصباح وأوشك الظهر، كان عمار ما زال نائمًا، حينها رق أمين لحال صاحبه الذي لم ينم طوال الليل، فلم يوقظه وتركه، ثم قرر أن يذهب إلى الشيخ أسعدَ بعد الصلاة ويخبره بأمر عمار وما كان ياسر قد قرر فعله.

فأخذ خطابه وذهب إلى الشيخ أسعد الذي أصيبتْ قدمَه من القصف فبُترت، وطلب منه يمانًا لصاحبه، حزن الشيخ أسعد على حال عمار وبكى فراق صاحبه بحرقة وترحم عليه، ثم وافق على الفور لما يعرفه عن ياسر وولده، ثم قص على يمان الحكاية..

وافقت يمان، وحزنت على عمار حزنًا شديدًا، ولكنها سعدت بلقائه بوصل بالحب الذي كُتب له اللقاءُ بالأمل.

قالت لوالدها:

- أرسل مع صديقه تلك الورقة، وكتبت بها..

"لا تحزن يا عمار، عد بالوطن ذلك مهري وأنا أنتظرك مهما طال الزمن، ولا تحزن فأنا أحبك مذ رأيتُكَ أول مرة، ليس البوحُ عليَّ يسيرًا ولكنكَ جزء من روحي، رحم الله أبويك، ولكني عهدتُك قويًّا.. كن قويًّا كما أنتَ وَعُد لي، سأنتظركَ".

فأعطاه الورقة والموافقة، ولم يستطع الذهاب مع أمين لعمار حتى يبشره بسبب إصابته. ثم أكل معهم وعاد بعد صلاة العصر إلى عمار.

واستيقظت عمار قبل ذلك لم يأكل ولم يخرج من الخيمة، ولم يتحدث إلى أحد، حتى صلى العصر وسمع القائد خالد ينادي بطلب من سيخرج مع الجيش الذي سيتحرك مساءً،

وبدأ باستقبال القادمين في جوار المسجد الكبير ويشرح للبعض الخطط البسيطة حتى يتحركون مساءً.

***

فذهب عمار وعزم ألا يعود إلا وقد ثأر لأبويه، ولم يكن في قلبه إلا السؤال:

"أينَ أبواه، وأين يمان؟!.. هل سَتَتَنَزَّلُ الرَّحماتُ على قلبٍ تكالبت الكروب عليه، أم أنها عادة الأيام تأتي بكلِّ الهموم مرة واحدة حتى لا يبقى للقلب إلا بقاياه؟!"!

يومٌ قد تَرَكَ في قلوب الجميع جُرحًا لا يندَمِل أبدًا مهما مرت عليه الأيام.

مات الشيوخ جميعًا ولم يبق إلا القائد خالد، فأخذ يرتب الجيش الجديد، ويُعِدُّ الخطط.

ولم يجد خطابَه معه! ، فقال في أسى:

- حتى أملي ضاع؟!، يا لسوء الحظ!، فقد مات حِصني وضاعت دعوتي!، أُدرِكُ الآن أنه لا مكانَ لي على هذا الأرض، وعزمت على أن أموت في سبيل الوطن!"!

وتمنى لها حياة أفضل من حياته، وهديته لها تبقى الوطن، تَرَى فيه من يأتي إليها فيأخذها على جناحه مثلما كان سيفعل بجناحه، فيطير بها نحو الجنة لتربي ولدها في وطن مليء بالحرية!

******

(١٣)

﴿وَبَدَأَ الْمَسِيرُ﴾

عاد أمين إلى الخيمة فلم يجد عمارًا هناك، بعدما سأل عنه عَلِمَ أنه قد تحرك بعد نداء القائد خالد، فاستعد أمين ثم ذهب خلفه قرب المغرب.

في وسط اضطراب عمار، جاء البعض يُصَبِّرونَه في مصيبته، وهو لا يقول إلا "إنّا للهِ وَإنَّا إليهِ راجِعونَ"، تغيرت حالته جدًّا، أصبح يُطيل الصمت، يَزهد في الصُّحبة، ويُكثر الانفراد بنفسه!

كلما جاءه أحدٌ يصبره، يومئ برأسه في صمت، ثم ينظر إلى السماء ويتسأل في نفسه:

"هل يفهمون ما يعنيه صمتي يا تُرى؟!، إنَّ في الصمت أبلغُ الكلمات التي فقط تحتاج إلى عين تتأمل ما فيها فتفهمها، فيه سر الأوجاع، وأصدق الدموع.. حروفي الصامتة هذه لا تحتاج إلى تُرْجُمَانٍ يضع لها معانيَ، ففي الصمت إما سعادة شديدة، أو بقايا حياة!.. آهٍ... فيه قلب بكى كثيرًا وأخفى دموعَه، حتى اختفت بسمتُه، فأصبح تجويفًا خاويًا لا شيء فيه، وفيه سعادة قد جَعلتْ من اللسان قطعةً من الحجر.

هذا الصمت هو عُمْلَةُ المشاعرِ، وجهٌ منه سعيد، والآخرُ ليس في المعاجم لفظةٌ تعبر عن معناه، ولكن سيفهمه من طغى عليه هذا الوجه!".

***

وقف القائد (خالد) بهيئتِه المَهيبة، وصوتِه الذي يُحيي بقايا القلوب ونادى عند غروب الشمس فقال:

"أيها الرجال الصابرون، ليست العبرة بقوة العدة؛ الحق يجعل من الرصاصة صاروخًا لا يخطئ، ومن القنبلة الصغيرة قنبلة نووية، للحق قوةٌ تجعل الجنديَّ أقوى من الطائرة، فتسلحوا به، واجعلوه رايتَكم التي تُرفرف على قلعة قلوبكم، ولا تطلبوا إلا شيئين: نصرًا من الله على الطغاة ومدده لنا، وحريةً نهبها لأبنائنا وأحبابنا، اعلموا أن الموت ثمن بخس في مقابل سلعتكم الغالية، ستدفعون كثيرًا لأجلها، وسترون التضحيات، ومعاني الوفاء، سترون شموسًا تغرب، وأقمارًا تضيء، قلوبًا تموت، وأخرى تحيا، وفي النهاية لن يبقى إلَّا الوطنُ، أو روح ضحت له فأصبحت باقيةً مُنَعَّمَةً تغطيها ثياب من سندس وإستبرق، فهيَّا بنا إلى الجنات، أو إلى حلم سيتحقق!".

تذكر عمار والديه، اتسعت عيناه بعد كلماته القليلة ذات الأثر العميق، ذكَّرته بخطبة الشيخ عزيز، فتذكر كلامه عندما قال له:

"إن أَزْهَدَ شيء يمكن أن يقدمه الإنسان للوطن هو روحه ودماؤه، وإنَّ الشجاعةَ هي زادُ البطل والإقدام هو سَمته".

فثارت حميته، وتذكر بعدها تضحيات أبيه سنينًا في هذه الزنازين، كيف أكلت السياط من جسده، والسباب من عِرضه، وكان بطلًا يأبى أن ينتصروا عليه، فحارب وناضل، وضَحَّى بعمره في سبيل الوطن وحريته.

تذكر والديه وهما بين يديه مَيِّتان، وَبَسْمَتُهُما تُعلن أنَّ عيونَهما قد رأت الجنةَ، لينعما فيها بحبهما الذي فرَّقته ضروب الدنيا، وبراثن الطغيان.

تذكر يمانًا، وهي واقفة بين ألسنة اللهب، تبردها بدعائها واستعانتها بالله، وهي واقفة تبتهل، تذكر حلمها الذي أرادته، ووطنها الذي ما زالت تحلم به، كل ذلك جعل منه قذيفةً تنتظر الزناد لتأكلَ في صدر الطاغية.

تجمَّعَ الجيش الصغير الذي حوى حوالي ثلاثة آلاف رجل، جنود فرَّوا وانضموا إليهم بعدما أدركوا أن مرادًا وحشٌ قاتلٌ، فهربوا بعددهم، وشباب طاهر يأمل في عيش كريم. كانت عدتهم من البنادق والقنابل، وكثير من السكاكين، وسلاحهم الأقوى كان الإيمان بالحق، والدرع الحصين كان التوكل على الله.

وبعد العِشاء ساروا خلف القائد في طريقهم نحو أُولَى جولات المعركة الطويلة التي لا يُعلم متى ستنتهي!

كان أمين يبحث عن عمار بين هذه الألوف التي تجمعت خلف القائد خالد في تلك الظلمة. وكان عمارٌ يتساءل في نفسه: "تُرى أين أمين في هذه اللحظات؟".

وأخرج دفتره وكتب:

"لقد اشتدت آلامي وأخذت تنهش في لحمي بأنيابها، فمن لي سينزعها؟!، فها أنا أسير هائمًا أبحث عن بقايا نفسي- التي سقطت في الفيافي، فغاصت في كثبانها، فلا البحث يتوقف، ولا نفسي أجد، ولا الفيافي تنتهي!.. لقد بكت روحي، وما أشدَّ بكاءَ الروح!، هذه اللحظات التي تشعر فيها أنَّ جبلًا فوق صدرك؛ نَفَسٌ عميق يخترق روحك، ولكن بلا جدوى!..

تلك اللحظة التي تتنهد فيها على وسادتك طالبًا من الهواء المحيط أن يحنو عليك.. هذه اللحظة التي تريد أن تخبر الدنيا فيها أنه إذا بكت الروح فحقًّا لا داعي أبدًا لدموع العين.. تنادي في أمل: "يا رب من لي سواك ؟!".. الكل يرحل لكنَّك تبقى، الكلُّ يخذل لكنَّك تنصر، الكل يموت لكنَّك يا ربِّ حيٌّ لا تموت".

وأخذ يسير بهذه النظرة الخائفة، والقلب المنكسر، والوجه الكئيب الذي طغت عليه معالم الألم.

***

بينما هو في هواجسه وقبضة حزنه، أقبل على عمار فتى طويل القامة، بشوش الوجه، يبعث الأمل في العيون، وقال له كلمات طيبة، وقعت على رقبة الكآبة في قلب عمار فقتلتها:

- لا تحزن؛ فالله معنا ولن يضيِّعَنا، وسيُنسينا كلَّ آلام الماضي قريبًا.

وتركه وذهب، كأنَّه مَلَكٌ جاءه بعدما ناجى الله مستنصرًا به بالضياء فأنار الطريق.

أكمل عمار سيره وفي قلبه قبسٌ من ضياء، فقد أحيت تَـذْكِرَةُ الشاب في قلبه بقايا الأمل، وانطلق محاوِلاً أن يدفن كل همٍّ في صدره بعدما جعله مقبرة للهموم.

***

وبينما كان غارقًا في التفكير إذا به يسمع أمينًا يسأله:

- لماذا لم تنتظرني يا عمار؟!، لقد قلقت عليك.

- لم أجدك، وسمعتُ النداء فقمتُ.

- حسنًا.. لا عليك.

- كيف حالك الآن؟

- الحمد لله.

أدرك أمين أن عمارًا لا يستطيع أن يتحمل الكلمات، ولا يقوى على الحديث، فترك له الرسالة ثم رَبَّتَ على كتفه بابتسامة محب مخلص، ثم تقدم قليلاً ليتركه يقرأ.

فتح عمار الورقة وقرأ..

"لا تحزن يا عمار، عد بالوطن ذلك مهري، وأنا أنتظرك مهما طال الزمن، ولا تحزن...".

لمعت عيون عمار لمعةً فيها كل الأمل، فيها الروح التي سُرقت من أيام!

نظر عمار إلى أمين، ثم احتضنه في فرح شديد هامسًا في أذنه:

- شكرًا لكَ.

حاول أمين أن يخفف عنه بأي طريقة كانت، فأخذ يتجاذب معه أطراف الحديث وهما في طريقهما رفقة الجيش الصغير، إلى مكان التخييم، فسأله:

- ما حلمُكَ يا عمار؟

- الثأر، الثأر يا أمين.

- سنثأر يا صديقي -إن شاء الله-.

ثم صمتا قليلاً، فقال أمين مجددًا:

- أتدري ماذا أريد يا عمار؟

- ماذا تريد؟

- حلمي أن أبني لأمي صرحًا كبيرًا ترسم فيه إبداعاتها في نسج الملابس، لديها موهبة تفوق أفضل المصممين، المشكلة في عدم وجود إمكانيات لها ولا مال نصنع به، لكن لا شيء بعيد عن الله!

فتبسم عمار وأجابه:

– وعدي لك يا صديقي، أن نبني مصنعنا بعدما ننتهي من الحرب ونبني وطننا ونحرر أرضنا.

***

"اصطَّفوا واحتسبوا، ها قد وصلنا".

قاطعهما القائد خالد بصوته الجهوري، وهناك علِم الجميع أدوار العملية بعدما خيَّم الجيش قريبًا من المطار المجاور لقرية الدار، كان عبارة عن مبنى لإقامة الجنود، وساحة فيها بضع الطائرات، في وَسْطها مجموعة من أبراج المراقبة، عليها كشافات وبجوار كل كشاف أحد الجنود ليرفع راية الإنذار إن رأى شيئًا.

كان القائد خالد يعلم أسراره، فوضع الأدوار بعدما اختار خمسمائة محارب وقسمهم أربعَ مجموعات، مجموعة في الميمنة، ومجموعة في الميسرة، وفي الوسط مجموعة للهجوم، ومجموعة للتغطية من الخلف وكان عمار وأمين وسالم معًا في هذه المجموعة. تحركوا قبل الفجر بساعتين، كانت عملية عظيمة، خمسمائة مقاتل يقتحمون مطارهم الذي قتل النساء والأطفال!

كان الحماس في صدر عمار أشد من بركان يثور وتتعالى ألسنة لهبه على الناس، كان الحقد على الأعداء يجعله قنبلة نووية كما سمع الكلمات، أمسك سلاحه بقبضة غاضبة وأخذ يردد:

"الآن سأضغط على الزناد: لتتحرر الطلقة الملتهبة في صدري، فنستعيد قطعة من الوطن".

وألقى القائد خالد خطبة حماسية تجعل الجَنانَ في الصدر قطعةً من الجمر، والسواعدَ قذائفَ للحق، والأقدام فهود تعدو فلا يوقفها أحد:

"أيها الجند الصادقون، الآن لحظة يجب على قلوبكم فيها أن تكون خالية من أي نفاق، اجعلوا نياتكم خالصة لله، وأفئدتكم تهوَى الموت في سبيل الحق، كما يهوى هؤلاء القتلة الحياة. استعينوا بالله، تخيلوا أن في سيركم هناك الجنة، فاركضوا نحوها، لا تتركوا تلك الدماء التي سقطت بقصفهم تذهب سُدى، فلكل واحد مات من أهلينا سيموت منهم مثله، لن يجدونا بعد اليوم لُقمة يسيرة، بل سنكون شوكة في حلقوهم لا يبتلعون بعدها شيئًا، سيروا على بركة الله وعودوا بالنصر!..

واعلموا أنَّ ذلك الذي باع دينه ووطنه من أجل ملك في عهد المحتل ليس منا ولا نهواه، ذلك الذي يقود مطارهم كان واحدًا منا باعنا من أجل قيادة وحماية يظنها ستدوم في حِمَى الطاغية فلا تأخذكم به رحمة ولا شفقة ولكن قابلوه بالحزم والقوة حتى تتعلق جثته على مشانقَ الحرية"!

*****

وساروا بالخطة المحكمة..

مائة من الميمنة ومائة من الميسرة يقفون بين الأشجار الكثيفة بقانصات كاتمة للصوت، ويقتلون الحراس بعدها يبثون في دجى الليل إشارةً بكشافات صغيرة فتنطلق إلى بقية الجنود في المؤخرة والوسط، وبعدها يقتحم الجميع.

تحركوا في ظلام الليل، والحماسة تشعل في صدورهم و تجري في عروقهم، ثم نادى منادٍ أنْ أسرعوا نحو النصر.

فجرى الجميع نحوه؛ عازمين أن يفوزوا به أو بالجنة في حياة لا خيال فيها بعد الموت. تحرك أهل الميمنة والميسرة، تخطوا أضواء الأعداء، يتحركون بصمت بعدما مات كل جنود الأبراج بضربة واحدة، عُدمت الحراسة.

***

حصَّنوا المكان مجددًا فلم يجدوا أحدًا، فانطلقت الإشارة بالأضواء، النور يعلو في سماء الظلم كنور الحرية.. فهمها الجميع وانطلقوا بصمت حتى لا يعلم أحد بالهجوم، اقتربوا من السور بلا خوف؛ فالأضواء الكاشفة هناك تعمل ولكن بلا حراس.

وقف المتأخرون يحرسون الطريق، وصعِد أحد الجنودِ بحبل، فَتح البابَ من الداخل، وانطلق الجميع إلى الداخل، اقتحم الجنود المكان، علت التكبيرات!

كل شيء كما وصفه القائد خالد..

الرصاصات بالإيمان أضحت صواريخًا تُشعل النيران في أفئدة العدو، اللهيب يتصاعد فيبدو كشمس سطعت من وسط الليل تُنير قلوب الطامحين، وتَحرق قلوب الغاصبين.

دخل الأبطال إلى المطار، وأَسروا مائةً منهم، كان الأسيرُ الأبرزُ هو حمزةَ أخو مرادٍ، أصبح نصرًا كبيرًا، ظلُّوا محتفظين به حتى يكون ورقة رابحة في الضغط على أولئك.

*****

شَعُرَ عمارٌ أنه قد أخرج بعضًا من ألسنة اللهب المتأججة في صدره، واقـتَصَّ –ولـو قَصاصًـا صَغيرًا– منهم، اقتصَّ مِمَّن جعلَ أباه وأمَّه جثَّتَين تحـت الأبنيـة، في ليلـة كـان المقـدر لقلبـه حينها أن يبقى سعيدًا!

نصر كبير لا تشوبه شائبة.. لوَّح عمار بعلامة النصر الأولى إلى يمان، وأرسـلها مـع القمـر، وقال:

"ها أنا أدفعُ جزءًا من المهر، وأسترد قطعةً من الوطن!".

****

(١٤)

﴿لا يُـهْزَمُ مُؤْمِنٌ مِنْ قُـبُـلٍ﴾

أُعِدت منصات الإعدام في ضوء النهار، وأنشد الأبطال فرحين بالنصـر في أولى الجـولات في المعركة الطويلة.

وانطلقت رصاصات الإعدام معلنة لهم أنَّ الحق يجعل المائة أَلْفًا على قلوب الظالمين!

قد انتصرت أهم ضربات الجيش الثائر، وعلا في الأفق رمز الحرية التي يسعى لها، تركـوا بعض الجنود أسرى بلا قتل؛ جعلوهم يشاهدون الأجساد المعلقة على المشـانق، وهـم يموتـون ويصرخون خائفين مما يشاهدون؛ حتـى يُعشـش الرعـب في قلـوبهم ، فيكونـوا الرسـل الـتي ستحمل الرعب إلى قادتهم.

وأتى القائد بحمزة، أوقفه جاثيًا على ركبتيه ثم أخذ يوبخه بالكلمات:

- الآن قد أشرق الحق الذي قد طال ليله، وانقشعت الغيوم التي عاشت طويلًا، وهـا أنـت الآن جاثيًا ذليلًا.. هـل علمـتَ الآن أن الخـائن ليس لـه نهاية إلا الموت، حياته ستظل قصة للعظة والتوبيخ، اسمه سيظل مثالًا على الدُّنو والخسة، ها أنت الآن قد لاقيـتَ مصيرًا مُشينًا ملائمًا لحياتك الدنيئة، مُت غير مأسوف عليك ولا على أمثالك!

ثم أمر به وبالجنود أن يؤخذوا إلى السجن.

كان القائد خالد واعيًا يفكر فيما بعد النصر أثناء القتال، فعزم على معرفة تفاصيل الخيانة من حمزة، حتى ينقلها بعد ذلك للأبناء، فيُحيي ما قد أماته الكاذبون، وينصر من قاموا بظلمه.

ثم قال القائد لأحد الجنود الذين شاهدوا ما حدث، والرعب يهرب من وجهه:

- اذهب إليهم في العاصمة، أخبرهم أننا لم نعد تلك العنزة الصغيرة التي تأكلونها وقتما تشاءون، اذهب إليهم وأعطهم تلك الهدية، وأخبرهم أننا سنأتي إليهم، وها نحن نمتلك المدافع والطائرات التي ستجعل أيامهم جحيمًا.

وانطلق الجندي يجري كمن يجري خلفه أسد جائع في الغابة الواسعة.

بعد ذلك، ذهب القائد خالد إلى السجن ليقابل مرادًا، وأمره بأن يقص عليه كل ما حدث وكيف دبروا خطتهم الخبيثة.

وقص عليه الحكاية من بدايتها إلى يوم الخيانة.

*****

الخطة دبرتها دولة (أسيكا) وجاء بها مبعوثها (جاكون).

عندما دخل البلاد، ذهب إلى مراد في بلدة كوك في غرفة مغلقة لا يعرف أحد عنها سوى حمزة أخوه، واجتمع الثلاثة:

- كيف حالكما؟

- بخير يا سيدي.

- اليوم سنستعد للبدء، أنتم تعلمون أن مهمتي هي تيسير اغتيال الحاكم، وإقامة حكم جديد يكون القائم عليه مراد، لا يجب أن أظهر في الصورة كما تعلمان حتى لا يبدو احتلالًا؛ لأن الاحتلال من الداخل أسهل من الحرب من الخارج، وكما وعدناكم سيكون مراد الحاكم، وسنمده بكل ما يريد من الأسلحة الجديدة.

- نحن معك، ولكن كيف سنفعل ذلك؟

- أنت يا مراد.. عليك أن تقترح على الملك أن يؤسس كلية خاصة بتخريج أفراد الأمن والجنود، وأنك ستكون مشرفًا عليها..

وسنعمل فيها بسرية حتى يكون الوضع فيها تحت سيطرتنا نبث العقيدة التي نريدها من حيث السمع والطاعة، ثم نُخرج القادة الذين نعدهم على أيدينا حتى نحدد موعد الانقلاب على السلطة، وأنا عندي تعليمات بذلك سترحب دولتنا بهذا التفكير، وسترسل لها الأسلحة الجديدة كمعونات للتقدم والرقي، ولكنها ستكون كلها في أيدينا؛ فنحن من بدأناها في النهاية ونسيطر عليها.

- حسنًا سأفعل.

- وأنت يا حمزة.. عليك ألَّا تُدخل أحدًا هذه الكلية إلا بعدما تعرف أنه كان غبيًّا يسمع ويطيع، لا يفكر، فقط يفعل ما يؤمر به.

- عُلم يا سيدي.

- الآن سأخرج، وسأستمر في الإقامة هنا، عليكما البدء في ذلك سريعًا.

ثم غادر المكان، واستمرت الحياة في المدينة كما هي، أخذ مراد الأذن بإقامة تلك الكلية التي ستخرِّج الجنود، كان الأَخَوان قد أصبح لهم تابعين يحملون نفس

أفكارهم في الفترة ما بين عودتهم من (أسيكا) حتى قدوم جاكون. وبدأ حمزة يختار من بين المرشحين من تنطبق عليه كل الشروط.

كانت تأتيه الأسلحة وكل ما هو جديد من المعدات، وكانوا يتدربون يوميًّا بالأسلحة على الرمي، والتدريبات البدنية الشديدة.

بعد تسع سنين.. ذهب (جاكون) إلى قصر (حمزة)، واجتمع سرًّا معه ومع (مراد):

- كيف حالكما.

- بخير يا سيدي.

- أمستعدان لما أعددنا له طوال هذه السنين؟

- وعلى أهبة الاستعداد، لقد تم كل شيء كما خططنا.

- حسنًا.. سنذهب اليوم للاجتماع بالقادة الذين تخرجوا ويعطون الأوامر للجنود الذين يطيعون دونما تفكير.

- أحسنتما عملًا حقًّا.

- شكرًا لك سيدي.

- هيا إلى اجتماع القادة، سألقي عليهم اليوم كلمة نحدد فيها كل شيء.

وقف جاكون، كانوا عشرة من الذين تم اختيارهم بعناية بالغة، كانوا من حاملي الفكرة قبل قدومه إلى البلاد، وهكذا كانوا مستعدين، حالمين بمناصبهم الجديدة منذ اللحظة الأولى:

"أيها الجنود المخلصون، لقد أعددنا لذلك منذ سنين، تَصَنَّعنا الابتسامات والآن قد استعد الجميع، تدربنا وعملنا في الخفاء حتى نصل إلى هذا اليوم الذي أتينا من أجله، سنتحرك من الغد، وسيكون الهجوم بعد ثلاثة أيام من اليوم".

أنهى جاكون الكلمات في حماسة وعينه تقطر شرًّا، ثم نظر إلى (مراد) ليوضح له الطريقة التي سيتحركون بها:

- غدًا ستدعو الجميع في قصر الملك لعشاء بعد ثلاثة أيام، ستدعو فيه كل القادة الآخرين على البلدان، وفي الليل سآخذ مجموعة من الجنود المقيمين في مقرنا في العاصمة ونهجم على القصر الكبير ونحتله، ونأسر كل القادة هناك وأنت ستكون جزءًا من المأسورين؛ حتى لا يشك أحد فيك بعد ذلك سنعيدك لبلدة (كوك) متخفيًا مع مجموعة من الجنود؛ لتقمع الثورات التي ستقوم في اليوم التالي بعد علمهم بما فعلنا..

ستعمل على أسر كل الثوار هناك، وتتبع كل من حاول الفرار بعد المقاومة حتى نأسر كل رؤوس المقاومة في البلاد، ثم تكتب صحفنا أنك يا (مراد) قد قمت بتحرير البلاد من الملك الذي كان يسرق الثروات من الجميع وأنك أتيت لتعيدها إلى أصحابها.

سيبدو للجميع أننا جزء من البلد وثُرنا على الحاكم الذي ظلمنا وقتل منا بعض الناس، سنفعل ذلك حتى لا يتهمنا أحد في الخارج بأنه احتلال للبلاد، فلا أحد يعرف مَن نحن سوى أهلها!، ستكون هذه الخطة في جمع المدن.

- حسنًا.. فهمتُ الآن.

استعد مراد بعدما أخذ التعليمات من جاكون سرًّا وجهز الدعوة التي سيلقيها على مسامع الملك، ثم ذهب إلى القصر ليدعو جميع القادة على عَشاءً في اليوم المتفق عليه.

- مرحبًا سيدي الملك.

- مرحبًا يا مراد.

- بخير يا مولاي والحمد لله..

صمت مراد قليلاً، وبعدها تابع:

- مولاي سأقيم حفلًا صغيرًا على شرفكم، وأرجو أن تقبل فكرتنا، سأدعو جميع القادة حتى نناقش أحوال الرعية والمدن ونرى ما الأفضل لنصنعه، ثم نقيم نأكل معًا على العَشاء، فنحن لم نجتمع من فترة طويلة.

- صدقتَ القول يا مراد، إذن نجتمع -إن أحيانا الله-.

أسرها مراد في نفسه، وقال: "إن أحياكم الله يا مولاي.. إن أحياكم"، ثم قال له بنبرة خبيثة:

- أطال الله في عمرك يا مولاي وحفظك لنا.

ثم خرج من القصر عائدًا إلى (جاكون) ليخبره أن الأمر قد تم وأن العشاء في الموعد.

في اليوم المشهود صباحًا، التقى جاكون بمراد في المقر وألقى عليه التعليمات الأخيرة:

- هذا الشراب فيه سم لا يتحمله أحد، يبدأ في عمله بعد عشرة ساعات خذه الآن، ووزعه على الجنود في القصر حتى نأتيهم ليلًا وقد خلا لنا المكان بلا حراس.

- حسنًا يا سيدي.

أخذ مراد الشراب وذهب إلى القصر، ثم أتى بأحد الجنود التابعين له وأعطاه الشراب وأمره أن يمرره على كل جنود القصر به.

ثم أمر جندي في كل جهة من جهات القصر حتى يضمن خلوه من الجميع، كان القصر كبيرًا يحيطه سور كبير، وقد كان مشيدًا بدقة وعناية شديدة حيث لا يسهل اقتحامه أبدًا من الخارج.

ولكن قد علم جاكون أسراره كلها من مراد، فعمل على إغلاق كل عين تحرس بالسم المدسوس.

وبعدما تم كل شيء كما قرر جاكون ومراد، ذهب إلى العشاء منتظرًا ما يحدث.

عندما عرف القائد الحكاية بتفاصيلها أمر بتسجيلها على الأوراق حتى تكون شاهدة على أولئك اللصوص.

ثم توالت الأحداث وأخذت الزهرة تنمو والجيش ينمو، أصبحوا شوكة قوية، وعم الأمان قليلاً في الأرجاء.

*****

وبينما هم نيام في ليلة وقف الحراس في أماكنهم..

وكـان عمـار وأمـين وسـالم كعـادتهم يحرسـون النـائمين بعـد ليلـة مـن ليـالي القتـال. كان كل واحد يحرس جهة على إحدى الأبراج الهامة في الحراسة.

وفي هذه الليلة سُمع ضرب شديد من ناحية سالم، وتعالت الـنيران، وضُـرب الـبرج فسـقط كله وأحدث فجوة، ظن الجميع أن سالـمًا قد سقط!

ذهب الكل يدافع عن البرج واحتسبوا سالـمًا من الشهداء، فـإذا بهـم يُصـعقون مـن المنظـر كأنَّ على رؤوسهم الطير.

كان سالم يقف مع الأعداء، بل وهو من ضرب البرج معلنًا انتقامه!

تعجب عمار وأمين كل العجب من المنظر! ، لم يتوقعا أنه كان يقاتـل معهمـا بهـذه القـوة ثـم أصبح خائنًا..

وأعاد الغادرون الكرة، بخيانة...

لم يهزم الصادقون في المرة الأولى إلا من خيانة وغدر، وها هم الآن يعيدونها بنشر ذئب من ذئابهم يرتدي حلة المجاهـدين، يعـيش عيشـهم ولكـن كانـت دمـاؤه حاملـة حقـدًا علـيهم. لم يستوعب أحد ذلك الحقد الذي كان في عينه، وتلك الخيانة التي لم يتوقعوها، كيف وقف في وسْط الجيوش الغاصبة رافعًا سلاحه، ناشرًا سمومه، قاتلاً من أكل معهم، وشرب معهم!

*****

قبل ذلك، عندما بدأت الدراسة في الجامعة، **لاحظت عيون مراد وجاكون حركة المفرَج عنهم في بلدة (سور)، فطلب مرادٌ أن يؤتى بسالم ابن حمزة!**

ذهب سالم إلى أبيه حمزة في مدينة (كوك) ثم ذهبا معًا إليهما.

- كيف حالك يا سالم؟

- بخير يا عمي.

- هل تعرف أحدًا من بلدة سور كان في الجامعة معك؟

- نعم، كان هناك عمار ابن ياسر؟

- ياسر؟!.. هل أبوه كان أحد الأسرى المفرج معهم؟

- نعم هو ذلك الفتى المشهور.

- إذن.. أريد منك أن تتعرف عليه وتصادقه؛ نحن نشم رائحة تمرد في هذه البلدة، ونريدك أن تكون من بينهم حتى نكسرهم من حيث لا يعلمون.

- حسنًا.

***

في هذه الأثناء كانت حركة التمرد قد اشتعلت، فظل سالم يتدرب على ذلك الدور في القصر، أتي له بعمائم السلطان يدربوه على الأسلوب الذي يستخدمه حتى أتقن الدور، كانت الجامعة قد توقفت، وبدأت حركة التمرد الشديدة في بلدة (سور)، وهنا استعد سالم للذهاب!

ودَّع والده وعمه، وحمل خيانته ودوره إلى بلدة (الدار) لينضم إلى الثوار هناك، ثم أصبح جزءًا منهم.

كان القصر ينتظر أي رسالة تأتيه مع أي جندي لهم يفر من معركة ما، فيعطيه سالم الرسالة ويخبره أنه للقصر من سالم.

ولما استعاد الرجال بلدة (الدار)، واستقروا في مطارها.

حزن لما حدث لوالده ولكنه أخفى ولما طُلبت الحراسة منه، استغل واحدًا من أولئك الجنود العائدين إلى العاصمة وأعطاه رسالة بمكان الهجوم وساعته.

وعند الساعة التي حددها لهم، كان اللقاء ناحية موضع حراسته، ذهب عن السور مستخدمًا حبلاً، ثم ذهب متخفيًا هناك متربصًا لهم بين الأشجار.

*****

كان ذلك من أشدِّ الأيام خسارة، تجمع الكثيرون ووقفوا وقفة كأنَّهم تبايعوا على الموت. فلا خوف ولا تردد وتبَطَّلَ الرجال يومها كي يوقفوهم بكل الطرق..

فكم من رجل حمل القنابل جملة في صدره لما اقتربوا من الجدار المتهالك، وقال: "أسبقكم الآن يا أصحاب"، هكذا بكل بساطة باع روحه!

وقال: "إني لأرى النور يعلو، نور الحرية، زهرتنا أضحت بستانًا توزَّع منه الأزهار على البلدات فتجعلها حرة، إني أشُمُّ عبير الوطن الحرِّ يدفعني نحو الجنة!".

ثم يقفز البطل بين أيديهم، تتكالب عليه البنادق كأنَّه طير دسم رأوا فيه عشاءً فاخرًا، فإذا بالرجل أصبح قنبلة نارها كانت كالزهرة الجميلة في وقت الربيع!

أصبحت جحيمًا على قوم وبَردًا على آخرين.

كانت كما ذكر القائد خالد في خطابه الأول حينما قال:

"بالحق تكون القنابل الصغيرة قنابلًا نووية، هكذا تكون قوة الحق".

بعدما سدوا الثغرة التي فعلها سالم، بدأوا في التصدي للقادمين..
كُلٌّ حمل رشاشًا وبدأ بالقصف، تعاهدوا على الموت دون العدو، خسروا كثيًرا ذلك اليوم، وسقط جزء من الجدار ومات على الفتحة من سدوها بأجسادهم، فأقاموا جدارًا من جثث..
أجساد ماتت لتحيا أرواحها في وطن آخر.
بعدما مات الكثيرون وخسروا الجولة الأولى، حتى كادت المعركة تميل إلى جيش العاصمة.

وقف القائد ينادي أن أنصتوا وإذا به يعطيهم فكرة لم تخطر حتى على عقل شيطان ماكر، أمر أن تُحدَّدَ مواضع العدو، وأعطى لكل واحد قاذفًا للصواريخ كانوا قد وجدوها ضمن معدات المطار، حوالي مائة!

بعدها أمرهم أن يصطفوا فوق مبنى ما يواجه العدو، وأمر البقية أن يحموهم.. صعد هو فوق جزء من المبني ذاك الذي يرى فيه العدو ولا يرونه ويراه الجنود.

ونادى:

"عند إشارتي.. الكل يعلو ويضرب بزاوية سبعين درجة للأسفل ضربة رجل واحد".

كانت الأمل الأخير في البقاء، بل في أن يبقى الوطن!".

رفع عمار عينيه للسماء قائلاً: "اللهم رميةً من رمياتك تهلك الخونة بها!".

وقال القائد:

"نار"!

فإذا بمائة من الصواعق تنزل على الأعداء تباعًا، وكان منظر النيران تمسك بهم كمنظر البركان الثائر في صدر عمار يوم قتلوا أبويه..

يوم أشعل الحقد فتيلاً لا ينتهي إلا بقاع البركان فتعلو النيران منه كأنها دموع تحزن من شدة الآلام!

أصبح منظر النيران تذكيرًا بمثواهم الأخير، تضيء الظلمات المنتشرة في قلوب الجنود، تبدو مريحة لها على غير عادتها، إذا مات الناس بالنار، فالثأر بها يكون شافيًا للصدور، النار هي الدواء!

وبينما يشاهدون النيران تحرق في الذئاب، إذا بالخائن الذي أكل معهم يضرب صاروخًا نحو عمار!

حدق فيه ومرت لحظات رؤيته له ساعات حدث فيها نفسه:

"الآن سأطير إلى السماء رافعًا رأسي كما طار والداي، الآن فقط سيطمئن القلب وتهنأُ النفس".

- تحرك يا عمار، اقفز!

أعادت تلك الصرخة الزمن، السرعة عادت كما كانت بل وأسرع ، فقد وجد يدًا تدفعه بعيدًا ليسقط على الأرض وعيونه ترى أمينًا.

أنقذه أمين من الموت المحتوم، وقال:

- أأنت بخير يا عمار؟

- نعم

- ما هذه الدماء؟

- إنها إصابة طفيفة.

- اذهب إلى الطبيب في الحال فأنت تنزف هيا.

أخذه أمين وأوصله إلى الطبيب ليأخذ الإسعافات وذهب ليكمل.

ظنوا أن العدو قد أُبيد، ولكنهم وجدوهم يتقدمون مجددًا بمعداتهم، قد كانت هذه هي البداية فقط مقدمة الجيش القادم الذي حدد سالم وعده، موعد الخيانة التي تسببت في موت الكثيرين.

عندما حُمل عمار للطبيب، ظل يفكر في سالم وفعله، ويقول في نفسه:
"ربما لم يكن عليَّ أن أنصحه منذ البداية، الآن أنا من يجب أن يقتص منه!".

العدو يأتي بجنود ومعدات وكأنه ينوي أن يستأصل الجمع!

تساءل القائد خالد كيف سيردون هذا العدد الكبير من الجنود والعتاد، ومع هذا الضعف الذي كانوا فيه في هذه الأثناء؟!

تجمع القائد خالد ببعض الجنود وقال لهم:

- إننا لن ننجو من هذا العدوان إلا بتضحيات، لا بد للبعض منكم أن يأخذ طائرة، والبعض الآخر يخرج معه الأسلحة الثقيلة ويضرب، ويعلم أنه سيموت!

- أنا سأذهب أيها القائد.

أجاب أمين.

- حسناً يا أمين، ولكنك لا تقود الطائرة.

- سأخرج مع القصف، فيا مرحبًا بالشهادة، ولكن قل لعمار أنني كنتُ أحبه، قل له عد بالوطن ولا تمت يا صديقي، فهناك من ينتظرونك هناك.

ثم تقدم مع أمين عدد من الأبطال الذين أدركوا أن الحياة ما هي إلا لحظة لعزة وكرامة!

وخرجت طائرتان..

خرج خمسون من الأبطال الذين باعوا دنياهم من أجل آخرتهم، باعوا أرواحهم من أجل الجنة، اختاروا لحظة من لحظات الحرية، من لحظات الأمل، من أجل لحظات عزة في الدنيا يتبعها عز ودوام في الآخرة، هؤلاء هم القادة والأبطال بحق.

انطلقت الطائرتان، كل واحدة حُمِّلت بعشرين قُنبلة، جُهزت عملية التضحية، كان الطياران يعلمان أنهما سيموتان بالقذائف المضادة ولكنهما علما أنهم سينقذون الزهرة، سيشترون الحرية.

استعد العشرة أبطال خلفهم بالأسلحة الثقيلة، وقفوا على الأبواب، ودَّعوا الجميع، وانتظروا قذيفة الطائرات..

ها هي الطائرات قذفت والنيران اشتعلت وسقطت الأولى، فتحوا الأبواب وخرجوا يطلقون، ذاك الذي حمل القاذف وضرب الصواريخ، وذاك الذي أطلق الرصاصات، وآخر لف جسده بالكامل بالقنابل وكان مع الطائرة وقفز منها في مشهد لن يتكرر إلا في ملاحم الأبطال الصادقين.

ارتبكت عناصر الجيش، ووقف الأبطال على أسوار الحصن وأخذوا يضربون من بعيد..

وها هو الجيش ينهار والأبطال على وشك النجاة، بدأوا في التقهقر وخرج المزيد ليعاونوا هؤلاء الفدائيين، حتى صرخ من بين الجيش مقاتل أعاد بعضًا منهم:

"لا تتراجعوا هذه فرصتنا اضربوا.. اضربوا!"، وكان المنادي فيهم هو سالم.

لم يتراجع حتى ضرب منهم الكثير، وانطلقت الرصاصة التي اخترفت صدر أمين، سحبوه إلى الداخل محاولين إنقاذه بعد بطولته، ولكن يبدو أن وقته قد حان!

تقهقر الجيش.. دمرت معداتهم، عادوا جميعا فرارًا، وأخذ الأبطال يدافعون، خرج إليهم الكثيرون وأصبح هناك باب واسع نحو الجنة، باع فيه الكثيرون نفسهم لله..

هكذا كانت الخسارة والنصر، عاد الغاصبون فارين لما وجدوا أسودًا حريصة على الجنة والموت.

خرج عمار من عند الطبيب مسرعًا، ليرى ما حدث ويحتفل مع أصحابه برد المعتدين.

وبعد قليل سأل القائد خالد:

- أين أمين؟

- خرج مضحيًا بنفسه يا عمار.

- ماذا أين هو الآن؟.. هل أصيب؟!

- إنه هناك يا عمار.

- ماذا حدث؟!

- ضربه سالم منتقمًا منه قبل أن يفر.

جرى نحو أمين والدموع تترقرق من عينه، وقلبه يبكي وروحه تئن، كل شيء في داخله منهار، إنه كل من بقي له في هذه الحياة.

- أمين.. أمين.. أمين!

كان أمين مستلقيًا على الأرض يلفظ أنفاسه الأخيرة، باع حياته من أجل الوطن ومن أجل صديقه، من أجلهم جميعًا.

وها هو يجري نحوه، حمله بين ذراعيه، كما حمل أبواه من قبل وقال له:

- لماذا يا أمين؟!، لا سند لي بعدك!

فتبسم ووضع خده على يد صديقه وقال:

- لا تمت قبل أن تفي بوعدك، إياك!، الجنة تنتظرك، أراها يا عمار وأشم رائحتها الطيبة.

- أعدك أن أحرر الوطن، وأن أحقق حلمك لأمك.

ضم وجهه إلى صدره، أخذ يبكي ويصرخ، تعالت شهقاته، تارة يهذي يقول:

"لماذا رحلت يا أمين، لماذا تركتني؟!"!

وتارة يقول في صبر:

"اهنأ في الجنات؛ فمثلك لم تكن روحه على الأرض".

تجمع الأصدقاء حولهما، والكل يخفف عن عمار، ولكنه حمل على يده كثيرًا من الأحباب، أبًا غاب طويلاً، وأمًّا ضحت كثيرًا، وها هو أخ وصديق وقطعة من القلب، وفاء يذهب وأمانة تموت بروحها الطيبة إلى المكان الذي يجتمع فيه الطيبون، إلى الجنة.

وتبسم وجهه المنير، وصعدت روحة التي لم تكل يومًا، صعدت الروح الطاهرة مقبلة في ساحة القتال، معلنة أن صاحب هذا الجسد، قد جسَّدَ معنى الصداقة والأمانة، والتضحية في سبيل الحق.

كان يهوى نيل الـمُنى ولم يدخر جُهدًا أبدًا في الخيرات، في إسعاد الآخرين، صعدت مع الذين صدقوا ما عاهدوا اللّهَ عليه، ومجرى الدمع لم ينقطع مجددًا من عين المبتلَى عمار!

***

بعد ذلك صلوا على الشهداء، دفنوهم ودفن عمار صاحبه، كأنه كُتب عليه أن يحمل أحبابه موتى.. ثم جلس عمار في صحبة النجوم وأخرج دفتره وكتب:

"الآن.. نعلم أنَّنا عندما نبكي في لحظات الموت، لا نبكي على الموتى، بل نبكي على أنفسنا، على وحشتنا بعدهم..

فمن نبكيهم في هذه اللحظات، هم من اعتدنا أن يكفكفوا دموعنا عندما نبكي..

لقد كثرت العهود علي، عودتي لمن أحبها لكي أهنأ بحديثها الذي لا يكون إلا في الحلم.

عودتي بالوطن، الذي أراد أبي أن يراه حرًّا من أول لحظة حتى مات مدافعًا عنه، الثأر لأمي وأصحابي..

ألست يا أبي من قلت لي: "يا ولدي إذا عشقت فلا تغدر، وإذا وعدت فلا تخلف"!، ولكنك لم تخبرني أن العهود ثقيلة، وأن الوحدة قاتلة!".

ورفع رأسه ونظر إلى السماء، ونادى في صوت يقطعه البكاء:

"الآن يا أمين سبقتني إلى الجنة، أرسل سلامي إلى أبي وقبل يده، وإلى أمي وقبل رأسها، وسامحكم الله على هذه الوحدة، فكلكم تركتموني هنا وحدي، وهل يا تُرى سبقتني يمان أيضًا أم أنه ما زال لي في الحياة بقايا من جمالٍ أهنأ به؟"!

ثم أكمل كتابته..

"فقدت اليوم القطعة الباقية من قلبي، لم يعد في الحياة ما أتمناه سوى الثأر من هؤلاء الفجرة، لم يعد في قلبي مشاعر سوى ذلك..

لقد جعلتُ من ضلوعي بيتًا للطاهرين لعلَّهم ينفعونني كلما توحشت الحياة.. بيتًا لأمي، وآخرَ لأبي، والآن أعدُك يا صديقي أن تحيا معهم، سأفي بعهدي إليك، وسيُحقق حُلم أمك.. الوداع!..

فهذه الحياة بطبعها تُبقي السيئين ويذهب عنها الطيبون، كلما شاهدتُ أعمار الطغاة رأيتُها تفوق أضعاف أعمار الذاهبين!..

ربما هم يسرقون أعمارهم بطريقة ما من طرقهم الخبيثة التي سرقوا بها كلَّ شيء!.. ألم يسرقوا أرض الضعفاء، وشروق السماء، وينابيع الأرض، وأمطار الشتاء؟!..

ألم يسرقوا الجنة وحولوها إلى جحيم، جعلوا أهلها أذلة بعدما كانوا أعزة، ألم يجعلوا من رؤوس الأبرياء نعالًا لأرجلهم القذرة، ألم يجعلوا هذه الحياة كئيبة بعدما كان عنوانها الأوحد السعادة؟!..

لقد سرقوا ما لا يُسرق.. العقول الحرة، جعلوها أسيرة أفكارهم، الأجساد القوية أصبحت بالية ضعيفة، سرقوا من النساء أزواجهم حتى ناموا والذِّكرى ما تطبطب عليهم في مضاجعهم، سرقوا من الأطفال آباءهم، حتى وُلد الطفل لم يرَ أباه، ولم يهنأ بلقائه إلا لحظات!.. سرقوا الأمل بل سرقوا حتى أحلام الأطفال!".

****

(١٥)

﴿لَيتَ النِّهَايَةَ تَأْتِي!﴾

في كل ليلة من ليالي الحرب يؤجج الطاغية بركان الغضب، يؤكد أن الحياة قاسية، وأن الطغاة المستعمرين ليسوا إلا وحوشًا ترتدي عباءات البشر، طعامها الظلم، وفاكهتها الأسر، وشرابها التعذيب!

وتوالت الجولات بين العاصمة والشعب، وأصبح الكل غاضبًا مما يفعله (مراد) وجيشه من قتل لإخوانهم في المدن، حتى حُسمت أغلب المعارك للثائرين بسبب انضمام الشعب لهم في كل مدينة يذهبون إليها.

بذلك سيطروا على كل ما كان جنوب النهر، كانت الأسلحة تزداد خصوصًا بعدما سيطروا على بعض الحدود مما يسر لهم الحصول عليها من الخارج.

كان خالد يترك كتيبة في كل مدينة، يرأسها أحد أهل المدينة الذين انضموا للجيش حتى يكون من بين أهلها.

بعدما استقرت الأوضاع في هذا الجزء من البلاد، قرر خالد أن يعبر النهر حتى يأخذ القرى التي تحيط بالعاصمة، ثم يذهب إلى الحصن الذي سيفتح منه العاصمة وتنتهي الحرب.

تحرك خالد مع الجنود وخيموا بعدما عبروا النهر في غابة حتى لا يَسهُل الوصول إليهم في طريقهم نحو قلعة (كيرا).

***

بعدما استقر الجيش، ونُصبت الخيام.. وقفت الحراسة ونام أغلب الجيش ليتحركوا في الصباح، ولكن بينما هم نيام..

تعالت أصوات الطائرات التي قصفت مؤخرة الجيش، الموت أصبح دانيًا منهم وكأنَّه قرينهم الذي لا يغيب!

غارات العدو أيقظت سكون الليل، جعلت منه نهارًا طلع على الآمنين الذين ارتعدوا من شدة النار التي أمسكت في الأشجار.

أصبح المخيم كله ما بين كَرٍّ وفَرٍّ، الكثيرون استطاعوا النجاة بسبب كثافة الأشجار التي خففت من وطأة الصدمة الأولى وأيقظت الجميع قبل أن تأكل النيران هذا الجزء من الغابة.

صعدت بعض الأرواح إلى السماء.

مرت الطائرات ومات كثير من الفرسان، فبدأت حياتهم حيث لا سرقة لوطن أو أهل أو حتى حلم!

بعدما مرت الطائرات تاركة خلفها الموت، تحرك الجيش ودخلوا في عمق الغابة، وخيموا من جديد في ظلام الليل.

وبينما ينام هناك في تلك البقعة كل شيء.. ذاك الذي ينام من ألم، وآخر ينام من ذكرى وطن.

استيقظ عمار وأيقظ معه رفيقه الجديد؛ ليبوح له بما في قلبه على صفحاته البيضاء:

"بينما أتأمل القمر الذي أُكِلَ نصفه فبدا تريبعًا، أكلته السيوف التي لا تنام في الليل، وهل لسيف أن يبقى في غمده وقت الحرب؟!، فسيوف الحرب قاطعة كل ما تقع عليه، حتى الزمن!، أما أنا فهذه السيوف التي تؤرقني.. سيف الوطن، سيف الحرب، ولكن كلها تهون أمام سيف الحنين!.. الحنين إليك؛ فأنت ما بقي لي في هذه الحياة، بعيدة عن العين قريبة من القلب، أراكِ قريبة على صفحة البدر..

فأين يا ترى أراك وقد أكل سيف الحنين أكثره؟!..

بينما أنا وسط الضوارب تُقطِّع في قلبي تذكرتك.. تذكرت الليلة الأولى التي اكتشفتُ فيها أنَّ الاعوجاج الذي أتيت به كنتِ أنتِ وحدكِ من قومته، تذكرتُ جمال القيام وحلاوة الأحلام!..

فسبحتُ هائمًا في أرض المستقبل التي أراكِ فيها، أرى طفلتنا وهي تداعب لحيتي، وطفلنا وهو يجري مبتسمًا يحمل طائرته الورقية..

أرى مستقبلنا الجميل الذي تسطره أحرف الدين والحب، تخيلتُ البيت الذي سيكون على شاطئ هذه البلدة، وأنا أجري معكِ ومع الأطفال في سعادة أبدية، وكيف أنَّا أنشأنا بيتًا أعمدته من الحب الممتزج بالطاعة، وسقفه من الدين الذي يحمي من أي خطر...".

- ما الذي يوقظك يا عمار في هذه الأوقات الساكنة؟

سأله عبدُ الله، ذلك الشاب البشوش الذي قابله أول مرة يوم وفاة والديه وصبَّره.

- أخط إحدى الرسائل التي ما زال يصبر بها قلبي مرارة الحنين.

- ما قصتك يا عمَّار؟ مجاهد مثلك أنتَ لم يسلم من شباك الحب وحرقة الشوق، يا لفعل الحب!

- وما أدراك ما الحب!، إن كان كما يُرضي الله فالسعادة التي فيه تخبرنا أن الجنة حق، فكل

شعور طيب في هذه الحياة إنما هو إحدى آيات الله التي تدل على حقيقة الجنة، والحب شعور من الجنة..

عندما تأسرك شباكه التي تطرز بأسمى المشاعر، حبالها منسوجة بالسعادة والهناء، شباك تصطادك من مرارة الوحدة إلى هناء الألفة..

أحببتُ –يا عبدالله– يمانًا منذ اللحظة الأولى التي وقعت عيناي عليها، فتاة ملائكية، برغم وجهها المنير، إلا أنني لا أعلم ما الذي جذبني إليها كل هذا الانجذاب، كانت بردائها المحتشم وردة في وسط أرض يباب.

كمثل ينبوع من الماء في أرض صحراوية، نبع من الحياء الذي كان يفيض منها سقى قلبي، جعله سكرانا بلا خمر!

- يا لقولك يا عمار!، ما زلتَ تأسر القلوب بلسانك، جمع الله بينكما على خير.

_اللهم آمين.

نظر عمار إلى صفحة السماء، وتساءل كعادته:

"تُرى كيف حالها اليوم؟، أهي بخير في ظلِّ هذه الحرب؟، تتذكرني وتدعو لي في صلاتها كما أدعو؟، يا تُرى يا تُرى يا تُرى؟.. آهٍ من الأسئلة التي لا إجابة لها عندي!، فها أنا وحدي دونك أدفع المهر الذي تستحقين!".

وذهب يطرق باب النوم بعد هذا اليوم الذي ودَّع فيه الأحباب، وفتح له الحلم أبوابه ليرى يمانًا..

***

في الصباح، أكملوا الطريق نحو (كيرا)، كانت مدينة عصيَّة بحق، وقعت على أبوابها معاركُ طويلةٌ مؤلمة ولم تُحرَّر بعد.

استطاع خالد أن يطوقها بجنده ويحاصرها، كان قد أمَّنَ جيشه بمضادات الطائرات التي جلبها معه؛ ليرد أي قصف بطائرة من مكان مكشوف مما جعل جيش الطاغية يضعف أكثر أمامهم!

ثم في جوف ليلة من الليالي.. خرج أحد رجال المدينة الشجعان وفتح الباب لهم، وبذلك استطاعوا فتح (كيرا) أخيرًا، وأذاقوا مرادًا وجنده مرارة ما كان يفعله من خيانة، ولكن شتان بين جيش فتح له الرجال أبوابهم حتى يخلصهم، وبين خونة دخلوا في بيوت رجال ليسرقوها!

وتابعوا المسير حتى سيطروا على كثير من القرى، انضم للجيش الكثيرون، وحرروا بعض المدن التي فرح الأهالي فيها فرحًا شديدًا!

وبعد شهر من المعارك الطويلة، استطاعوا أن يفتحوا أخيرًا حصن (**الدير**)، ذلك الذي كان يطل على مدينة (الرأس) التي يصبو إليه خالد، بنفس الطريقة التي فُتحت بها (كيرا)، كان ذلك يزيد الرجال قوة، علمهم أن أهل البلاد هم الذين يدعمونهم على هذا القاتل أمدهم بالقوة والعزيمة والإصرار على النصر.

دخلوا الحصن، العاصمة تبدو من بعيد ولكن قلعة الحصن كانت أقرب المناطق إليها. من هناك حاولوا أكثر من مرة اقتحام العاصمة، ولكن كلما حاولوا أن يقتحموا أسوارها المنيعة فشلوا، وخسروا الجنود فأمر القائد أن تبقى فيها حامية للمعركة الحاسمة.

❋❋❋

في هذه اللحظة أتى القائد خالد بحمزة، وقرر أن يعدمه ليُري مرادًا مرارة الفقد التي أذاقها هنا للرجال كثيرًا.

أتى به وقطع رأسه، ثم وضعها في صندوق خشبي، وأمر جندي من السجن أن يذهب به إلى مراد!

عندما وصل الجندي إلى العاصمة فارًّا خائفًا، قَصَّ على مراد القصص وكيف نمى ذلك الجيش، واستطاع بعد أخذ مطار (الدار) أن يسيطر بالطائرات على كثير من المواقع الهامة حتى وصل إلى الحصن، ثم أعطاه الصندوق.

فتحه مراد ليرى ما حَجَّر عيونَه في محاجرها، وشلَّ لسانه، وصبَّ العرق من جبينه صبًّا! بعد لحظات صرخ بأعلى صوته فزعًا:

"ما هذا؟!.. حمزة!"!، أيها المتمردون والله لأذيقكم الموت أضعافًا!

***

بعدما خرج الجيش الصغير من (سور)، تآخى الكل في تلك المدينة، فاستقبل كل رجل أخاه الذي لا بيت له، تقاسم الكل كل شيء، وعاشت المدينة حياة جميلة، بعدما حُررت من هذا الطاغية.

تم توزيع الأسر في بيوت متفرقة بعدما فقدت أهلها وأصبحت خاوية، وانتقلت أسرة الشيخ أسعد إلى منزل صغير حتى يأويهم.

كانت يمان تجلس مع أخيها والشيخ أسعد، وصلت الأخبار بأنَّ خيانة حدثت ومات الكثير من الجنود الصابرين!

تلقت يمان الخبر فكان وقعه عليها كصخرة وقعت من الجبل على رأس طفل، فلا يحيى بعدها أبدًا!

دموعها سالت كما لو أن عيونها سحابة شديدة في شتاء الصحراء، فلا شتاء الصحراء يسقي أحدًا، ولا دمع يمانٍ يشفي قلبًا!..

ولكن هيهات أن تيأس عاشقة كانت موصولة بالله، وقفت تجاه قبلتها و رفعت أكفها في تضرع وابتهلت في خشوع وقالت:

"اللهم إنَّ في قلبي جزء من روحه فسلِّمها!".

وصمتت بعدها، لم تخش عليه، ارتمت على سريرها وقالت:

"والله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين" .

وذهبت لتلقاه في حلمها..

كانت يمان تعلم أنَّ الحب أقوى من أيِّ شيء، إن كان قائمًا على طاعة وقوامه الدعاء، يُسقى بماء زمزم، فلا الماء ينقطع، ولا البعد يقطع أرواحًا تلاقت رغم بعد الأجساد وطول المسافات!

وتوالت الأيام ويمان تفكر في الجيش وتدعو لعمار، توالت أخبار الانتصارات حتى وصل الجيش إلى شمال النهر بعدما سيطر على جنوبه فكانت تلك الأخبار كفيلة بجعل يمان سعيدة.

في صباح أحد الأيام وبينما يمان تجلس أمام منزلها تشاهد أخيها يلعب مع الأطفال نادتها أميرة:

- كيف حالك يا يمان؟

- الحمد لله بخير.

- أتدرين يا يمان.. لو كانت لدي مَلَكة الكتابة، لأرَّخْتُ حبكما في كتاب.

- لماذا؟

- قصة حبكما غريبة كغرابة الروايات، حبٌّ بلا كلمة واحدة بين الطرفين، نمى كما نمت الثورة في يومها الأول، عندما التقت العيون فرمت القلوب بسهامها التي لا تخطئ أبدًا، وكأنها وحشيٌّ إذ يقذف حربته!

- رده الله إلينا يا أميرة.. رده الله.

- اللهم آمين، ولكن قولي لي يا يمان كيـــ...

*****

جاءت الطائرات مباغتةً في الصباح على غير العادة، عددها كبير ضرب كل المضادات التي لم تتهيأ لهذا القصف الباكر!..

القذائف تسقط من السماء، كهطول المطر، تثير تراب الأرض، وتنزع كلَّ ما كان فيه حياة، فيسقط التراب على النار، فيدفن الأرواح التي خرجت، حوَّل المدينة إلى قبر كبير!

"احترسي يا يمان"!

صرخ الشيخ أسعد في صوت تشوبه نظرات الخوف، وجرت والدتها تحتضنه، والقذائف تسقط في المدينة تباعًا.

لم تتوقف الطائرات إلا بعدما أُبيدت المدينة!

فُرشت الأرض بالموت!.. بأطفال محترقين، وأشلاء ممزقة لنساءٍ تجد يدها بعيدة عن جسدها تحمل رضيعًا قد تفحَّم، وأخرى ماتت ومات ولدها بين أحضانها!

لم يسلم شيء من ذلك القصف حتى المسجد الذي كانوا يحتمون فيه، فقد جعله الطاغية هدفه، وأخذ يقصفه بلا هوادة، كأنَّه يريد أن يقطع تعلَّقهم بالله، ولكن هيهات!

فعل ذلك ولم تبق به صخرة على صخرة، بل أصبحت مجموعة متهالكة من صخور مترامية، أنقاض سقطت فدفنت من كان بداخله، فخلصتهم من ضيق هذه الدنيا إلى فسحة الآخرة.

بات المشهد مفجعًا بكل ما تحمله الكلمة، ولكن ما عجزت عنه الكلمة قد سطرته النيران..

عندما فُحَّمت أسرة فبقيت كما ماتت!، تمثالاً أسودَ، دلَّ على الظلم، دل على القهر، دل على قسوة الحياة!؛ ليبقى شاهدا على ظلم الطغاة، وفساد المستبدين الذين فاقوا في قسوتهم أشد أنواع الحيوانات ضراوة!

أب وأم ينظران مبتسمَين إلى بعضهما البعض، تشابكت أيديهما، فكأنَّ وجههما الملتصق وأيديهما المتشابكة مظلةٌ لهذين الطفلين اللذان تمسَّكا بهما وملامح الأسى والرعب على وجهيهما تروي مأساة شعب حكمه طاغية!

غاب القصف، وظلت النيران مشتعلة، كل شيءٍ أصبح لا حياة فيه، هكذا كانت النهاية! وبقي في البلدة تمثال الأسرة الأسود، وذكرى العاشقين!

قد فعل ذلك مراد انتقامًا لموت أخيه، أبى للطيبين أن يعيشوها بسلام، أرسل الغارة المشؤومة على (سور)؛ انتقامًا من الجيش الذي خرج منها طالبًا الحرية في وطن سلبه اللصوص!

أتوا كما تأتي الغربان على جثة لا حول لها ولا قوة، تأكل فيها وتقطع في لحمها!

*****

استيقظ المجاهدون من النوم، ترك خالد حامية في الحصن، ثم قرر العودة إلى مطار (الدار)؛ حتى يرتب الصفوف ويبحث مع القادة عن إمكانية لكسر حصون العاصمة.

وأكملوا سيرهم إلى المقر، وبينما هم في الطريق قال عبدالله:

- لماذا كنتَ عابسًا يوم رأيتك أول مرة يا عمار؟

تأثر عمار بسؤال صاحبه وبدت ملامح الحزن وَضَّاحةً على وجهه، ثم قال وهو ينظر على السماء بعدما تنهد:

- كان يوم فقدتُ والداي، كان الألم لا يوصف.

- رحمهما الله يا عمار، أعتذر.

- لا عليك يا عبدالله.

***

عندما وصل الجميع إلى المقر، حينها استلقى عمار إلى شجرة، وأغمض عينيه ليرى كيف تتابعت الأحداث، ثم أخرج رفيقه ليكتب..

"ها هي الحرب لم تنته بعد، هزيمة هنا وانتصار هناك..

خسرنا كثيرًا، وخسر الطغاة أيضًا، جراحنا لم تلتئم إلى الآن، أصبحت الأرض محمرة من كثرة الدماء، ولكن ضعف معها الطاغية وقومه..

رأيتُ كيف عَلِمَ الكثيرون أنَّ الطغاة لا يعطوننا وطنًا، ولكن يعطوننا حياةً مُذلة..

كحياة الكلب عندما تقيده بطوق حول عنقه، فأين الحرية في ظلِّ ذلك القيد الذي يجعله يتحرك كما أراد المالك؟!، أكلُه ما أراده المالك، نومه كما أراد، كلُّ شيء وفق إرادته هو ليس إلا!، فهل في ذلك حرية؟!".

مع الليل أعلَم القائد خالد الجميع أنهم سيجتمعون في الغد لبحث الخطة، ذهب الجميع للنوم وقال عبدالله لعمار:

- ألن تتغير ملامحك الحزينة يا عمار؟

_ وأنَّى لي هذا وقد خسرت الأهل والأصحاب، ولا علم لي بحبيب أشتاق إليه؟!

- ما زال هناك بعض الأصحاب، سيكونون درعك أمام أي حزن.

- لكن من عاشوا معنا منذ الصغر، وشاهدوا كل ما مررنا به!، آهٍ!.. حينما يذهبون، فمن لنا نلوذ به!، غابت أجسادهم عني، ولكنهم أحياء في ذاكرتي، أو ربما أنا من أحيا بهم!

– خفف الله عنك يا صديقي، ولكني معك عندما تريد.

– اللهم استجب، جزاك الله خيرًا يا عبد الله.

– ما مررتَ به يا عمار مِن فَقدٍ وحب غريب، حقًّا دائمًا ما تُخفي الحروب في طياتها روايات وحكايات لا تصدقها عقول السامعين.

– ربما سنرويها عندما ننتصر، دعنا نفكِّر في خطة، فلقاؤنا مع القائد صباحًا، ولم نجد خطة لاختراق الحصون بعد!

وذهب عبدالله ، أراد النوم –أو ربما البحث عن خطة ضاعت من عقولهم إلى اليوم– أمّا عمار فكعادته لم ينم؛ فضوء القمر المتدلي مع نسمات الليل التي تريح القلب، وتسعد الجسد، ذكرته بأميرته!

أخرج دفتره وظل يكتب في رسائله ومشاعره:

"ما زلتُ أذكرها، أسمعها مع كل عصفور يغرد، مع كل طلقة أطلقتُها وهي تناديني في الثورة حينما سألت الحرية، وأجيب في نفسي لبيك..

أراها في كل انتصار تنادي سيأتي الوطن سيأتي الوطن!، أراها في كل شروق بوجهها المبتسم الذي يشفي من به ألم، أراها مع كل طريق أرى فيه الزهور المتفتحة فأشم عبيرها، عبير يمان الذي فاح فاستنشقت الزهور فيضه!.. أراها في كل قطرة مطر حينما تداعب أثناء سقوطها خيوط البدر فتبدو كلؤلؤة خرجت من صدفتها، وأسرت العين!..

كنت أُحادثها في كل ليلة على عتبات الحلم، فحينما تتباعد الأجساد فإنَّ النوم بوابة الأرواح، فيه تتلاقى العيون كما تلاقت أول مرة، فتشعل في القلب جمال الحب، وتعلي في النفس قيمة اللقاء!..

أراها في نومي فأكون عندها كَهِرٍّ صغير وهي كأمي القطة، أنام في حضنها وتداعبني فأكون أهنأ مَن على وجه الأرض!؛ فكما نعلم الحضن هو أكثر الأماكن اتساعًا في الكون -على ضيق مساحته- ما دام بين أيادي الحبيب، والكون كله ضيق على قلوب المشتاق ما دام حبيبه بعيدا!".

أغلق عمار دفتره وذهب للنوم..

وهكذا فرَّ بالنوم إلى أرض الأحلام ولم يستيقظ إلا على صيحة رسول القائد خالد للاجتماع.

استفاق الجميع من نومهم، وتجمعوا في الساحة، وبدأ القائد خالد وقال:

"تهيج الذكريات.. ذكريات الطفولة، الأصحاب، الأهل، الأحباب..

كل واحد منا بصدره جرح لا يشفيه الطبيب، فبعض الجروح لا يشفيها زمان مهما تعاقبت لياليه، والأيام هي أمهر الأطباء!..

وإن كانت عادة الأيام تلين الصخور وتكسرها، فأيامنا كريح يمر على بقايا نار ما زال فيها حمرة فتحييها فينا من جديد!..

كم يا ترى فقدنا في هذه السنوات؟!، و كم يا ترى عدد الأحباب الذين فارقناهم؟!، هذا في أسر وذاك في قبر!..

ثلاثة أعوام بلا راحة ولا سكون، كلُّ ما فيها مؤلم، هذه عادة الحروب لا رحمة فيها لقلب، يشيخ فيها الصبي فترى آثار الشيخوخة في عينيه دالة على تجاعيد قلبه، فهذه العيون التي في رأس الصغير قد شابت، وإذا شابت العيون فقد مات القلب!..

ولكن كيف لعينه ألا تشيب؟!؛ ألم ترَ ما لم يره شيخ فاق السبعين عمره، فدعونا يا أبطال نضع نهاية للحرب!".

***

كانت كلماته بأنّهم قد أوشكوا على إنهاءِ الحرب -على ما فيها من أمل- مليئة بالشجون والآلام، جعلت من مشاعر عمار محيطاً من الذكريات المؤلمة، ليس فقط محيطًا، بل أصبح تعلوه عاصفة تحرك أمواجه التي تلتطم بقسوة في قلبه! ، فتفتك به كما تفتك الفيضانات بأراض خصبة!

وجمع القائد بعد ذلك بعض الأشخاص الذين يرى فيهم الثقة، كان عمار وعبدالله من بينهم، اجتمعوا وبدأ القائد خالد الحديث:

"لقد بدأنا ثورتنا في بلدة صغيرة، بدأتم بثورة مسالمين طالبتم فيها بالاستقلال والحرية، رفعتم راية الحق، وأردتم أن تستردوا دينكم ووطنكم، تعالت هتافاتكم حتى وصلت إلى قاعات الخائن مراد..

ضايقته الأصوات العالية؛ فمثله لا يهوى إلا سماع صرخات التعذيب ومطالبة المكلومين بالرحمة في تضرع وذل، كأنّه تحول إلى وحش؛ وما بالكم إذا تحول الوحش إلى وحش؟!.. يصبح أمامه الغول حَملًا وديعًا لا تخشى مضاربه، ولا يهاب أحد من صوته، ولا يضرب به المثل في الرعب ولا القبح..

هاج مراد آمرًا جنوده المحتلين في أن يخرجوا بالطائرات والمدافع على الآمنين، وقال: "اقتلوا كل من ردد كلمة مناهضة لحكمي!"!..

كانت الكلمات علينا كوقع الصواعق على نبتة خضراء أحرقتها!.. كنا -نحن الجنود المأسورين للخدمة- من عهد الملك نكره ذلك الطاغية المستعمر الذي سرق

أحلامنا، نتذكر في كل ليلة بلدتنا حينما كانت تعلو فيها الطيور المنشدة أجمل الألحان تحيي بها قلوب الذين تملَّك منهم اليأس!..

لكننا لم نتوقع أن يخون واحد منا دينه ووطنه بهذه الطريقة، ذلك الخائن مراد -الذي قبل أن يعمل لدى جاكون بل ويكون أميرًا له على مطار البلدة وأول من يعمل على قصفها!-، كانت هذه الأخبار لما جاءتنا في تلك الليلة عندما عاد إلى جاكون يضحك ويشرب معه نخب انتصاره على أهله وعشيرته بالخيانة سارت كريات الغضب في عروقنا وبات الحزن يغرقنا عندما جاء معه وبدأ يسخر منا ومن حميتنا لأهلنا ووطننا، ظل يحكي أمامنا له كيف ضرب الآمنين في الليل مع الفجر لينتقم منهم!..

لم نكن نفعل ذلك حتى مع العدو أن نهجم على الآمنين في وقت نومهم، فكيف هان عليه الضعفاء!.. لم نفهم ذلك قط!

ظللنا في تلك الليلة نندب حظنا ونتذكر أيامنا الحرة في بلادنا.. نتذكر السلام الذي كنا نُعرَف به، نجدتنا للضعفاء في كل وقت بلا استئذان.

فاشتقنا لهذه الأيام، وقررنا الهروب مما نحن فيه ونعود إلى أراضينا لنناضل معكم وننتصر، أو نموت فنحيا!، وقرَّرنا نحن مجموعة من الأصدقاء المأسورين الأحرار -الذين ربما ظنَّ البعض أنهم باعوا أوطانهم رخيصة للمستعمر- أن نهرب منهم في جوف الليل بنور الصدق الذي في قلوبنا، حاملين أرواحنا في أيادينا، لم نخش الموت؛ فقد كنا أمواتًا!..

خرجنا، وحدث ما حدث حيث كانت الرصاصات هائجةً كما هاج (جاكون)!..

الموت أقرب إلينا من شراك نعالنا، أمسكت بيد صديقي حاولنا الهرب وسـ...

"**أيها القائد!**".. -صوت قاطعه بهلع-:

لقد أُبيدت بلدة (سور) بأكملها قبل أيام!، وأشكال الموت هناك لا يستطيع أن يصفها لسان!، وكلُّ الأخبار تقول أنه لا يوجد في المدينة من نجى، ولكن قليلون قالوا أن البعض قد فرَّ، ولا ندري ما الحقيقة!، كانت ضربته بعدما رأى رأس أخيه، ثأر من الآمنين العُزَّل.

- ماذا؟!.. يمان!

- ماتت!

- لا.. لا، بالطبع لم تمت، كيف تموت؟!، وأين سيكون المستقبل الذي أسعى له؟!، كيف لها أن تتركني وتذهب هي الأخرى؟!، بالطبع هي حية.

- وهل يبقى لمثلك بقايا أمل، مات أبوك وأمك وأمين، لماذا ستبقى يمان؟!.. من هم مثلك لا يجب أن يتمسكوا بالآمال الكاذبة، واجه حقيقتك المريرة!

- لا تقل ذلك!؛ لمن سأعيش؟!، ولماذا أبتسم بعد اليوم؟!

هكذا اشتعل الحوار في عقل عمار، لكنه لم يبح به؛ لم يستطع أن يحرك لسانه، فقط نظر إلى مصدر الصوت، واتسعت عيونه، وفرت دمعة هاربة من عين لم تجف!

وقال في نفسه:

"فهذه يمان، يبدو أنها تركتني وذهبت هي الأخرى!، فيا تُرى لِمَ العيش وقد ذهب كل الأحباب ومات كل الأصحاب؟!، كم أتمنى أن ينتهي هذا كله!، وأن أسمع صوت آخر رصاصة حتى وإن كانت ستستقر في صدري!".

****

(١٦)

﴿شُرُوقٌ بَعْدَ لَيلٍ طَوِيلٍ﴾

سقطت الأخبار كالصاعقة، وأثارت المشاعر، وهيجت القلوب، حتى كادت أن تتحطم!، ثم صبر الجميع وترحَّم عليهم، وقال لهم خالد:

"كلما زادت همجية الطاغية، كلما أدرك أن نهايته قد حانت، لذا اصبروا فلا يُسترد حق إلا بدماء وتضحية، ولا راية تعلو إلا بعرق يسقط".

لكنَّ عمارًا لم ينتبه، اشتعلت في رأسه وساوس عصفت به، فهاجت مشاعره المكتومة، وحرَّكت في قاع ذلك الفيضان زلزال، فاستحال الفيضان فيضانين!

وأصبحت العاصفة إعصارًا يجتث مشاعره من جذورها، يجذب الدموع من مقلتيه، ويحرق رأسه بالتساؤلات التي لم يرد أن يصدقها، وظلت الصرخات الصامتة تضرب في رأسه..

"هل ماتت يمان؟!.. ألن يُكتب لقلبينا أبدًا أن يجتمعا؟!..

ثم تتحرج في صدره صرخة تستنجد الله!

يا رب.. هذان قلبان تحابا فيك، صبرا وناضلا، نمى حبُّهما دونما كلمات، لم يمت رغم بعد المسافات، فهل ستموت الأجساد؟!"!

نظر إلى السماء وخرج هائمًا غاضبًا كالمجنون!، أينما نظر وجد صورتها تظهر له فيجري نحوها، ثم يجدها سراب يختفي!..

❋❋❋

أصبح كمن تاه في الصحراء، فحاربه العطش وبات يظهر له الماء، فيجري نحوه مسرعًا، لكنه يجده صحراء جرداء لا حياة فيها ولا ماء!

هكذا أصبح حاله، يهيم في خيالاته ولكنه في النهاية يرى أنه سراب لا حقيقة فيه، ولما حاول أن يبصر صورتها وجدها غابت عنه، فالقمر لم يأت بعد!

وقف عمار في منتصف الساحة يضرب الأرض كالمجنون، يحفر في الأرض بالفأس بلا كلل ولا ملل، فلعلّها تظهر خلف هذا السراب الذي يقول له اضرب، ولكنه ينتهي بالحقيقة المؤلمة.

يراها تسقط في التراب كأنّ صورتها ماء تمتصه الأرض، فيضرب ويعدو خلفها، وتذهب أبعد.. فأبعد.. فأبعد، وهو يجري؛ باحثًا عن أمل، ولكن هيهات!

مر النهار كلُّه وعمار ما زال يضرب، فمع الضربات يخرج غضبه النابع من بركان ثائر في رأسه يحرق فكره!

حاول الجميع أن يمنعوه ويطعموه، حاولوا أن يفعلوا أي شيء يخرجه مما سقط فيه، ولكن أنّى لطير كُسرَ جناحه أن يطير؟!

قال لهم خالد اتركوه يخرج ما به، ثم نظر إليه في إشفاق شديد وحدث نفسه بحزن:

"مؤلمة تلك الحياة عندما تقسو على الطيبين، أولئك الذين صدقوا في السير فأعيتهم المِحَن، يشاهدون قصفًا و حرقًا و تعذيبًا في السجون، يشاهدون الموت مع كل روح حبيب لهم تُزهق، حتى يتمنى القلب لو أنه مات قبل أن يرى مشاهد كتلك!، ولكنهم وإن لم تمت أجسادهم، فقد اغتالت قلوبهم مرارة الحنين لشيء طيب ما عاد موجودٌ فيها!، ما أتعس الحياة عندما تذيقنا شمسَ الحب، ثم يلقينا في ظُلَمٍ كثيرة..

ظلمة الشوق، وظلمة الوحدة، وظلمة الماضي الحاضر!

ظلمات بعضها فوق بعض، وهناك حيث لا يرى القلب، تطعن من الخلف، فيكون الموت بلا دموع، أقسى من الموت الحقيقي!؛ ففي الغياب، أرواحنا تفر من أجسادنا بحثًا عن هؤلاء، ولكن لا أمل لها، ولا نور تُبصر فيه، فلا يهنئون بعيش، فيسقطون في ظلمات لا تنتهي!".

***

وبينما هو في خِضمِّ أحاديثه الشجية ينظر إلى عمار المكلوم، إذ برأسه وضَّحت له قبسًا من أمل على حين غفلة، فصرخ:

"الله أكبر.. وجدتُ الخطة!"!

خرجت الكلمات من القائد خالد باعثة الأمل للأرواح الميتة!

أنقذ عمارًا من الفيضان والغرق، فقد حوَّلت الكلمة بركان عمار اليائس إلى بركان يتأجج قبل أن يثور على عدوه الأوحد.

وجد عمار الثأر والقوة شعر بأنه –أخيرًا– سينتقم، البركان الذي في صدره سيحرق القاتلين، والإعصار سيرمي بجثثهم العفنة في قاع المحيط الذي ما زال يحركه الزلزال.

الجميع في ذهول لا يدرون عن ماذا يتحدث، ينظرون إلى القائد في خوف وينتظرون..

"سبحان الله العظيم!.. دائمًا ما يرينا الحلول البسيطة عندما نيأس مما في أيادينا، إن الأزمات والشدائد خلقها الله رحم الفرَج يا عمَّار، ومن كربتك قد أدركتُ كيف سنحقق النصر، والحصن المنيع الذي لا نستطيع الوصول إليه سنخترقه عبر الأرض!"!

علت في الجو غَمْغَماتُ التعجب! ، الكل يسأل: "كيف هذا؟!"؛ فمدينة الرأس محصنة على أعلى درجة، ومراد جالس في قصر وسْط المدينة، يحيط المدينة سورٌ كبير عليه أسطول من المدافع التي تقصف على بعد مئات الأمتار! ، بها حوالي ثلاثون ألف جندي يحمون المدينة والسور، منهم من يقف على الأبراج يقنص من يقترب.

والناحية الأخرى من المدينة تطل على النهر، سورها عبارة عن مدافع في كل الاتجاهات لا ينام حرَّاسها، لا سفينة تخرج ولا تأتي إلا بعلم مسبق!

وتساءل عمار في صوت لا يكاد يسمعه أحد:

"كيف لنا أن نفعل؟!، ربما الوسيلة الوحيدة من تحت الأرض ولكننا بشر!".

فأنهى القائد تعجبهم وقال:

"سنأتيهم من تحتهم كما قلتُ، والآن أريد فلانًا وفلانًا وفلانًا؛ لنعد الخطة بإتقان".

سمَّى بعض الرجال ممن يثق بهم تحسبًا لأي خيانة، ولا أحد يفهم، وكان عمار من بين المعدودين!

عندما دخل الرجال الغرفة واجتمعوا مع القائد أمرهم أن يجلسوا ثم قال:

"سنحفر الخنادق، ولكنَّها ستصل إلى أسفل المدينة كلها، أنصتوا وصفوا أذهانكم، سننشئ كتيبتين، كل واحدة من ألف..

أمَّا الألف الأولى فسيحفرون الخندق كما ألهمني عمار، سيتخذون من قلعة حصن (الدير) مقرًا لهم، يحفرون منها الخنادق إلى أن يصلوا إلى العاصمة، ويفجرون من تحتها القنابل، فنجعل عاليَها سافِلَها..

أريد عشرة مواضع تحت المدينة، كل مائة يحفرون واحدًا بالتناوب بينهم، ومعكم رجال الحصن

للحماية..

أهمُّ الخنادق ذلك الذي يعلوه المطار؛ لكي لا ينقضوا على أبرياء، ولكي تسقط معه دفاعاتهم ضد الطائرات..

أما الألف الأخرى سنذهب ونخيم على شاطئ النهر، وأرى أمهر الرجال في السباحة وأطولهم نفسًا، ستكون عمليتهم الأصعب، ولكنها ستكشف لنا ثغرة للطائرات التي نملكها من ظهر المدينة..

بعد الانفجار، تنهار كل دفاعات المدينة..

في النهاية، استعينوا بالله، سنتحرك اليوم مع الليل، تذكروا وطنكم، ضحوا لدينكم وأهلكم وأصحابكم، تذكروا أنكم من بدأتم معنا، ومنكم من كان أبوه من قادة الحركة، ومات دونها رافع الرأس، فحققوا لهم آمالهم، ولا تظنوا أن من مات منهم جاعلًا روحه أزهد ما يقدمه للوطن أحمق أو مجنون؛ فأولئك الذين وقفوا أمام الطغيان، حاملين أرواحهم على أكُفِّهم من أجل لحظة يشعرون فيها بالحرية المطلقة، باعوا عمرهم كله من أجل نقطة توقف عندها معنى الزمن، هي قمة القوة وأسمى معاني الحرية، فقد باعوا بقية عمرهم من أجلها، هؤلاء هم الأبطال حقا".

خرجوا إلى باقي الجنود وقال:

"يا أيها الناس.. سنختار مجموعتين من المقاتلين، وستكون المجموعة الأولى مقرَّها عند قلعة كيرا وقائدها عمَّار، وهذا كتاب مختوم لرجال الحصن، تحركوا في الليل وسيخبركم خطتكم".

"ماذا؟! عمَّار!"

نظر عمار إلى القائد في تعجب لما سمع اسمه ودارت الأفكار من جديد..

"في هذه الأوقات؟!.. كيف؟!؛ عقلي ليس معي، هو في أرض أخرى يحاول أن يمسك بأيِّ أثر يتعلق به في أي أمل، ولكن لا سبيل للاعتراض!".

تَعمَّد القائد خالد فعل ذلك؛ لأنه أعلم بعمار، يعلم أن بداخله طاقة عظيمة وإن تركه لوساوسه ربما ستقضي عليه، يعلم أنه رجل أينما وُضع وفَّى وبذلك أنقذه من كل أفكار لديه.

أكمل القائد كلمته..

"أما الألف الثانية قاعدتكم عند النهر، استعدوا للتدريب، وأنا من سيشرف على التدريبات".

حاول عمار أن يختارهم بدقة، فاختار مائة ممن يثق بهم، وجعل كل واحد منهم يختار عشرة ممن يثق بهم، وبذلك جمع أكثر الناس ثقة في رأيه، لأن الخطة لا بد أن تبقى سرية.

تحرك عمار ومجموعته مع بدايات الليل، ولما قطعوا نصف المسافة أخذوا برهة للراحة، جلس عمار أخرج صديقة الجديد وقلمه..

"تأملتُ السماء كعادتي فإذا بالقمر يتعاطف معي، لم يبدُ بدرًا في ذلك اليوم يخبرني أن اليأس هو النهاية، وأن العاشقين لا سبيل للقائهم!..

لكنَّه بدا هلالًا يدل على أنَّ الضربة لا بد أن تأتي وتقطع في كلِّ ما هو جميل الشكل، يقول بشكله أن ضربة القدر لي قد أعيته معي، أو ربما ظننت ذلك!..

ما زلتُ أفكر في يمان في كل خطوة، هي الأمل الوحيد الذي كنت أتعلق به في حياتي، النفس الذي يخرج حاملًا معه حرارة القلب، لكن..

ماذا أقول؟!، لقد سقط الحبل الذي تعلَّقتُ به، فهويت إلى ما لا قعر له، لا أدري إلى أين!، ما زلتُ أسقط وأسقط إلى ما لا نهاية، فقط ظلام..

ورغم ذلك، تبدو لي في الأعلى صورتها، في النجوم الساطعة، فحال النجوم كحال يمان، دائمًا ما تنير لي الطريق، حتى وإن كانت بعيدة عن يدي إلا أنها معي في كلِّ وقت وحين، لا تغيب..

آهٍ من الألم!، كم كانت تبدو لي في الأزهار البيضاء النقية السابحة على الحشائش الخضراء في الطريق، كل شيء جميل أراها فيه..

يا حسرتي!، يا لصراخي المكتوم خلف وجهي الصامد الذي لو كشف أحدهم سره، لأغرقه فيضان الدموع..
هل كل ذلك الجمال تبدد؟!، أم هل ما زالت هناك؟
يا رب، أنا مُتعَب وحيد خائف، فكن معي، وأعِنّي على ما في رأسي من خوف وأمنيةَ".

كتب عمار الكلمة، فقاطعه الصوت من خلفه كأنه يسمعه:

- لا تفقد الأمل.

أجابه في يأسه الذي عاداه كثيرًا وأخفاه محبوسًا في صدره:

- عبدالله!، وكيف لا أفقده؟!

- أتظن أنَّ الله يخذل عبدًا جعل رجاءه فيه؟!

- لا، لكن الحزن يغلبنا.

- يا صاحبي.. ألم تقرأ في يوم عن فتى أُخذَ من أهله وبات عبدًا، فمظلومًا، فسجينًا، فبريئًا، فملكًا، بل وفي ريحه ضوء يأتي إلى عين أظلمت، فقط حينما قال أبوه: فصبرٌ جميلٌ؟

- بلى قرأتُ، وظني في ربي خير.

وضع عبدالله يده على كتفه وابتسم، وقال:

- كن مع الله ولا تبالي.

ابتسم عمار براحة عجيبة!؛ أراحت الكلمات قلبه، أعطاه مخدره الذي يسكن جروحه كلما اشتعلت، ترتيبه لقصة سيدنا يوسف فيه أمل ورضًا بقضاء الله.

***

أكملوا سيرهم بعدما استراحوا، عبروا النهر ثم ما لبثوا حتى وصلوا إلى الحصن.

قال عمار للجنود أن يدخلوا متفرقين من باب القلعة الخلفي، مائة بمائة حتى لا يرى

العدو زحماهم فيعرف أن هناك مددًا، فيهجم عليهم، ثم فتحت حامية الجيش لهم الباب، ودخلوا إلى هناك آمنين، رحبوا بهم وأعطوهم الماء والطعام.

طلب عمار قائد الحامية فجاءه..

- نعم أنا القائد محمد.

- أهلا بك، هذا كتاب من القائد خالد.

أراه عمار الكتاب الذي صكه القائد، وقرأه محمد.

- حسنًا أخي، ننتظر التعليمات.

- شددوا الحراسة اليوم؛ لعل الطاغية رآنا.

- إن شاء الله.

ذهب الجميع بعدها للنوم الذي كانوا بحاجة إليه لعلهم ينسون مصائب الدهر، أو يرى أحدهم حلمًا جميلاً.

***

عند الفجر استيقظ الجميع للصلاة، وبعدها عاد الناس إلى أماكنهم، منهم من أخذ مكان صاحبه في الحراسة، ومنهم من ذهب ينال قسطًا من الراحة.

بعدما طلعت الشمس، كان لا بدَّ لهم أن يبدؤوا العمل.

طلب عمار من الناس أن تجتمع واستعار لسان القائد خالد ليخطب فيهم، كان في قلبه بعض الرهبة، لكنَّه استعان بالله وبدأ:

"أيها الجند الصادقون، إنما أنتم هنا أحياء، لأن لكل واحد منا من ضحى له صديق مات، أو أخ يرقد هناك في غياهب الأسر تعاديه قرون الشيطان!، قد دافعوا عن تلك الجنة التي قد أنزلها الله في أرضه لتكون شاهدة على حسن خلقه إلى يوم الدين..

قد ظنَّ الشيطان الأكبر أنكم جبناء تهابون الحرب وتخشون الأسر، فأخذ يضرب في أرضكم، ويستحيي نساءكم، ظنَّ أنه لا راد لحكمه، ولا رادع لضربه!، حتى قلتم بالعزم كلمتكم، وأشعلتم بالإقدام ثورتكم معلنين أن الدنيا هذه لا نحيا فيها إلا حياة كريمة، فلا نخاف موتًا ولا أسرًا، بل نهوى الموت الذي كان سُلَّمًا إلى جنة أعدها الله للصابرين المتقين..

فكونوا على العهد ثابتين، وإلى النصر ذاهبين، زلزلوا الأرض من تحت أقدام الطغاة المعتدين، حركوا الزلزال الذي في صدوركم، أثيروا البركان الذي كتمتموه طويلًا في قلوبكم، استعدوا لتشعلوا أرضه نارًا لا تنطفئ أبدا!..

قولوا له: "قد قدِمنا إليك ثائرين، كعاصفة الشتاء التي لا تردها حصون الأرض، أتت لتجتث رأسك من جسدك، كما تجتث الريح أشجار الأرض!"..

فاستعينوا بالله وكونوا ثابتين..

خطتنا هي حفر الخنادق حتى نصل إلى أرض العدو، فنفجرها من تحتهم لتكون زلزالًا، يسرق كل ما في قلوبهم من حياة..

عشر خنادق في قلب مدينتهم، وأهمها ما كان أسفل مطارهم، خذوا مواقعكم لنبدأ في العمل!".

***

قبل الحفر بدأ عمار يتذكر الطُّرُقات بكل ما استطاع من جُهدٍ؛ حتى يرسم خطوط الحفر في الأماكن التي يريدونها؛ تجنبًا لإصابة الناس، وبعد جهد شاق استطاع عمار أن يرسم الخطوط التي سوف يسيرون عليها في الحفر.

ثم بعد ذلك أخذ كل واحد مكانه.. سلاحهم الاستعانة بالله ثم الصبر وأدوات الحفر، ثم قرروا أن يكون العمق ثلاثة أمتار تحت الأرض.

قسموا كل مائة إلى أربع مجموعات يتناوبون الحفر كل ست ساعات، البعض يحفر والآخر يحمل مصابيحًا لتنير الطريق ثم يتبادلون، الكل يتعاون على العمل.

***

مع قدوم ليل أول أيام الحفر، كتب عمار مجددًا..

"أكتب إليكِ -وإن كنت لن تطلعين على ما أكتب!-، اليوم بدأنا وأنا ما زلتُ أستعين بنظرتك، في كل ضربة عندما تخِرُّ قوتي، أسمع صوتكِ الحاني يقول لي: "عُد بالوطن"، فأضرب بقوة تهز الأرض لا أكلُّ ولا أملُّ، سأعود بالوطن وسأثأر، سأنتقم من هؤلاء مهما كلفني ذلك!".

في الأسبوع الثالث من الحفر، حققوا تقدمًا ملحوظًا؛ فقد أنهو العمق وتقدموا خارج الحصن، الهمة كانت عالية، حفروا ما يقارب المائة متر، واستمر الحفر مدة خمسة أشهر كاملة حتى وصلوا إلى سور العاصمة، وهناك قابلتهم العقبة الحقيقية!

كانت الجدران عميقة في الأرض مما أعياهم، قرروا أن يتعمقوا أسفل منه حتى لا يشعر أحد بالطرق.

فأخذوا راحة من العمل وجلسوا في ذلك الخندق الطويل الذي حفروه هناك على أضواء المصابيح الخافتة، والهواء القليل.

ثم تحدثوا قليلاً.. فسأل عمار:

- هل لأحد منكم حبيب فقده؟

- أنا.

أجاب الفتى إسماعيل.. ذلك الشاب الصغير الذي لم يكد يصل إلى العشرين، ورغم ذلك كان وجهه راضيًا دائمًا، وعزيمته شديدة يعمل بجد لا يكل ولا يمل، تدور حول وجهه الأبيض هالة كأنه البدر ليلة التمام.

- ماذا جرى لك يا إسماعيل؟

- فقدتُ أخوَيَّ في ليلةٍ واحدة، كنتُ أصغرهم سنًا، فدافعا عني وقاما بحمياتي من أولئك الجنود الذين دخلوا علينا البيت وقالا لي: "اهرب من الباب الخلفي"، ووقفا يدافعان حتى رأيتهما وهما يموتان قبل أن أهرب، كنت صغيرًا حينها.

كان على وجه اسماعيل وهو يقص عليهم الحادث ابتسامة، وإن كانت حزينة شديدة الألم!، وأكمل قائلاً:

- لوَّح لي أخي الأكبر بيده التي احمرت من الدماء حتى أجري، فجريت لا أدري إلى أين في هلع.

- غفر الله لهما ورحمهما يا إسماعيل.

- هلَّا أنشد لنا أحدكم شيئًا يُريح القلب.

فقال إسماعيل في أدب:

- سأنشد لكم.

لَمَّا ذَكَرْتُ أَحِبَّتِي فِي بُعْدِهِمْ.. فرّتْ دُمُوعِى، وَاكْتَأَبْتُ تَأَلُّمَا
أَضْحَى بِـخَـدِّى بَعْدَ طُولِ مَسِيرِهَا شِقٌّ، وَعَينِى كَادَ يَقْتُلُهَا الْعَمَى
إِنَّ التَّذَكُّرَ لِلْحَبِيبِ مُعَذِّبٌ، وَالْعَقْلُ يَصْرُخُ فِي عَذَابٍ مُعْدَمَا
كَانُوا بِلَيلٍ لَا تَرَى بِسَوَادِهِ شَمْسًا تُنِيرُ الْقَلْبَ إِنْ هُوَ أَظْلَمَا!
وَكَأَنَّ صَوتَ نَـحِيبِهِمْ بِتِلَاوَةٍ طَيرًا سَعِيدًا فِي الصَّبَاحِ تَرَنَّمَا
جَعَلُوا مِنَ الرُّوحِ الثَّمِينَةِ عُمْلَةً؛ كَـىْ يَشْتَرُوا مَوتًا؛ يَكُونُ السُلَّمَا
نَحْوَ الْـجِنَانِ وَرِفْقَةٍ بِصِحَابِهِمْ، وَيَكُونُ عَيشُهُمُ هُنَاكَ مُكَرَّمَا
إِنِّي وَرَبِّ الْكَونِ لَسْتُ بِمَادِحٍ.. لَنْ تَبْلُغَ الْقِمَمَ الطِّوَالَ تَكَلُّمَا!
لَكِنَّ شَوقِي لِلْأَحِبَّةِ مُلْهِبٌ لِمَشَاعِرِى، فَبَكَيتُ أَنْظِمُ بَاسِمَا

كان صوته عذبًا، لم يكد يكمل الأبيات حتى بكوا جميعًا، بكوا بحرقة شديدة لم يفعلوها من قبل!

قال عمار وهو يبكي:

- لله دَرُّك يا إسماعيل؛ ذكَّرتَنا بأحبتنا الذين غابوا عنا.

بللت دموعهم الصادقة أرض الخندق وشحنتهم مجددًا بالطاقة والرغبة في الثأر.

أردف عمار:

"هيا نكمل لنتغلب على ذلك العائق...".

***

حفروا من تحته وأكملوا على ذلك حتى انتهوا.

أخذ الحفر شهرًا كاملاً حتى عبروا السور، أتموا منه عشرة تفريعات وتوزعوا في أغلب أماكن العاصمة، وعلموا أنهم قرب المطار بسبب الضجة التي كانت تسمع من حركة الطائرات، ثم وضعوا القنابل في مواضع الحفر وانتهوا بعد تسعة أشهر.

ولما عادوا إلى الحصن، وانتهوا من مهمتهم وقف عمار يخطب في الجنود:

"الكلُّ تعب في هذا العمل، ولكن أنهيناه بالعزم والجد، بالكفاح والرغبة في الانتقام، تعاونا وتعبنا وجعلنا لحظة النصر نُصب أعيننا، فكانت تهون علينا كل وجع..
سيكون القائد خالد سعيدًا بهذا العمل الذي كان ساحة من ساحات الجهاد".

تخلل العمل موت البعض، فلم يكن الطاغية يكف عن إرسال جنوده نحو الحصن في مناوشات لعلمه أهميتها، ولكنه لم يستطع إرسال طائرة بسبب مدافعهم الكثيرة.

كانت مناوشات في أوقات مختلفة، تارة في الليل يغدرون، لكنَّهم يجدون صقورًا على السور حامية للأبطال، تنقض على فريستها فتلتهمها، وتارة في وضح النهار فيجدون ليوثا تزأر في وجه الفريسة فتسكتها، فلا يجدون للدخول سبيل.

***

عاد عمار إلى القاعدة يخبر القائد بتمام المهمة ويأخذ الأمر النهائي منه.

وها قد عاد القائد خالد من النهر، معه الأبطال وقد أتموا التدريب.

وقف القائد بين الجميع، يعلن الخطة والموعد، وكيف سيكون الحِراك وقال:

"يا معشر الجنود.. الآن وقت الحصاد، الآن تكلل سنوات الكفاح لتبقى شاهدة على موت الطغيان أمام الشعوب..

سينتهي عهد الشياطين بالجنة، سنلقيهم الآن في جوف النار، إلى الجحيم الذي خُلقوا لأجله!..

الآن كل موتور سيثأر، كل جرح سيندمل، الليل الذي طال وطال مانعًا شروق الحرية عنَّا سينجلي، الزهرة التي رواها شهداء الأمس، ربيعها اليوم، سيفوح عطرها، ويكون رمزًا دائمًا للنضال و للكفاح و للمطالبة بالعيش الذي سلبوه..

الآن يا مراد، ستذوق مرارةَ الموت، وستعلم أنَّ لكل يوم نهاية، وأنَّ الظلم عاقبته الهلاك الذي لا يرحم!..

الآن يا أبطال نضع اللمسات الأخيرة فوق لوحتنا التي رُسمت بالدماء والتضحيات، الآن آخر صورة في اللوحة التي ستبقى خالدة على مر العصور!.. فإلى النصر، أو الموت!".

كبّر الجميع وتعالت الهتافات الحماسية، أصبح الصوت رائعًا كأنَّه طرق الطبول، تطرب الآذان لهذه الهتافات، إلى القتال، إلى النصر.

جمع قلة كما كانوا أول مرة وقال تفصيلات الخطة والأوامر:

"في تمام الساعة الواحدة بعد منتصف الليل سيتحرك جناح عمَّار، عشرة خنادق، في كل خندق مائة قنبلة في صندوقٍ به فتيل طويل ينتظر الاشتعال، ولكنه بمنتصف الطريق بين السور والحصن، لذا ستدخل جماعة تشعله وتخرج، عندها ستسقط المدينة معلنة بداية الحرية!..

في نفس الوقت تنطلق مجموعتنا المدربة على السباحة ومع كل واحد منهم قنبلة كبيرة تُوضع أسفل السور في مقر المدافع ناحية البحر، يربط فيها فتيل معلق على جدران السور، وتشعلوه بحذر؛ فالجنود هناك لا ينامون..

وسط كل ذلك، سيكون الجنود واقفون في الغابات مختبئون في الحصن..

الطائرات ستحلق في الواحدة والنصف عند الانفجار الأول، تخترق المدينة من ناحية البحر، من حيث لا يحتسبون!..

القصف سيستمر، ستكون الطائرات والانفجارات أحدثت خللًا شديدًا في صفوفهم.

عندها ستضرب المدافع بكل ما أوتيت من قوة، والجنود ستقتحم خلفها.

كل واحد في مكانه، سنبدأ الليلة العمل، عد يا عمار لجندك، ورتبهم حتى يكون النصر حليفنا إن شاء الله!".

وأوصاهم بالصلاة قبل الحركة، وأن يسألوا الله النصر.

كان خطابه شاحنًا للقلوب رافعًا للهمم، تذكر عمار أحبابه ورفع وجهه إلى السماء قائلا:

"كل ما أردناه سيكون، الآن يا أبي ستشرب الزهرة دماءك الطاهرة بعدما سقطت في كل الميادين، الآن يا أمي ستشرق شمسك على قلب الوطن، تعلِّمه معنى الحنان من جديد، فتغرد طيوره معلنة عودة الحياة!..

الآن يا أمين كل شيء كما أردت، دماك ستكون وقود النيران عليهم، فترقد روحك في سلام مستمعة بالمشهد من فوق السماء!..

الآن يا يمان ستتحقق دعوتك، وسيعود الوطن سواء كنتِ حية لتروي وروده، أو ميتة فتبتسم روحك على صفحة السماء".

***

تحرك بعدها إلى القلعة ليبدؤوا تنفيذ الخطة، تحرك عمار ومعه آمال وأحلام وظل يفكر في طريقه.

"الحقيقة دائمًا مؤلمة، والحرب مهما كانت فهي قاسية، ورغم أن اللحظة الحاسمة أوشكت، إلا أن كل شيء في الحنايا يهتز، البدر لم يظهر، ولكن ها هي يمان تشكَّلت في النجوم لتقول لي: "امضِ إلى النصر"، -مشيرة إليَّ بعلامته- فقد رآها قلبي!".

وصل عمار وأخذ يشرح للجند الخطة، حتى فهم الكل دوره وأصبح الكلُّ متحمس.

عندما جاءت الساعة العاشرة قال عمار للجنود:

"اجمعوا إلى الصلاة.. الآن ستعلو ثورتنا، ستنمو زهرتنا، سينكشف ليل الطغاة الذي أعيانا، طهروا قلوبكم، قوُّوا إيمانكم، اجعلوا غايتكم رأس الطغيان، فلا تهابوا الموت، اشكروا الله على ما هداكم، واستعينوا به على ما أصابكم، الآن صلاة لله وتضرع، اسألوه النصر والإخلاص".

وصلى كل واحد منهم ودعا الله بما في قلبه.

عندما انتصف الليل في الساعة الثانية عشرة.. أمر عمار مجموعة الخندق بالتحرك، وبقية الجند بالتأهب.

في تلك اللحظات احتضن كل رجل أخاه في ود وطمأنه، كان الكل مبتسمًا يشعر بالفخر رغم الرهبة، ثم تحرك الرجال إلى الخنادق.

دخل عمار مكان القيادة، قرأ ما تيسر له من القرآن وأخذ يدعو الله، ثم صلى وحده وابتهل طويلاً، سأل الله النصر في هذه الموقعة.

عندما جاءت الساعة الواحدة واقترب الموعد.. كان كل شيء في مكانه، أمر عمار عبدالله أن يسير بالجنود، تحرك عبدالله ومعه الجنود –حسب الخطة– خارج الحصن وأمامهم المدافع.

***

وفي الواحدة والنصف الجميع كان الجميع في ترقُّبٍ..

صرخ الجنود في خوف:

"إنها طائرات العدوِّ!"!

جاءت على حين غفلة تقصف في الأرض، وأخذت تقصف الحصن، ولكن الخطة كانت تضع في الحسبان ذلك، فبدأت المدافع مستعدة تضرب في الطائرات حتى أسقطت بعضها، والقنابل أخطأت وسقطت على الأراضي لا على القلعة..

خيانةٌ أخرى حدثت!.. الجنود تضرب، المدافع تُسقِطُ الطائرات، أصبحت الأصوات صاخبة ما بين دوي الطائرات وصراخ الجنود واشتعال البنادق، العدو أسقط مدخل الخنادق بالقنابل ، فسدت على من فيها!

أول الموتى هناك سقطوا، وطائرات العدو تفرُّ، أسقط الجند منها اثنتين.

تكاد تكون الثانية!

الخيانة كانت متأخرة لم تدر بكلِّ شيء، وقد كانوا مستعدين لها، فلن يُلدغوا من جحر مرتين.

في خضم المعركة الواقعة، أشرقت نار الحق في العاصمة، جوار القصر وفي المطار، وفي أماكن تجمع الجنود، وها قد ساء ليل القاتلين.

ثار البركان من تحت الأرض، فها هي القنابل قد انفجرت تنير قلوب قوم، وتحرق أجساد آخرين، و المدينة تسقط.

ها هي مدينة الظلم تنهار، والجنود تصيح بالتكبير، أتت طائرات الجيش من ناحية البحر ومن المقدمة، فأسقطت كل من كان على الأسوار، ثم تقدمت المدافع وضربت الأسوار حتى أخذت تسقط، التكبيرات تعلو لا طائرات للعدو بعد اليوم.

المدينة أصبحت جزءًا من البركان الذي في صدورهم، ها هي الحصون تنكسر والأسوار تنهار!، ضربات المدافع كضربة رجل واحد، فأصبح في السور فتحات كثيرة بعدما زعموا أنه السور الذي لا يُكسر، المباغتة كانت العنصر الأقوى!

***

"الآن!".

صرخ عمار في الجنود، علت "الله أكبر"، وعلت بعدها أمواج الحق الهائجة، انطلق الجميع معلنا أن النصر آتٍ لا محالة، الكل يهرول نحو المدينة، ولكن قابلهم فخ شديد!..

وجدوا أن العدو قد أحاط بهم من الجانبين، وضعوا مدافع خلف الأسوار في المدينة، القصف على الأبطال قد اشتد، انسحبوا إلى مواقعهم، وتقدمت المدافع.. طائرات تقصفهم،

ومدافع العدو قبل أسوار المدينة تحيط بهم، البعض تقهقر للخلف، وكثير من الأبطال تقدموا، بل والبعض أخذ الموت رايته وطار بجناحين نحو مدافعهم يفجرها، لم يكن ذلك جنونًا، ولكنهم كانوا أبطال..

مات الكثيرون! ، كافحوا حتى وصل المدد من القائد خالد..

الطائرات وصلت أخيرًا وضربت، والمدافع تحركت، خسر الأبطال لكنهم خسروا أكثر، تكونت هناك ثغرة؛ فمدافع الأبطال والطائرات قد دمروا جانبًا من جوانب المدافع، أكمل الجنود طريقهم، الجيش بأكمله تحرك واخترق السور ودخل العاصمة.

لم يمض الكثير حتى وصل الجنود إلى أرض المدينة رافعين رايات الموت فلا رادع لهم إلا أن يفنوا هنا أو ينتصروا.

كانوا لا يضربون إلا من حمل سلاحًا، وتحركوا صوب القصر مباشرة.

قَتل ومَوت، هناك شابان يتنافسان على من يقنِص أكثر، هنا رجل رفع راية الفداء وفتح القُنبلة في صدره وقذف نفسه بين مائة جندي حتى اخترقته الرصاصات! ، ولكنَّ القنبلة أفنت أكثرهم.

الملاحم سُطِّرت، وها هم البقية دخلوا قبر الشيطان، جنوده قد هربوا وفروا.

ها هم المتجبرون في الأمس، أصبحوا يفرون كما يفر الوحش من الليث المنطلق، قد يئسوا أن يجدوا النصر.

الآن.. قد انتصرت الثورة، وانقشع الليل، أشرقت شمس الحقيقة بعدما منعها الغيم طويلاً! ..

ها هو المتعجرف مراد ومعه جاكون محاصران كفأر لا خلاص له من براثن النسر، لا خلاص لهما من الموت!..

"استسلما الآن".

***

في هذه الأثناء أخذ عمار يبحث طويلاً بين الأسرى على (سالم)؛ ذلك الخائن الذي سلب منه كل شيء، كانت رغبته في الثأر منه تفوق أي شخص آخر مهما كان، فقد خدعه بتصنع الهداية، وقد قتل صديقه انتقامًا منه، ثم وجده..

هناك مكبل الأيادي، مطأطئ الرأس، يحمل فوق رأسه خزيه، وفي قلبه حزنه، يعلم أنه لا خلاص له من الموت.

ذهب عمار نحو سالم، ونظر إليه نظرة فيها من الكره ما فيها، تحرك عمار نحوه في هدوء بالغ، ثم قام بقتله، قتله بيديه غير نادمٍ كما قتل هو كل أحبابه.

بعد ذلك قال في نفسه:

"قتلته أنا كما قتل أمين، سلبتُ منه روحه، ولكن شتان بين روح سلبت مقبلة تتلقى الرصاصة مدافعة عن وطنها في سبيل إخوانها حتى صعدت إلى السماء تزغرد بعرسها ولقاء أحبابها ورؤية ربها، تستريح بعدما كانت حياتها مثابرة من أجل الله والوطن، وبين روح عاشت على المكر والخيانة، باعت الدنيا والأصدقاء والدين والوطن، هكذا ذهبت روح طاهرة وأخرى فاسدة!".

***

ثم عاد عمار إلى المجموعة، وتم إعداد منصة الإعدام، القاضي هو الثورة، وها هي الشمس قد أشرقت لتبقى شاهدة على محارقه، والسياف كان أرواح الشهداء.

وُضع مراد على المنصة ووقف أمامه خالد وقال:

"ها أنتَ ذليلٌ ذلة كلب بلا مأوى؛ قد جاءك الموعد الذي كنتَ تهاب، لا حياة لك بعد اليوم، الآن تعلو كلمات الحق وأناشيد الانتصار!".

كان المشهد فيه شفاء لما في صدر عمار من جراح، تذكر في تلك اللحظات حديث والده عن غباء من عادى شعبًا وقال:

"بالفعل أحمق من عادى شعبًا!؛ فالشعب لا يملك إلا وطنًا سيموت من أجله، وسيولد معه جيل جديد يكمل مسيرة النضال، فلو -حتى- أعدمت الجسد، فلا يمكن أن تعدم الروح، ولا يمكنك أن تستأصل الحب!".

"نار".. قالها القائد خالد..

وأخذت الرصاصات تأكل في لحم الخونة، كما تأكل جهنم في حطبها من الناس، لتدل على أنه سيكون جزءًا من وقودها في الدار الأخرى.

ثم وقف أمام مراد وجاكون وظل يذكرهما بالماضي العفن وحياتهما القذرة، بخيانة مراد، وخبث جاكون.

ثم أمر بقطع رأسيهما وتعليقها في وسط العاصمة لتكون عظة لكل خائن عميل، ولتكون قصاصا للملك البريء ولكل روح قد ماتت.

وأُعدم معه كل الخونة.

وانتصرت الثورة، وتفتحت الزهرة، وعاد الوطن، وها هو عمار ذا عائد بالمهر.

واشتعل رأس عمار فكرًا مرة أخرى..

"هل يا تُرى يمان هناك ماتت أم نجت من القصف؟، هل يا ترى أَعَدْتُ وطنًا وفقدتُ آخرَ؟!".

أسئلة دارت في رأسه، وأصبحت كالمطرقة التي لا ترحم، تضرب بشدة تريد جوابًا، والإجابة عنها غائبة.

وقال آملا خائفا:

"سأعود لأرى كلَّ شيء لعل في المدينة بقايا أمل!، أو حزن دفين لا ينتهي إلا بخروج روحي لتعلن معها شقاء العاشقين!".

****

(١٧)

﴿بَينَ مَهَـابَةٍ وَرَجَـاءٍ﴾

عادت الحرية من جديد، وأدرك الجميع قيمتها وأهميتها، علموا أنها كمثل أي شيء لا بد أن تشتريه بثمن، فباعوا أرواحهم ليشتروا أرضهم فما سُلبَ بالقوة لا يُسترد إلا بالقوة.

وبعدما تم النصر، فرح الجميع بذلك وتناسوا الآلام بعد أول لحظة من لحظات الحرية، من لحظات الثأر التي فيها حياة.

مات من الجنود من مات، وفر مَن فرَّ وعادت الأرض إلى أصحابها، الأرض التي سُلبت من مواطنيها بالفساد والظلم، سيطر جيش التحرير على كلِّ شيء فيها بعد عناء طويل وحروب قاسية.

وها هو أسقط القصر وأعدم القادة كلهم، ثم دخلوه ليروا ما اكتنزه مراد وحاشيته من أموال منهوبة، فوجدوا الثروات الكثيرة التي سرقها جنوده، فأعادوها لأصحابها..

ملايين من الأموال، ولم يستفد أهل البلاد منها قط، ها هي الآن تعود إلى أهلها ليعمِّروا بلدَهم الذي دمَّره الطغاة.

انتشرت الأخبار في كل البلاد، وعلم كثير من المهاجرين أخبار النصر فعادوا، ثم أرسل أهالي الشمال مباركتهم وفرحوا بذلك كثيرًا، وفر أمراؤهم بعدما سقط القصر.

كل من هُجِّر من مدينته قد عاد إليها، وقال لأصحابه:

"إن الوطن على جرحه يبقى للنفس أكثر راحة من ألف غربة لا يوجد فيها رائحة الطفولة وذكريات الأحبة، يبقى الوطن هو الوطن وإن كان مطعونًا أو طاعنًا".

طاف الأبطال المدن، رافعين أعلام الحرية، كاسرين كل قيد قد بناه الطاغية، كلما انطلق الأبطال إلى بلدة.

ثم قرر القائد خالد أن يؤمِّر البعض –إن قبلهم أهل المدن– على مدنهم حتى يستتب الأمن في كل البلاد ويبدأ عصر النهضة والازدهار.

لم يكن ذلك الجيش يطمع في حكم أو ملك، فقد كان قِوامُه الصبر، وعدته الإيمان.

في كل بلدة دخلوها وجدوا الناس يلوحون بعلامات النصر، كانت تخرج من قلوبهم فيفرح الجميع، ويبقى عمار مذبوحًا على فرحته بذكرى أحبته!

هكذا كان عمار، وقف يتأمل الناس ويقول في نفسه:

"قد وفيتُ بأحد العهود، ثأرتُ لكَ يا أبي، نامي بسلام يا أمي، ابتسمي يا روح أمين سأذهب لأمك، وسيعلو حلمك إلى أن يصل اسمه إلى السماء، وأين أنت يا يمان؟!.. فقد حققتُ دعوتكِ، سأعيش على ذكراكم التي ما زالت تنبض في صدري إلى أن ألقاكم في الجنة التي سبقتموني إليها..

عاد الكثيرون وقلبي يتمنى عودة واحدة فقط، أو يأمل أن تكون على قيد الحياة حياة واحدة..

سأعود إلى مدينتنا لأرى ما سأرى فيها، فإما أن تكون الحقيقة كما آمل، وإما أن تكون سكين يقطعني إربا!".

***

أمَّن القائدُ كلَّ شيء، وفتح كلية إعداد رجال الأمن من جديد، جعل من المعلمين فيها رجال الدين الحق ورجال الحرب، فأصبحت تستقبل الصادقين الذين يتربون على العمل للوطن، لا للسمع والطاعة.

وعاد الجميع إلى العاصمة حاملين في صدورهم لَبِنات الوطن الذي سيبنونه.

عندما عاد القائد إلى العاصمة خرج من شرفات القصر التي وقف فيها مراد يوم جريمته ونادى في الجموع، صمت الجميع بعدما حياهم القائد وأشار لهم بالسكون، ثم قال:

" الآن يا أبطال قد انتهت الحرب وطلع الفجر، وأصبح كل واحد منكم شاهدًا على أعظم ملاحم العصر، قد كنتم أسودًا لم تهب، حاربتم وناضلتم عندما أمطرت البنادق، رأيت صدوركم أمامها درع منيع، وعندما فُتحت الحصون، رأيت من أجسادكم قذائف تسكن في أوكارهم، رفعتم الراية الأجمل في التاريخ، إمَّا النصر أو الشهادة، وكافحتم وتحملتم الصعاب، تألمتم لفراق الأحباب، وتتابعت الآلام حتى أصبحت قلوبكم منهكة، ولكن حياتكم منذ الآن ستصبح مضيئة، الجراح ستندمل، وأرواح الأحباب ستطل في كل ليلة تقول لكم أحسنتم الصنع، لم تذهب دماؤنا سدى..".

وتابع كلماته في ترتيب شؤون الدولة، وترتيب المدن لحين استقرار الأوضاع، أما عن المُلك، فقد قال:

"سيكون بين أيادي الشيوخ الكبار، يديرون البلاد حتى تستقر ويختارون بعدها من يستشيرون الناس في حكمه، إن وافقتم كان، وإن رفضتم جاء غيره".

ولما أمر القائدُ عمارًا أن يكون أميرًا على (سور)..

"ماذا؟!".

لم يغب عن ذهن عمار الرسول الذي قال: "أُبيدتْ البلدة كلها".

تذكر الموت الذي لم تغب صورته عن عينه، تذكر حيرته التي كان يتناساها ولم تذهب عنه قط، فأجاب قائلاً:

"لا أستطيع أن أكون، فأنا أحمل على عاتقي كثيرًا من العهود التي يجب علي أنَّ أعود لأوفي بها".

لم يرده القائد، وترك له الحرية المطلقة، فهُم الآن أحرار، ولكل واحد صوته الذي إن تكلم أسمع.

ذهب عمار وودع القائد، أخبره بمسيره إلى بلدة (الغار) حيث أم أمين، ودَّعه بحرارة وقال له:

- قد أبليتَ حسنًا، كن بخير دائمًا.

أخذ ما يحتاجه من مال وودع بعدها الأصحاب، قُبُلات حارة على جبينه وأحضان كلُّها حنان، ولكنَّها لم تكن كذلك الذي أعطاه أمين إليه في يوم من الأيام، كان كلُّ شيء عنده رغم فرحته وفرحة الجميع إلا أنه كانت تنقصه بعض المشاعر والروح؛ فهو من بعد فقدهم بقلب يعيش بلا أمل!

جاءه عبدالله مودِّعًا وقال كعادته:

- أبشر يا عمَّار، ولا تجزع مهما كلَّفك الأمر ومهما رأيتَ في المدينة هناك!

- سأفتقد كلماتك الجميلة.

- ابحث عنها في طيات القرآن، هناك حلٌّ لكل عقدة، وفُرجة لكل ضيق.

- شكرًا لك يا صديقي على كل شيء.

وتبسم وانتهى الوداع، وقال عمار: "إلى اللقاء أيها الأبطال"، وتحركت قدماه عائدة..

***

أخذ عمار في كل خطوة يتأمل، ويقول في نفسه:

"حياة وموت، خير وشر، غياب وعودة، فَقْد ولقاء، هذه هي الحياة!، في كلِّ خطوة أسمع مِن خلفي أصوات الفرحة تعلو، ولكن أذني لا تسمع إلا صوت يمان، وبرغم كل الناس التي ترفع علامات النصر من حولي، إلا أنَّ عينيَّ لا ترى إلا علامة النصر التي رفعتها يمان، برغم كلِّ شيء يشعر به القلب، إلا أنَّه لا يريد إلا يمان!..

خطوة تتلوها خطوة وأنا في طريقي إلى البلدة، أشاهد أشجار الطريق، فأرى واحدة قد قطعت الحرب بعض أغصانها ولكن تتدلى منها بعض الثمار، فتبعث في قلبي أمل بأنها ربما نجت من القصف، وتتلوها أخرى، كانت عليها الثمار تنمو فوقعت حينما أكلتها طلقة من رصاصة غادرة، فتودي بحياة الأمل الذي قد وَلَّدَته في روحي تلك الشجرة التي سبقتها للتو!..

أصبحت ضربات القلب -برغم كلِّ فرح- مرة تضرب بالخوف وأخرى تخفق بالرجاء، مرة يوسوس لها الشيطان بالسخط واليأس، وأخرى تملؤه أملاً أنَّ الله لن يضيّع قلبًا وضع كلَّ آماله عليه..

ما لي كلما رأيتُ طفلة تجري خلف أبيها، تذكرت تلك الطفلة التي قد حلمت بها تداعبني وأعود معها طفلًا لا يهتم لحروفه ولا لأفعاله؟!، كلما رأيت ابتسامة زوجة رُدت إليها روحها عندما وضعت الحرب أوزارها، وعاد منها إليها سالمًا ذلك الحبيب

الذي ما نسيته قط !.. ازداد خوفي!..

كلما اقتربتُ من المدينة، فخطوة تتقدم وأخرى تعودا، كل مشاعري متضادة..!".

***

ظلَّ على هذه الحال حتى وصل إلى مدخل المدينة، فتساءل:

"مالي أشمُّ رائحةَ الموت؟!".

ومع أول خطوةٍ داخل البلدة، وقفت قدماه عاجزة، وتحجرت عيونه خائفة، وارتجف جسده من شدة ارتجاف قلبه، وأبى عقله أنْ يُصدِّق!

رأى بقايا أسرة، كانت نظرات الزوجة فيها تسطِّر معاني الحياة الجميلة، أم وأب وأطفال وأياديهم متشابكة، وأجسادهم النائمة محترقة على الأرض، أشلاء مترامية على الأرض، وبيوت منهارة كأنَّها بقايا زلزال، حتى المسجد الذي كان منارة السلام أصبح حطام!

لم ير علامة واحدة للحياة، فهناك كلب لم يعد من جسده شيء، وطائر رغم علوِّ انطلاقه، إلا أنه يبدو أنَّ النار قد كانت في عظمتها جبلاً محترق لا يمر من فوقه شيء إلا سقط!

***

ثم كاد عمار أن يسقط فتساءل:

"ما لي أرتجف؟!.. لا بالطبع لم يحدث!.. هل ماتت يمان حقًا؟!"!

ظَنَّ عقلُه أنَّ يمانًا قد ماتت، وأبى قلبه أن يُصدق الحقيقة، فتساءل:

"هل كان لذلك الهيكل الطيني الذي صوَّره الله أن يكون حيًّا لولا أن نُفخ فيه من

روحه، فها هو قلبي قد فقد روحه، وتحول إلى طين!.. لماذا أحيا بعد اليوم؟!، فحياة البعض في هذه الأرض لا فائدة لها؛ لا راحة فيها ولا سكون، كلُّ ما فيها دفن للأحباب حتى أضحى القلب مقبرة للأفراح، والجسد مسرحًا للأحزان، مسرحًا كبيرًا لا تعلو فيه إلا مشاهد الكآبة التي تقتل عيون الناظرين قبل قلوبهم!، وحياتي واحدة من تلك الحيوات التي كُتبت عليها التعاسة الأبدية!"!

ثم سقط على الأرض متهالكًا بعد ذلك التعب الطويل الذي قد كان!

"حييتُ لأجلهم وقد غابوا جميعًا!، أصبح قلبي مليئًا بالثقوب، كل ثقب قد دل على واحد من أولئك الذين عشقناهم بصدق وغابوا عنا في صمت، فتطعنني سكين الغياب في لحظة من لحظات الظلام، أو في حدث خلَّدته الذاكرة، يتسع الثقب الصغير كلما شاهدت العينُ شريط الذكريات، ويأبى شريط الذكريات أن يتوقف مُذ لمست أقدامي تُربَ المدينة، هنا يا أبي حدَّثتَني عن لعين الحب وها قد كان، ولكنَّه على قلب نقيٍّ ما أراد إلا أن يأتي إليه فينعم بنعيمه!..

آهٍ يا قلبي!؛ قد اتسعت الثقوب الصغيرة كثيرًا، حتى أصبح في صدري فراغ لا تملؤه أحاديث الماضي والحاضر، فيا تُرى ماذا خبأ المستقبل؟!..

أنا أستسلم!، ما عدتُ أقوى!..

أين أنت أيها الموت الرحيم على هذه الحياة التي سَلَّت جميع السيوف على قلبي الذي ما عاد فيه موضعًا لضربة أخرى؟!"

ثم صمت مغشيًّا عليه من شدة الحزن، الصدمة كانت أقوى منه؛ فَقْدُ الأحبةِ موت حتى وإن كانت في قلوب المرء بقايا حياة!

"يا أيها الفتى.. أأنت حي؟".

***

لم يدر بعدها ماذا حدث، لم يستيقظ من هذا الإغماء إلا على صوت الشيخ الذي يتزعم الوافدين إلى البلدة!

- نعم..

أجاب عمار الشيخ، ولكن بقلب أماتته الحياة، فلا روح فيه، ولا أمل في عيونه، انتصروا في الحرب وانهزم أمله، فعلام يعيش؟!

كان كلام في عقله، لم يبح به.. ربما دلت عليه نظراته البائسة.

- ما الذي ألقاك في هذه البلدة الميتة؟!

- جئتُ أبحث عن حياة، بعدما انتهت الحرب.

- نحن هجرناها بعد القصف، وعدنا بعدما انتصر الأبطال، لنبنيها.

- أمعك أحد؟

- نعم خلفي هناك.

- أتعني أن هناك من نجا من القصف؟

- بالطبع، ولكن الجميع هجر البلدة، وسيعودون كما عدنا هنا.

وإذا من خلفه أقوام قادمون، فانتفض عمار، وجرى يتفحص وجوههم تاركًا الشيخ من خلفه..

جرى عمار وقال صوت عقله:

"هل أرى فيهم ذلك الوجه الذي سيبعثُ قلبي من مقبرة الآلام؟!".

يتفقد هنا، ويجري هناك، يبحث طول اليوم في وجوه الناس والكل يتعجب لأمره، قضى النهار كله باحثًا عن يمان، ولكن لا حياة، لا أمل، لا نجاة من ذلك البحر الذي لا شاطئ له!

***

وجاء الغروب بلونه الأحمر، توسَّطه تلك الشمس الباكية، كأنها تغرق في بحر من النيران، صنعته دموعها عندما رثت حاله، آخذة معها تلك اللمعة الصفراء التي برقت في عينه أول مرة!

جلس في مكان بعيد عن الجميع وأخرج دفتره وبكى.. نعم بكى عمار وكتب بدموعه التي ذرفت من قلبه..

"يا لقسوة الدنيا، ماتت يمان فعاشت، ومات الطاغية فعُذِّب، وعاش الجميع إلا أنا!.. تُرى لماذا أنا؟!، لماذا لم أمت أنا عندما قصفوا مدينتنا بدلًا من أبي، لماذا لم أمت يوم غدر سالم ليعيش أمين؟!، لماذا لم أمت أنا يوم قصفوا بلدة يمان؟!، الحياة الآن ليست حياة، إنما ذكرى.. والذكرى في الغالب مرة!
وما هي الحياة؟!.. أليست روحنا الموزعة على أكثر من جسد فتكتمل الروح باجتماعهم، تشرق بهم شمس الحبور والسكون، يكون الاجتماع هو الحياة..
وكلما فقدتُ واحدًا منهم، فإنك تفقد جزءًا من روحك فتبكي و تتألم، تغيب شمس الحياة وتصبح روحك سوداء معتمة..

وما هو الحزن؟!..

أليس الحزن ذلك الطعن في الصدر، شعور يتصاعد كلما تذكَّرنا، كلما رأينا، كلما شعرنا بغياب من رحلوا، بغياب من نحب، أو ما نحب؟!، فالحزن هو الأقوى، هو الذي لا يقهره سوى الحب، ولكن أين الحب؟!.. فها قد تجمعت على قلبي صور الأحبة وذكراهم، وتكالب الحزن عليه، فأصبحتُ بلا حياة، وأصبحتْ سكين الحزن سيفًا قاطعًا..

سأعيشُ بلا أمل، سأنفذ وعودي، وعدي لأبي بأن أكمل الطب، ووعدي لأمين، لكي تهدأ روحه؛ فالعهد هو الدَّين الذي يجب أن نوفيه مهما قابلنا من صعاب، وبعدها.. بعدها سأذهب لأنام.. أنام حتى الموت!".

****

(١٨)

﴿شَـــوقٌ وَأَلَـمٌ﴾

جلس عمار بعدما يئس من الدنيا، نظر إلى السماء وتأمل ثم قال:

"عندما تأخذ طيرًا من قفص فيه أصحابه وأحبابه، تُخرجه وحيدًا منه وتزعم أنك تعطيه الحرية، فأي حرية في ذلك؟!؛ إن الحرية في أن تحيا كما تشاء رفقة من تحب حتى وإن كنتم في قفص، الأولى لا تُغني عن الثانية، لكن الثانية تغني عن الأولى والقلب بينهما ضعيف، وها أنا كالطير الذي أُخرَجُ من بين أحبابه وظل يبحث ويبحث عنهم ولكنه لم يجدهم، فتحسس ذكراهم وتلمَّس أي طريق يقد يراهم فيه!".

فأخرج عمار من قلبه كل عهد أخذوه عليه، وعزم على أن يمضي أيامه الباقية الوفاء به، وبحث كل ذكرى له معه يلتمس بها بسمة تائهة.

***

فقام وطار إلى مدينة (الغار)، يبحث عن أمٍّ أمين في تلك البقعة البعيدة التي قد وصفها له.

في طريقه كان يتأمل المدن التي تُبعث فيها الحياة من بعد الموت بعدما انتهت الحرب، أما هو فكانت تُسلبُ منه الحياة، ولكن بلا موت!

كل شيء يرتفع، أما أحلامه تتهاوى كلما رأى شيء يذكره بأحبائه، فيقرأ مقولته التي

خطَّها في صفحة من صفحات دفتره..

"وإني لأهوى أن أهوي ولكنْ لا أهوي!".

ذهب إلى محطة القطار، وركب منها قطار يذهب إلى هناك، آملاً أن ينتهي من ذلك الطوق الذي حول قلبه، ليس العهد، ولكن الحياة.

فلا سبيل للخلاص منها إلا بعد انتهاء الوفاء.

أخذ مقعده بجوار النافذة، وطفق يغطّ في نوم يريح به جسده المتعب ولو قليلاً.

- يا يمان..

ها أنتِ بجواري بعدما كانت مرارة الأيام عهدي، والحزن سِمة قلبي، ها هي طفلتنا الصغيرة التي حلمت بها قد أخذت جمالكِ، وها هو الولد الأكبر يتلو آيات الله، يا لجمال الحياة عندما يرضينا الله بحلاوة اللقاء بعد مُرِّ الفراق!

- كنتَ في غيابكَ يا عمَّار حاضرًا معي، عيناي لم تنس ملامحك، وقلبي لم يجحد حبك، وفي نومي كنتَ رفيقي، فحلم أي فتاة يظل رجلًا عفيفا، يعشقها ويخفي سرَّه بعين تفضح، ثم يأتيها كفارسها على حصان أبيض غزله في ابتهاله لله، فيأخذها على جناحيه إلى الجنة..

قد كنتُ في كلِّ ليلة أذكركَ في سجودي، أسأل الله أن يأتي بك سالمًا حاملًا وطننا بين كفيك؛ لنبني بيتنا فيه ونربِّي أبناءنا ونروي لهم قصص البطولة في معاركك مع الطغيان، وأذكر أني رأيتك في يوم تبعث رسالة مع القـ. . .

***

"تَذكَرَتَكَ أيها الشاب!".

أيقظ عمارًا هذا الصوت الذي كره وقعَه على أذنه وقال للرجل في نفسه:

"ما الذي فعلتَ؟!.. هل سيكون لهذه التذكَرة أجنحة تطير بها، كيف لي أن أكمل حديثي معها وأرى أولادي؟!، من أين آتي بذلك الحلم الآن يا أيها الرجل؟!"!

صرخ في رأسه ولم يتحدث، فقد طار الحلم الجميل، وسكنت التذكرة في جيبه.

أخرج التذكرة وأعطاها له، ثم حاول أن يعود هناك مجددًا، ولكن بلا جدوى!

بقدر ما كان في الحلم من جمال، بقدر ما كان في الواقع من ألم، لأنه تذكَّر حقيقته المؤلمة، ففرَّت دمعة من عينه، فيها كل كلمات يمان الرقيقة التي أدرك أنه لن يسمعها أبدًا.

***

دخل شابٌّ قصير القامة، جاد الوجه، في جسده بعض الشحم الدال على حب الأكل، له وجه دائري مُحمَر كشمس الغروب، وضع أمتعته وجلس أمام عمار في عربة القطار، وجرت العجلات مجددًا.

حاول أن يسبح في عالمه الخيالي الذي يهرب به من الواقع:

- أنا حسام، وأنت ما اسمك؟

- عمَّار.

- من أينَ أنتَ يا عمار؟

- مدينة (سور).

جرت ملامح البِشْر على وجه وقال في سرور:

- أرض الأبطال، وروح الثورة، يا ليتني كنت معكم في الحرب فأهنأُ ببطولتكم ونضالكم في مواجهة الطاغية، ولكن بلدتي بعيدة عن بلادكم كثيرًا؛ فأنا من بلدة (**الزِّير**)، فعندما رأيتُ فيها قدوم العاجزين الذين شرَّدتهم الحرب، وقد لجأوا إلينا ضعافًا متهالكين، كانت الثورة في قلبي نيرانًا عليهم، وددت لو أنني قتلتهم كلهم!

انتبه عمار في تلك اللحظة وبرقت عيونه:

- ماذا؟.. هل جاء عندكم أحد؟!

- نعم، نفر قليلون!

- صِفهم!

- بعض الشيوخ ونساء وأطفال وبعض رجال، لا أذكر إلا أنَّ الحرب قد أعيتهم؛ فكلَّهم كانوا كُهولًا مما عليهم من آثار الموت!

فصمت لوهلة، وفكر فيما قال، أمن الممكن أن تكون يمان هناك؟!، أمن الممكن أن أراها مجددًا؟.. ولكن صفعه عقله وقال: "كفاكَ عبثًا بقلبكَ!؛ دعه يرتاح مِمَّا رأى، عش حياتك ولا تتغذى على الآمال الكاذبة!".

أردف حسام:

– هل من الممكن أن تصف لي بعضًا مما حوته الحرب وكيف كان الانتصار؟

– هوِّن عليكَ؛ الحرب مؤلمةٌ، والانتصار كان نِتاجًا لكثير من القلوب التي ماتت وعاشت أجسادها وحيدة مشردة في ظلمات اليأس التي لا ترحم، كم من جثةٍ حملتها هاتان اليدان، مضحية لصديق، أو راغبة في الجنة..

كانت المشاهد يا حسام أقسى مما ينظمه الشعراء بقصائدهم الرنانة التي تثير دموع المستمعين، فالحرب فيها من الألم ما لا تحويه مجلدات التعريفات!..

رحمك الله من شرِّها، وانتقم من الطغاة الذين يحبونها، الحرب كتلك النجمة اللامعة، يراها الناظر من بعيد فيقول: "يا ليتني كنتُ قريبًا منها؛ فأرى جمالها الخلَّاب!"، ولكنَّه لا يعلم أنها نار تحترق من بعيد وتحرق كل ما اقترب منها، وهكذا الحرب.. تترك على كل قلبٍ نُدبة تدل على أن الجمال الذي يبدو من بعيد ما هو إلا جحيم وألم إذا اقترب، ولولا أنها لله، وأنَّ الجزاء على قدر التعب لما هانت ولما شارك أحد فيها.

فقال حسام:

– ولكن فيها من القصص ما لا يكون حتى في عظيمِ الروايات، وأنا أهوى الاستماع لهذه البطولات التي تريح القلب عندما تُمزِّق في طياتها صفحات القاتلين!

نظر إليه في عجب:

– ذكرتَني بمقالة قالها أحد الأصدقاءِ عندما قصصت عليه إحدى فصول الرواية.. ربما يا حسام من الأفضل أن تبقى هذه الروايات محفوظة في قلوب بعض الذين شاهدوها، ففي ذلك راحة قلوبهم.. فبعضها يؤلمهم بشدة..

يذكُر بعضهم كيف ضحى صديقٌ له كاتبًا فصلاً عن التضحية يمتدحه الناس..

وآخرُ فقد والده في يوم كان المفترض أن يبقى ذكرى خالدة في قلبه، ولكن أحالت الحرب قبلة الحياة إلى رقصة الموت، فقد حرمت كل منهما من الآخر!..

الكل يتعجب من حسن صياغة الراوي للأحداث وحبكها، ولكنَّ أحدًا لم يفهم أنَّ القلم الذي كتب، قد اتخذ من قلب صاحبه دواة!، وأيقظ مع كل جرح نارًا تتأجج في صدره!..

في الحرب ربما نجا أحد الجنود من غارات الطائرات، وأمطار الرصاصات، ومخالب الأسر، ولكنه مات، مات بألم الحب، أو ترك سهم الشوق ندبة في قلبه لا تشفى مع الزمن..

العهد في الأزمان، أن ترقق القلوب كلما مرت، ولكن أيام الحرب تقسي القلوب وتشعل الآلام..

في الحروب كل البطولات مؤلمةٌ، حتى وإن كان الظاهر فيها للعموم فرح وانتصار يرجوه الجميع..

تُرى هل فكرتَ يومًا أنَّه في كلِّ يوم إحدى هذه الحكايات يكون واقعًا مريرًا على قلب جندي، فكم من يَدٍ دفنت قطعة من قلب صاحبها، وكم من صديق مات وبات صديقه الحيُّ بألم الحنين الذي ما زال يشق صدره حتى ينزع القلب منه!

- يبدو أنني ذكرتك بمآسي الحرب التي كنتَ شاهدًا عليها، يبدو أن قلبك رواية لو خطَّتها الحروف لكانت أعظم الروايات في الفقد والألم، في معنى الوفاء والتضحية والحب، بل في معنى الحرب!

تبسم عمار إلى حسام والتفت بعدها إلى النافذة التي ينظر منها إلى السماء يلقي بعض الهموم التي تثاقلت على قلبه، فجعلت منه هرمًا بصخوره، عجيب في صياغته، حاله كحال

النجمة التي ذكرها لحسام!

البعض يتغزل في ما هو عليه، ولكن، قليلون من فكّروا في عدد الذين ماتوا.. مَن حمل الصخور لكي يخرج البناء البديع الذي ما زالت كل عين تراه تقول أهذا من صنع البشر؟!

ووصل حسام إلى محطته، فودَّع عمار:

- سأنتظرُك في زيارة، هذا عنواني.. ثم أعطاه ورقة وذهب.

***

أكمل عمار الطريق آملاً في أن يرى بعض الراحة في قادم الأيام، وصل البلدة ونزل، بدأ البحث عن أمِّ أمين حتى وصل، حاملاً جبلَين..

الأول: إخبارها أنَّ أمينًا قد مات وضحى ليحيا هو،

والثاني: أن يكون وفيًا بعهده له!

***

وقف أمام الباب، تنهد ثم طرق باب البيت..

- من هناكَ؟!

- أنا عمار يا خالتي.

ففتحت الأم الباب مُستبشرة، ومرحبة:

- تفضل يا ولدي، كيف حالك؟

- الحمد لله بخير.

- الحمد لله يا ولدي، ادخل لترتاح من سفرك.

دخل عمار وجلس بعدما رحبت به الأم وأعدت له كوبًا من الشراب الساخن.

ظل عمار يحرِّك كوبه الفارغ في توتر، ثم قال في جلَد:

- أمي، أريد أن أخبرك بشيء.

- ماذا هناك يا بني؟ قُلْ ما تريد!

كان ثقيلاً عليه أن يخبرها بموت أمين، لم يعلم كيف يبدأ حديثه.

- قد بعث أمين معي رسالة إليك يا أمي..

ولم يكن بعث شيئًا، بل كانت محاولة منه في إيصال أنه قد تاجر مع الله وباع دمه ليسقي زهرة الحرية.

وقد قال لي:

"قد رزقكِ الله وديعة، فقلتِ حينها: "الحمد لله"، وقد استرد الله وديعته فلا تجزعي من أمر الله، أولستِ من قلتِ أنك تفدين دينك ووطنك بأعزِّ ما تملكين، فقد رزقني الله الجنة يا أماه، فباتت روحي هناك وعاد إليك الوطن".

استجدت بعض ملامح الخوف على وجهه، وفرت دمعة من عينها التي قد ترقرقت ولمعت لكثرة الدموع الحبيسة!

ثم ردت بإيمان راسخ كأنَّه جبل لا تحركه الرياح على مَرِّ الأزمان:

- نحن في دنيانا عباد لله يهبنا لمن يشاء، ويأخذنا وقت ما يشاء، وإنَّا لله وإنا إليه راجعون!، قد فاز والله بالدنيا والآخرة!

وما استطاع عمار أن يحبس دموعه، بكى وعلى صوته بالنحيب، وها هي من جاء بقدم تبطئ وقلب يرجف وجسد يتماسك رغم الألم، تصبره وقد جاءها يصبرها!

***

تذكر عمار هنا معنى الأمومة التي فقدها، الثقب الذي كان في قلبه يوم رحلت عنه أصبح اليوم حفرة كبيرة صدره!.. وما عاد له قلب!

تذكرها يوم جاءها في إحدى أيام يأسه من النجاح، عندما اشتدت به أعاصير الخمول، وقد أخذته في حضنها، تمتص بصدرها دموعه، وتهوِّن بيدها التي تطبطب على ظهره كلَّ ألم، فأصبح بكاه أشد ونحيبه أعلى!

فجاءت عائشة أم أمين وضعت يدها على كتفها وقالت:

- يا ولدي، الإنسان ليس عليه أن يحزن من هول ما حُمِّل، فقط عليه السعي والصبر، الأسباب بأيدينا، والنتائج ليست علينا، قم ولا تجزع، امسح دموعك ولا تهلع!

تذكر في كلماتها مشهد أمين أمام عينه، يناديه:

"اقفزْ يا عمَّار".

تذكر حضنه وتصبيره له عندما فقدهما معًا، تذكر أخذه بالأسباب، قراره الحر من أجل لحظة لن يمحوها التاريخ.

مرت أمام عينه كل لحظة كانت قاسية، مُميتة، شديدة لا تترك للروح متسعًا!

شاهده وهو يقول له:

"امض على عهدك يا عمار، عد بالوطن".

أكملت أم أمين سحر كلماتها، لتُذهب عنه بعض الحزن وقالت:

- تحمَّل بالصبر يا ولدي، ولا تملك أسًى وتجلدِ، استرح من سفرك الطويل قليلًا، واصبر على ما أصابك.

وأعدت له بعض الطعام، بعدما انتهى من الأكل قالت له: "نَم قليلًا واسترح".

دخل عمار غرفة صاحبه فتذكره أكثر، رأى الكتب في مكتبته، فضل الشهادة والإيمان، فضل الجهاد، فأخرج دفتره وكتب..

***

"كم علقتُ روحي بروحكَ يا أمين، فأخذتَ تسمو بعدكَ حتى كادت أن تصل للعُلا،
كم أسرتَ قلبي، عدتَ بالوطن ولكن بلا قلب!..
فبات جسدي يشتاق إلى الرحيل، أشتاق إليك الآن ولكن لا سبيل ليدي القصيرة أن تصل إليك، اذكرني عند ربك يا أمين..
وأنتَ يا أبي ترى هل تتذكرني هناك مع أمي، تشاهدان وحدتي وألمي، وأنتِ يا يمان كيف حالك الآن؟، هل تشاهدين الآن كيف لم أعد أستطعِ النوم -بعدما كان في الماضي أحب شيء إليَّ-، فيه أسمع رسائلك إليَّ، أراها فأصبر على بعدها.
أما الآن.. النوم أشق عليَّ من أي شيء؛ فقلبي ما زال متعلق في اللازمان، في كلِّ مرة يرى فيها يمانًا يُكذِّب الواقع حتى يستيقظ، كمن ماتت زوجته يوم عرسهما فأصيب بالجنون!".

ثم ارتمى عمار على سرير أمين وصمت وابتسم، كان في وجهه الصامت المبتسم، آلاف من الدموعِ الحبيسة التي لا تنام!

ثم أخذه النوم بعد عناء كعادته بعدما أعياه التفكير، وذبَّحته الذكريات فسقط كجثة هامدة.

مرَّ وقت طويل وعمار نائم كجثة، حتى نادته عائشة:

- قُمْ يا ولدي؛ فقد نمتَ كثيرًا!

استيقظ عمار بحال أفضل مما كان عليه!

بعد عدة أيام قرر عمار أن يعمل لربما ينسيه العمل والتعب الجسدي، ما أخفاه من الدموع الحبيسة.

كانت أم أمين تعامله كولدها، تعد له الطعام وتعينه على البلاء حتى اطمأن قلبه قليلاً وهدأت عواصف نفسه.

وفي ليلة بعدما تناولا العشاء.. نظر عمار لها وقال:

- رحم الله أمينًا، كان عونًا لي حيًّا وميتًا، لقد عقرت الأرحام أن تلد صديقًا مثله!

ابتسمت عائشة وقالت:

- رحمه الله، وأنزله منازل الشهداء.

- اللهم آمين يا أمي.

وأخذت تداعب عمارًا بالحديث محاولة أن تخفف عنه، فقد كانت مستعدة لتلقي خبر فقدها ولم تجزع كثيرًا، بل إنها هي التي أخبرته عندما قال لها أنه سيذهب ليشارك في الثورة، فدعت له أن يموت في ساحة المعركة!

وسألت عمارًا:

- ألم تنوي أن تتزوج بعد، فقد تزوج أمين الآن حوريته؟

- قد مات قلبي يا أمي، وصامت نفسي عن النساء بعدما فقدتُ من أحببتُ!

- لماذا؟!

- قلبي يا أمي أُخذ من قِبل طريق الوفاء، لم يهوَ إلَّا واحدةً، جعلت من صحرائه بستانًا جميلًا، يُصدِّر الزهور إلى كلِّ القلوب العاشقة، إلى أن ماتت الزهرة الأولى، وتوقفت أمطار الحياة فيه فمات كل شيء، فهل للحب أن ينمو بعدما مات أول حبيب؟!

- هوِّن عليك يا ولدي، من خلق في قلبك حبًّا، سيخلق غيره!

- لا يا أمي؛ فقد كانت حورية في قلبي لم تخرج منه قط، حتى بعدما سلبتها الحرب، ولا يمكن استبدالها!

فابتسمت له ودعت:

- أراح الله قلبَك يا ولدي!

❊❊❊

بعدها ذهب عمار إلى الغرفة، وفتح دفتره في حيرة..

"أحيانًا أتعجب من نفسي!، كيف أن أبقى بهذا الحب بعدما ماتت صاحبتُه!، هل حقًّا إن كان الحب صادقًا لا يموت؟!.. حتى إنْ مات الحبيب!..

فما هو الحب؟..

أظنه ذلك الشعور الذي يجري في جسدك، لا تعلم متى جرى، أو من أين جاء، أو إلى أين يذهب، هو أن ترى فيمن تحب نفسك ويرى نفسه فيك بلا أي تبرير!

هذا هو الحب.. كشحنات الكهرباء، لا نراها حقيقة، ولكننا نؤمن بوجودها، لأننا نرى الضوء ينتشر حولنا في كل مكان، فنؤمن أن هناك شحنات..

كذلك الحب.. لا ندري من أين يأتي، ولكنه شعور يغمرنا ويجري فينا، ونجري فيه، ولا يتوقف عند أحد، ولا يستطيع أن يرفضه أحد!..

وما هو الفقد؟!..

هو تلك الصاعقة التي تُحدثها الكهرباء إن لامست جسدك، تهز كل ذرة في داخلك، تمتص كل الماء الذي يجري في جسدك، صدمة مؤلمة، من الممكن أن تُودي بمن أمسكت به!..

مَن فقد بعد حب يشعر بتلك الصدمة، يتألم، كل ذرات الحب التي جرت في داخله تحاول أن تخرج لتلحق بحبيبه ولكن بلا جدوى، فلا المشاعر تخرج، ولا الحب يذهب، ولكن تبقى الصدمة أبدية!".

ثم أغلق دفتره، وذهب إلى الشرفة وتأمل السماء والنجوم، وما زالت الحيرة في رأسه تتساءل، كيف سأفي بوعودي؟؛ لأستريح وأنتظر النهاية الأخيرة.. الموت!

****

(١٩)

﴿إِنَّمَا الرَّجُلُ لِسَانٌ﴾

مرت الأيام، وقرر عمار أن يقضي الدَّين الذي عليه، أن يحقق العهدَين وأن يحيا من أجلهما.. أن يصبح ذلك الطبيب كيفا أراد أبوه، وأن تصبح ملابس أم أمين هي الأفضل في البلاد، ويعلو اسمها حتى تكون خفاقة تخترق حدود السماء، وبذلك تستريح روح أمين.

***

وبينما عمار وأم أمين على الفطور سأل عمار أم أمين عن ذلك الحُلم الذي حدثه به أمين وقال:

- يا أمي كيف حال صنعتك للملابس؟

- ما زالت هواية بسيطة، كنت أحيك ملابس أمين وأخيه فقط، والآن أكسب منها قوت يومي بحياكة ملابس بعض النسوة.

- أريد أن أرى بعضًا منها يا أمي.

قامت أم أمين وعادت ببعض القطع، أرته من التصميمات التي تسر العين وربما لو عرضت ستباع أكثر!

- والله إنها جميلة متينة، وأنا قد وعدتُ أمينًا أن نفتح لكِ مصنعًا تحيكين فيه ثم يشتغل هو في التجارة ويبيعه في كل البلدان، وسأنفذ وعدي لأمين، وقد غاب، الحمد لله على بلائه قبل نعمائه.

- أنا هنا كأمين يا أمي، ما هي الأشياء التي تريدينها لأشتريها؟

- نحتاج إلى كثير من الأموال.

- أنا آتي بها.

- ماكينة للحياكة بشكل أسرع، تأتي من بلدةٍ بعد هذا البحر.

- سأذهب لآتي بها.

عزم الأمر، وحزَّم حقائبه، وفي ظهر ذلك اليوم ودعته وأعطته قميصًا حاكته له خصيصا، كان جميلاً حقًّا.. شكرها ثم تحرك.

***

كان قد فر إلى هذه البلدة بعض اللاجئين، ففكر عمار في البحث وهو في طريقة إلى الميناء، وبينما يسير فأخذ يتأمل وجوه الناس، كان يحاول أن يتعلق بأي أمل -حتى وإن كان كاذبًا-؛ لعله يرى يمانًا أو أحدًا من أهلها، تعلَّق في أمله الضائع مرة أخرى، ولم يعد إلى الحقيقة إلا عندما صفعه الواقع مجددًا بقسوة.

وصل إلى الميناء، دخل غرفته في السفينة ووضع أمتعته، وخرج يتأمل السماء، ويحاول أن يشكِّل السحب لتكون كوجه يمان ليتأمله ولو قليلاً ويريح قلبه!

وقف يرسم بعيونه على صفحة السماء، كما يفعل الرسَّام على لوحته...

- عمار.. كيف حالك؟

صوت رقيق سأله فأفسد رسمته الذي قد اندمج للتوِّ بها، نظر إلى مصدر الصوت، صمت لوهلة ليستوعب ما يرى!

- أنتِ هنا!

- هل نسيتني يا عمار؟!

انعقد لسان عمار، توقف كأنَّه مشلول؛ من غرابة ما رأته عيناه وسمعته أذناه، ولم يحرك ساكنًا بإجابة، سألت في حزن يعلوه نظرة منكسرة:

- ألَا تذكُرني؟

- بلى، بالطبع أذكر!

- كيف حالك يا عمار، ألم تتزوج بعد؟

- الحمد لله بخير، لا، لم أتزوج!

- ولا أنا، قل لي كيف كانت حياتك في الحرب؟

- مآسي تتخللها انتصارات، على الجميع أفراح تتوالى، وعليَّ ذكرى مؤرقة، فقد فقدتُ كلَّ الأحباب فيها، ففقدتُ نفسي!

- لا تقس على نفسك!؛ قد ذهب كل شيء، وبقي النصر المبين شاهدًا لكم بكلِّ التضحيات!

***

تحدثا كثيرًا، كأنها تريد أن تخبره بأنها هنا ما زلت تنتظره.. نظرات الإشفاق تخرج من عينيها على قلب عمار، ينظر للسماء فوقه لم تكتمل فيها صورة يمان بعد، وها هي (سارة) تخفف عنه قليلاً مما يعانيه!

(سارة).. تلك الفتاة التي أرسلت في الجامعة رسالة إلى عمار في السر تبوح بحبها له في أدب، ولكنه اعتذر لها وكتم السر -حتى عن أمين- حفظًا لصورتها.

كانت جميلة بوجه طفولي وعيون متسعة، على خديها نقرتان تدلان على خفة الظل، محجبة لم تكن من هؤلاء الفتيات اللواتي يتمايلن ويخضعن بالقول، ولكن بعد الجنة لا يمكن لعمار أن يرى جمالاً في أي حديقة من حدائق الدنيا.

كانت الرحلة تأخذ حوالي ثلاث ليال، استغلت سارة الفرصة حتى تتحدث إلى عمار محاولة أن تفتح قلبه لها مستغلة وضعه الحزين، بعدما فشلت قبل ذلك في أن تصل إليه! ، لكنَّ عيون عمار لم ترَ أحدًا بعد يمان.. فكيف لسارة أن تفعل؟!

***

عاد عمار غرفته متسائلاً ماذا يفعل؟! ، ودار حوار عنيف بين قلبه وعقله بدأه العقل.

- هل ستعيش على ذكرى من الماضي؟!، أم ستحاول أن تخرج من بوتقته لتكون مع الجميع في الحاضر؟!، وأراد عقل عمار أن ينسيه مرارة الفقد فقال له:

- ها هي فرصة أخرى، جرب واسمح لقلبك أن يحاول الحب من جديد!، ألم تكن سارة فيها من الجمال ما يرضيك؟!

فأجابه القلب:

- ولكن بعد يمان لا مكان، إن الحب الأول لا مكان لحب بعده أبدًا!

قال مقاطعا:

- ألم تتعهد أنَّك ستحيا من أجل الآخرين، فها هو قلب بحاجة إليك، أتتخلى عنه؟!

صرخ عمار في غرفته، وقال: "اصمتا!".

جرَّبَ النوم ولكن لم يستطع، أراد الهروب من أحاديثهما، وقرر أن يفتح قلبه لها، أو على الأقل سيحاول.

أخذ ينظر من نافذة الغرفة، حتى ناداه القمر بأنواره المتدلية منها محاولاً أن يراسله، فنظر إليه وقال:

– ماذا تريد، أشماتة أخرى تزيد بها نيران قلبي؟

- بل أردت أن أُهوِّن عليك، فما لاقيته أعياني، حاول أن تفتح لها قلبك لعلها تُنسيك مرارة الحنين الأولى!

نظر في وجع إليه ورد:

- يا أيها القمر، جمال الحب يكون في أوله؛ النظرة الأولى تخطِف القلب وتفتحه بقوة سحرها، ليس بأيدينا أن نحب!، ولكن بأيدينا حفظ العهد، ونسير على أمل باللقاء، في وفائك للحبيب وإن غاب لذة لن نجدها مرة أخرى، ولكن أتدري.. ما زال في قلبي بقايا أمل أن أجد قليلًا من ريح يمان، ولكن أحفظه في صدري فربما تكون رِيحًا من الجنة تخبرني بأن موتي قد اقترب!

بعد ذلك نام عمار كعادته متهالكًا كجثة خرجت منها الروح، واستيقظ عندما اشتدت حرارة الشمس القادمة في أشعتهِا من النافذة.

***

خرج ليرى السماء، ولينتظر الوصول إلى هناك، جاءت سارة ولم تتحدث، فقط أعطته ورقة وقالت له: "اقرأها في المساء".

وتركتْه وذهبت في خجل مسرعة، أكلتها السفينة ولم يرها بعدها في ذلك اليوم، ومر بلا أحداث حتى المساء، عندها ذهب إلى الغرفة وفتح رسالة سارة القائلة:

" عمَّار..

كنتُ دائمًا على عِلم بِمقدار حبي لك، ذلك الحب الذي لم يكن بيدي، فقد تعلَّق قلبي بكَ، وبأخلاقكَ، وبرغم أنك كنتَ دومًا بعيدًا، ولكني أقول لك إن أشد الحبِّ أبعدُهُ، وأقسى الشوق أقربهُ!..

كنتَ بالنسبة إليَّ الماء الذي يروي الزهرة، ولكنها كانت بعيدة عن الماء فتبكيه قهرًا وهو يسقط بعيدًا عنها..

فما للزهرة من لسان يقول للراوي أنا هنا فيجبره على أن يأتي إليها بالماء، وما لقلبي من لسان يجبر قلبك على

حبي له..
كنتَ كالنحلة التي تطير فوق الزهور ولكنَّها لا تستطيع أن تأخذ العبير منها، لضعفها وقلة حيلتها بين باقي السرب القوي الذي يجذب كلَّ العبير قبل وصولي!..
الآن.. قُدِّرَ لي أن ألقاكَ مُخففًا عني كثيرًا من اللوعة، كم كنتُ أختلس النظرات منك على حين غفلة، كما يترقب السارق خروج صاحب البيت ليذهب إلى ما يريد؛ قد كان قلبي معلقًا بك، كما تتعلق البنت بأبيها، كان خوفي أن يكون كله أحلام الشباب التي تمرُّ سريعًا..
ولكن ها هي سنوات مرت، وما زال قلبي يخفق باسمك، رفضَ الكثيرين على أمل أن يلتقي بكَ مجددًا، وها هو قُدِّرَ لي ألَّا يُبخَلَ على قلبي المسكين!..
أليست الصدقة على المساكين واجبة؟!، فلِمَ تضنُّ على مسكين مبتلى بالهوى؟!، قد كتبتُ كتابي هذا بحِبر من الأمل ودموع من الخوف؛ دموع تقول لي أنَّك سترفضه لا محالة، فمثلك إن عشق وفَّى!
ولكني كتبتُه إليك كما تكتب المكبلة في الأسر بكل أنواع القيود متذللة إلى السجان لعل كلماتها الصادقة تنسيه واجب الحقيقة..
وها أنا الآن، أقولها بصراحة لم أجرؤ عليها يومًا من قبل، إني أحبك يا عمار، وأتمنى أن تكون زوجًا لي، وإلا فاكتب لي أن أنصرف عن هذا الحب، ولا أظنني أستطيع!، وهذا عنوان غرفتي، كن رحيمًا قاسيًا و قل الحقيقة؛ ففي الحقيقة راحة للنفوس، وإن لم تكن على هواها!".

قرأ عمار الرسالة بصوتها، ودمعت عيناه بعدها، كلماتها مَسَّتْ شغاف قلبه بصدق، حرَّكت كلَّ مشاعره وَرَقَّ لها، ولكنه ترك قلبه يجيب في رسالة سيتركها قبل الرحيل!

***

كتب الرسالة في نفس اللحظة، وفي صباح اليوم عندما رست السفينة في الميناء، بدأ الجميع بالنزول، ذهب عمار إلى غرفتها، طرق الباب وترك الرسالة عنده، ثم نزل مسرًعا إلى ما جاء لأجله!

فتحت سارة الباب ولم تجد أحدًا، وجدت الرسالة ففتحتها وبدأت تقرأ:

"من عمَّار إلى سارة..
الآن وقد قُلتِ إن مثلي إن عشِق كان وفيًّا، أجيبُكِ:
أجيبكِ أن قلبي قد عاهد من أحب بأنَّ يصوم عن النساء بعدها- حتى وإن ماتت-؛ فإن لسان الرجل هو رجولته، وقد عاهدها، والعهد كان عندي واجبًا كالصلاة..
أصابتني بالسُّكْر دون أن أتجاذب معها أطراف الحديث، كانت وَرْدتي عندما جاء الخريف، أملي عندما تعصف بي رياح اليأسِ..
هي جزء من فؤادي وقد انشطر مُعلنًا، أنَّ النصف الذي في صدري لن يكون إلا لها!، لها وحدها ومع غيرها سيكون نارًا عليَّ، وظلمًا مني للغير..
حاولتُ بعدما ماتت أن أفتح نافذة لغيرها، لعلها تنسيني مرارة الوحدة، وعَيشي في عباءة الماضي، ولكن..
وجدتُ أنَّ ذلك لا يجوز، هل مَن أحبَّ حورية سيفكر بعدها في البشر الذين يقطنون هذا الكوكب؟!، وقد كانت منزلتها في قلبي أفضل من الحورية!.. أما أنت يا سارة، فكيف لي أن أبتعد عن كلِّ ذلك!؛ هل لطير قد كُسر جناحه أنْ يطير من العُش؟!..
تعلم أضواء القمر أنني قد حاولت، فكنت أمام محاولتي كطفل صغير ذهب ليحارب أعظم محاربي (السومو)، فكيف لهذا الصغير أن يحمل هذا العملاق؟!
فكيف لنملة أن تحمل فِيلًا وتُبعده من طريقها!..
أعتذر إليكِ بدموع، تدمي قلبي وكل شيء، ذكرتني بحبيبة لم آنس بلقائها، وبقلب عاش على ذكرى حب لا وصال فيه!".

اغرورقت عيون سارة بالدموع، وابتسمت ثم ضمت الورقة إلى صدرها وقالت:

"حفظك الله من كل سوءِ يا عمار"!

***

ذهب عمار إلى المدينة وعزم أن يعود في سفينة مساء اليوم، بحث عن ما أرادته أمُّ أمين، سأل الناس عن عنوان البائع حتى وجد ضالته بعدما تحرك كثيرًا يسأل الناس ويرى ما في

هذه المدينة من معالمَ!

كان قريبًا من الميناء في النهاية، وجده مزدحماً بالناس، دخل إلى التاجر وقال:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام.

- هل أجد عندكم ماكينة الحياكة؟

- نعم.

- كم سعرها؟

- ثلاثون ألف قطعة نقدية!

- كم؟!

كان ذلك كل ما مع عمار من المال!..

الحيرة من جديد تغمره، كيف السبيل؟!.. قطع التذكرة ولم يبق معه سوى بضع عملات فوق هذا المبلغ!

ولكنه آمن بقدرتها على الحياكة، ولو حتى لم تكن.. قال في سره

"وعدي إلى أمينٍ عندي أعظمُ من مالِ الدنيا!"!

- حسنًا سأشتريها.

كان الليل قد أوشك على أن يأتي وموعد السفينة قد حان، شحن الماكينة وبينما هو في طريقة للصعود شاهد ما لم يصدقه.. يمان!

جرى نحو فتاة، هَرْوَلَ مُسرعًا ووقف أمامها، وقال في نفسه:

"ماذا؟!.. إنها ليست يمانًا، إنها طيف بدا لي كالعادة وصدقتُه، يا لقهري ووجعي!، اللهم ارزقنا رحمة من عندك".

- أعتذر، ظننتُكِ أخرى!

ثم ذهب حزينًا كئيبًا على حاله، يرثي نفسه، صعد على متن السفينة إلى غرفته، كل شيء كان جيدًا، كانت السفينة هذه أصغر، وتصل في يوم واحد!

***

كل شيء هادئ إلا موج البحر الهائج، ذهب يصطاد الأسماك، ففيها تعليم الصبرِ الذي لا يجيد في الحياة غيره، وأخذ يحدِّث أمواج البحر التي كانت شديدة في هذه الليلة وقال لها في حزن شديد:

"الآنَ أيها البحر وقد وفَّيتُ بالعهد -تقريبًا-، فهل يا ترى آن الأوان لكي ألتحق بهم؟، أم أنني سأظل أُبحر في داخلي، فلا أنا وصلتُ لبر الراحة ولا أنا غرقت وارتحت!".

أشعلت مشاعر عمار شجون البحرِ فأصبح الزلزال الذي في داخله، يضرب في قاعة، والسماء تفاعلت مع الإعصار الذي في صدره، وبدأت تمطر..

إنها عاصفة قادمة.. كل شيء يضرب، والأصوات تتعالى!

زاد الصخب، وصوت القبطان ينادي، على الجميع أن يدخلوا إلى الغرف أسرعوا!

كان المشهد يجسِّد ما في صدر عمار تمامًا، بل وربما ما في صدره أشد، كانت العهود تحركه قليلا وتملأُ الفراغ الذي في صدره مكان القلب، يريد فقط أن يَعبُر هذه العاصفة.. لا لنفسه، ولكن حتى يصل إلى أمِّ أمين حتى تفتتح مصنعها الجديد الذي سيكون فاتحة خير لها، وذكرى من أمين إلى أخيه الصغير!

***

بدأ القبطان يصارع البحر الهائج على الدفة، والمساعدين يصارعون الهواء الغاضب ويفتحون الأشرعة..

قاطع صوت القبطان هذه الضوضاء قائلاً:

"على الجميع أن يرتدي سُترة الأمان.. على الجميع أن يرتدي سترة الأمان!"!

المياه هاجت، بدأت تضرب بعنف، أوشكوا على الغرق، صارع الجميع لساعات حتى يعبروا هذه المأساة التي توشك أن تعصف بكثير من الناس!

نظر عمار وقال:

"اليوم ربما سنذهب، رائحة الموت تداعبني مجددًا، وكأنَّ يمانًا تقول لي: "أنتظرك"، وأول ما شممتُ الريح، كأنَّ شيئًا ما جذبني من هذا الموت القريب"..

بدأت الثورة البحرية تهدأ، والأمطار تتوقف، وكأنَّ كلَّ ذلك انعكاس لمشاعره!

حينما ثارت ثار كلُّ شيء، وعندما داعبتها رائحة الأمل هدأت وهدأ معها كل شيء حتى أعاصير السماء، ونجى الجميع من العاصفة!

***

نزل الناس من غرفهم إلى السطح، يساعدون أعضاء الطاقم على إعادة المياه الغاضبة فوق السفينة أن تصل إلى مكانها، الكلُّ تعاون في ذلك حتى أنهوه.

دخل الجميع غرفهم ليناموا، ودخل عمار في عالمه ووقف أمام باب الحلم، يرى أي رسالة –وإن كانت كاذبة– من يمان، طرق الباب، ولكن لم يجد إلا صورتها واقفة، تلوح له أن تعال، بلا صوت ولا حركة.

بينهما قطار يمر! ، فلا يستطيع أن يذهب إليها، ولا أن يسمع صوتها الذي يدخل في قلبه فيسد كثيرًا من الثغور التي قد كثرت فيه بعد كل ما مر به.

جاء اليوم التالي.. أوشكوا على الوصول، أحد الركاب سأل عمار:

- من أين اشتريت هذا القميص؟

نظر إليه في تعجب لبداية حواره، وقال له:

- أهدته إلي أم صديقي، ستفتح مشروعها قريبًا.

- جميل صنعها بحق، أين عنوان المكان الذي ستفتتحه؟

أعطاه عمار العنوان، فشكره وانصرف.

وصلوا إلى الميناء، وقال حارس السفينة:

- من كانت له حاجة شحنها فليأت إليها.. فذهب عمار هناك لأخذ الماكينة ليعود بها إلى البلدة.

***

عاد أخيرًا ومعه الماكينة التي كلَّفته كلَّ ما يملك، ولكن العهد أغلى من كنوز الدنيا، خصوصًا إن كان مع صديق وفيّ!

طرق الباب وأخذت أم أمين الماكينة، أكلوا ثم مرَّ اليوم، شكرت عمارًا ثم نام الجميع، في الصباح قالت أم أمين:

- نريد كثيرًا من الخيوط.

نظر عمار إلى الأرض في خجل وقال في نفسه:

"ولكن ما عاد معي مالاً!".

لم تتركه يكمل تفكيره، وقالت له بابتسامة صغيرة:

- خذ هذا المال، واشتري يا ولدي.

أخذ العملات وذهب يشتري، فقد كان متوفرًا في سوق المدينة، اشترى هو وعلي أخو أمين الأصغر.. كان عمره سبع سنين، شقيًّا وضحوكًا، لديه شعر أملسُ يتدلى على عينه، يتحرك كلما جرى كما يتحرك شعر الحصان عندما يجري، وسيم ذلك الفتى الصغير.

***

بدأت عائشةُ بالعمل، مشروع صغير لا يعلم أحد هل سينجح أم أنَّ كل شيء سيذهب سدى؟

كانت كل يوم تنسج ما تستطيع أن تنسج، كل شيء يمر كما أرادوا، أخذوا بالأسباب واستعانوا بالله، وضعوا في ذلك كلَّ ما يملكون من مال.

مرت الأيام، وتوالى الإنتاج، كان كل ما صنعته جميلاً.

في هذه الأثناء سجَّل عمار في كلية الطب ليكمل الدراسة، فقد فتحت الجامعة من جديد، وها هو يذهب كل شهر أسبوعين.

مرَّت ثلاثة أشهر، وصنعت عائشة جَمالاً كجمال الطير حينما يظهر فيه تنساقًا وتناغمًا بين ألوانه المختارة، صنعها متين ومبهر.

أعلنت عائشة عن افتتاحها أخيرًا، ثم افتتحوا العرض...

لم يأت إلا قليل من الناس!

استحالت نظرات الأمل إلى خيبة، ولكن قالوا: "سننتظر؛ ربما الناس مشغولون!".

***

يوم يمر وآخر ينقضي وهم ينتظرون، ما بيعت إلا قطع قليلة، كلُّ المال ذهبَ، والتعب الذي بذلوه ضاع؟!

قالت أم أمين:

- لا تيأس يا بني؛ فربما سيأتي الناس، وأعيد لك ما صرفت!

غضب من قولها، وأجاب:

- سامحكِ الله يا أمي، والله ما فكَّرتُ أبدًا في مال، بل في عهدي لأمين، تُرى كيف سأقضيه، وعدتُه بأن يصير صرحًا كبيرًا، يعلو اسمه فوق السحاب، ملابس الأمين تكون علامة فارقة في عالم الملابس، ولكن يبدو أن العهد الذي قطعته، قطعت حباله الأيام!

فقالت:

- قد وفَّيتَ يا عمار، جعلك الله سعيدًا في عيشك، مرفوعًا بين الناس دائمًا

- مرَّ شهر يا أمي، سنعلن فشل المشروع على ما يبدو.

- دعنا نغلق الآن، ولتكن تلك الملابس معنا لمن أراد.

بدأوا في ادخال الملابس إلى المنزل قبل اغلاقه، فقاطعهم صوت آتٍ من بعيد:

- انتظروا.. انتظروا؛ أنا قادم لأشتري!

انتظرا حتى يأتي وصل الرجل، فقال عمار على الفور:

- ألستَ ذاك الرجل الذي سألني عن ما أرتدي في السفينة وقال لي أين عنوانُ الصانِع؟!

- نعم أنا هو، وأريد أن أتعاقد مع الصانعِ، أنا تاجر أبيع بضائعي في عدد من البلدان.

ثم قال لعائشة:

- رأيتُ على هذا الشاب ملابسَ صناعتها جيدة، أرى فيها سلعةً جيدة وستُحقق رِبحًا كثيرًا إن عُرضت، لذلك أريد أن تصنعوا لي كثيرًا منها لأشتريها، سآتي مع مطلع كل ستة أشهر آخذ منكم!

استبشر عمار وقال في سره:

"فرج يأتي من حيث لا ندري، بعدما كاد اليأس أن يفتك بقلوبنا، الآن أعلم أنَّ آخر العمل والتعب نجاح وراحة!".

أخذ منهم التاجر ألف قطعة! ، ثمَّنوا الواحدة بخمسينَ قطعة نقدية، ووافق التاجر.

خمسون ألفًا نقدًا قد حصلوا عليها، والجميع يرى التاجر وهو يأخذ القطع ويحملها حتى الميناء.

الكل بعد ذلك أصبح يشتري، جاء بعض النسوة، يتعلمن الحرفة من عائشةَ، مرت الشهور وأضحى يتعامل معها كِبارُ التجار، أخذت مكانًا أكبرَ في السوق.

أصبح أكبرَ مصنعٍ للملابس وأشهرها في المدينة.

قالت عائشة لعمار:

- أرأيتَ، فقط بالعمل والتعب سيكون كل شيء على ما يرام، سترى أنَّ التعب المبذول، كان الغذاء لكثير من الأشجار التي ستكون لك ظِلًّا ظليلًا في الأيام المشمسة؛ فلا نجاح بلا كَدّ، والصبر يا ولدي بداية كل فرج!

****

(٢٠)

﴿حِـكَـايَـاتُ الْـحَـرْبِ﴾

كان عمار جالسًا في بيته على كرسيه المتحرك يسترخي قليلاً، يتذكر الأعوام العشر التي مضت، ويتفكر في كل عهد قطع به، الحرب التي ظلَّت خمس سنوات، التعب الذي بلغ أَشُدَّهُ، وتُوِّجَ بالفرج والنصر والنجاح والمال الوفير.

تذكر كيف أنَّ عمره تسعة وعشرين عامًا فقط، فكيف يرى نفسه شيخًا كبيرًا لا طاقة له، ولا رغبة في الحياة!

ثم تفكر في الحياة وأسرارها، فأتى بدفتر من دفاتره وكتب في أول صفحة فيه..

"ما الحياة؟!.. يا الله!، إنها سِرٌّ يُعلِّمنا..
الحياة تعلمنا دائمًا، دروسها قاسية، لا ترحم الضعفاء ولا تجازي إلا الأقوياء، أولئك الذين يثبتون في وجه الفتن ويتحملون صعابها، ويعلمون أن كل مُرٍّ سيمر، وأن القادم سيكون أفضل..
إن أُصيبوا يقولون: "لا بأس"؛ فكل جرح مهما زاد وجعه سيندمل، وكل ألم إنما هو بشرى لفرجٍ آت".

❊❊❊

نمت الدولة وأصبح لها حاكمٌ أمينٌ، قد اختير منذ ثلاث سنوات، وها هو عمار قد قضى كل ما عليه، فقد أكمل دراسته، وأصبح طبيبًا كما أراد أبوه، ووفَّى بعهده لأمه وأصبح من المتميزين الذين يُشار إليهم بالبنان، من الأثرياء.

كيف أنه أكمل المسير وافتتح المشفى!، كيف أصبح من أشهر الأطباء!، الجميع يأتي إليه ويثق به.

أصبح عمار زاهدًا في حياته لا يأكل إلا القليل، ولا يخالط الناس إلا للحاجة، كان متنفسه الوحيد هو شفاء الناس من أوجاعهم، حتى هزل جسده وصار نحيفًا، لحيته تغطي أكثر وجهه.

في يوم بينما هو جالس في شرفته يتأمل السماء.. دخلت عليه أم أمين تسأل عن حاله كعادتها:

- مالك يا ولدي زاهدًا في العَيش، حتى أصبح جسدك هزيلًا هكذا؟!

رد عليها بابتسامته المعهودة:

- لا شيء يدعو للقلق يا أمي.

- كن بخير يا عمار؛ هذه الحياة ليست إلا دنيا، والبلاء فيها على قدر إيمان المرء.

ابتسم عمار وشكرها، ثم أدار وجهه وقال في نفسه:

"ليتهم يدركون أن حاجة القلب للكلمات الطيبة أهم بكثير من حاجة الجسد للطعام والشراب، يدركون أن القلوب التي تفقد أحبتها لا تستلذ الحياة مرة أخرى وإن وُجِدَ النعيمُ!؛ فالنعيم ليس مالًا ورَغَدًا في العيش.. بل صُحبة وجمع فيه الأحباب".

***

ثم ذهب وفتح دفتره القديم وأخذ يعيش مشاعره من جديد ويقرأ يبكي ويضحك، يتذكر السنين التي مرت، وأخذ يكتب من جديد..

"مر العمر وحررنا البلاد، فقدنا الأحباب وأتممنا العهود، وها أنا أصف للناس الدواء حتى يتم شفاؤهم من الآلام، ولكن لا أحد هنا يشفيني مما أنا فيه، يا للعجب!..

حتى الموت لم يكن رحيمًا بي؛ فها هو القلب أصبح منكسرًا وما عادت تلائمه جبيرة..
من قال إن المال يشتري السعادة أو الراحة أو الحب أو الأصحاب، فليأخذ كل مالي ويعطيني لقاءً بأبي أو حضن أمي أو كلمة مع يمان أو ابتسامة مع أمين!".

وابتسم، ما عاد يبكي عمار، أصبحت كل مشاعره ابتسامة، حزينة أو سعيدة، كلها ابتسامة باردة لا روح فيها.

ثم أكمل:

"صحيح أن الدموع عزيزة غالية، أثرها في النفس عظيم، إلا أنها أصدق صديق وخير رفيق، تكون معك في كل أحوالك؛ فإن طلبتها أتت.. في فرحك تسبق كلماتك، وفي حزنك تزيل الحمل عن لسانك، وفي ترددك وإيمانك وخوفك وكل أوقاتك، ستبقى الدموع أصدق شعور وأبلغ من أفصح كلمة، ولكن الدموع جافتني ورافقتني البسمة، البسمة الباردة القاتلة التي قتلت كل مشاعري، وأصحابي، يا للألم!؛ كلُّ شيءٍ عاد إلى طبيعته، ولكن ما زالت المشاعر تحتدم في قلبي، كلما أتذكَّر الطاغية!..
انتصرنا ونسى الجميع بطولات قد خطَّها الأبطال، سأعمل على نشر القضية وقول الأسرار.. أجل.. سأقول إنَّ العالم كان كله كاذبًا، تحالف علينا في الحرب، قبل قتلنا، قبل أسرنا، بل وقال إننا مستحقون!".

قفل دفتره وقام إلى شرفته وقد عزم على فعل ذلك، قرر في نفسه:

"بعدما ذاعت شهرتي، وأصبح الجميع يتمنى أن يلتقي بي، سأعلن في المدينة أنني سأحكى بطولة أمين في الحرب بتفاصيلها!".

***

خرج من منزله وأذاع في المدينة ذلك، ثم جُهز المكان، وأعد عمار خطابه.. وبعد يومين اجتمعت البلدة ووقف عمار يصدح بكل حماس:

"يا أيها الناس..

الجميع هنا يرى ذلك النجاح الذي قد تحقق وأصبح علامة من علامات التفوق في مجالات

التجارة..

الكثيرون منكم قد سمعوا عن الحرب التي أكلت بآثارها قلوب الكثيرين، فمنهم من مات ومنهم من عاش بلا قلب!..

أحد هؤلاء الأبطال كان أمين.. أمين الذي سُمِّيَ باسمه هذا المصنع، ليعلن بقاءَ ذكرِهِ على مرِّ العصور، شاهدًا على طغيان المستعمرين والقتلة..

قد سطَّر أمين بحياته معاني الوفاء والتضحية..

قد كان أمينًا في كلِّ فعل، وفيًّا في كلِّ أمر، حنونًا على من أتعبته الوحدة وأرَّقته الليالي، قويًّا على العدو كما لو كان لَيثًا ضاريًا، إذا جرى هابه كلُّ عدو، أما عن التضحية فقد كان رمزًا لها كاتبًا لمعناها بدمائه في معاجم اللغة!..

في ليلة من ليالي الحرب، بينما كل شيء ساكن مثل سكون النهر في ليلة الصيف، والسماء صافية..

غدر العدو وباغتنا، ضرب بكلِّ ما يملك، المدافع من أمامنا والطائرات من فوقنا!..

أخذ الحراس المدافع وقصفوا الطائرات، كانت الشمس تطلع في الليل الدامس من شدة الحرائق والنيران!..

ضحى الكثيرون بحياتهم ليحيا البقية، ليحيا الوطن الذي نعيش في ضواحيه الجميلة الآن!..

كان شامخًا كالجبال التي لا تذروها الرياح، بعدما ضربَنا العدوُّ وفقد الأبطال أرواحَهم حتى سدت الفتحة -التي أحدثتها المدافع- بجثث الموتى!..

انتهى كلُّ شيء، إلا صاروخًا غادِرًا ضربه خائن كان بين أظهرنا يَدَّعي الفضيلة، وكل جرح يهون إلا طعنة خائنة في الظهر!..

ضرب الصاروخ عليَّ أنا!.. حينها قلتُ أني ميت لا محالة، ولكن في تلك اللحظة جرى وقذفني ليجنبني الموت.. لأحيا أنا.

ثم ضحى بنفسه وخرج مع اشتداد القصف مع مجموعة من الأبطال ليقابلوا الهجمة، ويموتوا من أجل الحرية..

عاش -حتى آخر نفس في صدر وآخر قطرة دم في قلبه- حريصًا على حريتنا، أمينًا على أرواحنا، وخرج حتى ردَّ الخائنين في أهم معركة من معارك الحرب، تلك التي لو خسرناها لكان الجيش كله قد هلك!..

ثم مات.. مات أمين وأخذ معه قطعة من القلب التي ما زالت بعيدة بُعدَ السماء عن الأرض!..

هؤلاء الأبطال هم من جعلوا لأرواحنا قيمة، أناروا لنا الطريق بعدما كان الظلام حالِكًا، جعلوا لنا غاية نعلوا بها بعدما كانت حياتنا بلا هدف..

حفروا في قلوبنا معاني التضحية، فحفرتْ في القلوب معاني الوفاء.. الوفاء بكل عهد هو الوسيلة التي سنعيش بها بعدهم، فنسمو ونسمو حتى نرى كل الأحلام حقيقة..

هم الذين يجب أن تظلَّ أسماؤهم مرفوعة في كل نفس، محفورة في كل قلب، فلولاهم لما كان أطفالنا أحرارًا، ولما كانت لنا حرية في اتخاذ القرار، ولكانت أموالنا منهوبة وحياتنا معدومة ومعاشُنا كئيب مكروه..

أعادوا لنا معنى الحياة بعدما غادروها، مضحين لنا كي نحيا فيها مرفوعي الرأس".

الجميع بكى من حديث عمار حتى لم تعد في المكان قطرة من التراب إلا بُلِّلَت!

وانتهى اليوم بآمال ستبنى، وأحلام ستكون حقيقة يومًا ما، وبآلام قد استيقظت من نومها، كما لو كانت جراثيمًا في الجسد تنتظر أن تضعف المناعة كي تأكل من أجساد حاملها أكل الجائعين!

***

هكذا بدأ عمار يعلن فصول الطغيان التي تخفيها روايات الحروب! ؛ حروب تُعلي قِيَمًا عاشها الصادقون، وتقتل أخرى قننها الطغاة.. هكذا قرر أن يقضي عمار بقية حياته، ساردًا حكاياتهم، آملاً في أن يلتحق بهم في قريب الأيام!

وبعدما اشتعل كل شيء في صدره عاد إلى البيت، جلس في هذه الليلة بقلب ثقيل مفتقِدٍ.. تمكّن الوجع منه، بعدما كتمه بتحقيق الوعود، ومخالطة الناس!

أراد أن يبكي، أراد أن يرى يمانًا ولو لمرة، أراد أن يعرف ملمس يدها بيده، أراد أن تكون معه تطبطب على ظهره الذي قد انحنى من كثرة الأحزان!

ارتمى على سريره في يأس وقال:

"آهٍ!.. يا لحماقة الناس، يظنّون أنّ السعادة في كثرة الأموال، عجبًا!..

من ذا الذي يظن أن القلوب التي فقدت، يمكن لأحد أن يخفف عنها، وهل مَن جرَّب بَرْدَ الوحدة، سيجحد ولو لحظة جمال دفئ الأهل؟!..

آه من الدنيا وما فيها!..

كانوا يضربون المثل بمن فقد حبيبته فعاش تعيسًا، ومن فقد أهله فعاش وحيدًا، وبالخلِّ الوفي، فكيف يا ترى من وجده وفقده؟!"!

أصبح عمار أسيرَ كلِّ هذا الوجع، تجمَّعت عليه كل هذه المشاعر معًا في قلبه، حتى أصبحت الدنيا في عينه رخيصة.

قرر أن ينام لعل في الدنيا شيئًا آخرَ سيُضرب به في قادم الأيام!

جاء الصباح، وكان كل شيء كما هو، أناس يَقُصُّون حكاية أمين، يُعلون قيمة التضحية في النفوس ويقولون: "إن الموت في سبيل الحق غاية النبلاء"!

***

توالت الأيام وعمار يحيا بقلب ميت وجسد يحيا متشبثًا بذكريات الماضي!

ثم طاف على المدن يُحيي في نفوس الناس معنى الحرية، معنى التضحية، أراد أن يَبث في كل قلب أن من ماتوا أحق أن نفخر بهم!؛

ففي لقاء يذكر قصة عن الولد الذي خان، فأعلي في نفوس الناس قيمة الوفاء، وكرههم في الغدر!، ويذكر في آخر قصة أمين فيعلم الناس أن التضحية تحتاج إلى جسد جَسور وقلب قوي.

وفي بلدته التي كانت شاهدة على حكايات الموت.. موت الأهل والحبيبة، وقلبه الذي مات في جسده.

حكى هناك قصة غاشم أباد قرية بأكملها، لينتقم منهم جرَّاء هزيمته من آخرين!

حكى عن الصورة التي ستظل في ذاكرته عن تلك الأسرة التي قد جعلها الطاغية، تمثالاً حيًّا عن معنى الموت، عن معنى الظلم.

وكأنَّ الزوجة في نظراتها بعد الموت، قصص عن الفصول التي تخفيها الحروب!

كان يروي مشاهد الموت على الناس، ويذكر لهم أنَّهم في عالم تملؤه الأكاذيب.. ففي الحرب كان هناك الكثير من الذين يرفعون شعارات الإنسانية ويقولون: "لو ظُلِمَ حيوان لأتينا بحقِّه!"، مع ذلك يدعمون الغاصبَ في قتله لهم!

وفي مرة، يحكي عن قصة حب نقية لم تكتب لها الحرب الاكتمال، عن ذلك الشاب الذي قال بأنَّ الوطن سيكون مهرها، ومن ثم عاد بالمهر وماتت الحسناء التي لم يُغْلِها المهر!

كيف عاد بعد الحرب يبحث عن مَعْلَمٍ واحد للحياة في مدينتها، ولكنه لم يجد، فدارت الدنيا حوله وعصفت به، كما تَذَرُ الذارياتُ تراب الأرض فتفرِّق بعضه عن بعض!، فاز بالحرب وعاد بالمهر ليحصل على وطن، ولكنه خسر كلَّ شيء!، فضاقت عليه الأرض بما رَحُبَتْ بعدما ماتت حبيبته!، فأصبح مثل تلك السمكة التي رأت طعامًا شهيًّا في وسط الماء، فسبحت نحوه لتفوز به قبل غيرها، ولكنها وجدته بعد عناء طُعْمَ صيادٍ قد تَمَلَّكَ منها، فأخذها من بين أقرانها، وظنت أنها ستموت!، ولكنَّه لما رأى حسنها جعل منها زينة له، مأسورة في بيت زجاجي وحيدة تهوى الموت ولكنَّ الموت لا يرحمها من قسوة الذكريات وألم الوحدة، ومرارة الحنين!

***

أكمل المشوار حتى أصبحت كلُّ مدن الوطن تعلم بأبطال الحروب رغم أنه لم يزرها جميعًا.

تَغَنَّى الجميع ببطولاتهم، عاشوا الفرحة التي حققوها وضربوا بها الأمثال، ولكنَّهم لم

يجربوا معنى أن تفقد من كان لك الحياة!

كم تغنى طفل يقول لصاحبه:

"أريد أن أكون مثل أمين؛ أضحى لأجل الوطن، أعيش له، ولأجل الأصحاب".

وهذان الطفلان اللذان قد جعلا من القصص –ببراءتهم– لعبة يستمتعون بها، فادَّعَى طفل أنّه أمين البطل، وآخر لسوء حظِّه قد كان دوره أن يكون سالم الخائن!، فيبغض الأطفال أن يقع الدور على أحدهم حتى لا يكون الخائن، والكل يهوى أن يكون في اللعبة أمين.

بعث كل ذلك في قلبه أملاً بأنَّ الجنة قد اخضرَّت من جديد وأزهرت وعاد الربيع، ألعابُ الأطفال تُرَسِّخُ في نفوسهم معنى الوفاء والصداقة وحب الوطن، وعشقوا الموت في سبيل القضية، فتعلموا التضحية.

وقد اجتُثت من نفوسهم معاني القبح، كالخيانة والسرقة والطغيان، خوفهم من أن يُطلق عليهم –حتى وإن كان في اللعبة– دور الخائن الذي يَغدِرُ ويقتل أصحابه يومًا بعدما حمل أمانتهم وأسرارهم!

****

(٢١)

﴿إِلَـى اللِّـقَـاءِ﴾

بعدما عاد عمار من المشفى، دخل غرفته وذهب إلى ورقة قديمة قد احتفظ بها، ثم تأملها وابتسم ثم قبَّلها..

"لا تحزن يا عمار، عد بالوطن ذلك مهري وأنا أنتظرك مهما طال الزمن، ولا تحزن فأنا أحبك منذ رأيتك أول مرة، ليس البوح علي يسيرًا ولكنك جزء من روحي، رحم الله أوبيك، ولكني عهدتك قويًا كن قويًا كما أنت وعد لي، سأنتظرك".

تأكد عمار من وحدته فسمح لعينه أن تبكي مجددًا، وصرخ:

"آه يا قلبي، كم أفتقدُ أن أكونَ مُفتقدًا!"!، ولكن لم يسمع أحد.

جلس قليلاً يتذكر الماضي والأحباب وتكالبت عليه الأوجاع مرة أخرى فنادى يمانًا:

"آهٍ يا يمان، واللهِ لقد عدتُ بالوطن، ووفيتُ ولكن أين أنتِ؟، لماذا تخليتِ عني وذهبتِ؟!، أهان الحب عليك، وهُنْتُ أنا عليك؟!"!

❊❊❊

البابُ يطرقُ ويقطع حبل أفكاره الذي أعياه، ويقطع خيط دموعه المغزول

- من الطارق؟

- أنا ساعي البريد.

- حسنًا.

فتح عمار الباب له، واستفسر منه عن ما يريد.

- أليس هذا منزل الطبيب عمار ياسر؟

- بلى هو.

- حسنًا هذه دعوة لك.

أخذها عمار منه ثم فتحها، كانت دعوة مُرفقة برسالة من القائد خالد.

قرأ رسالته التي يسأل فيها عن حاله، ويدعوه فيها إلى مؤتمر كبير بعد الغد للحديث عن الحرب وآثارها، مدعوٌّ له كثير من القامات، والدعوة له متاحة لأهل البلدة، وكان في بلدة (الزير).

عندما قرأ عنوان المؤتمر تذكر حسامًا الذي قابله في القطار فقال:

"أظن أنَّ (حسام) سيأتي له؛ فقد كان مُغرمًا بالحرب، ربما أراه هناك".

***

في صباح اليوم التالي، أخذ معه بعض المال وذهب إلى محطة القطار، قطع التذكرة، وجلس بجوار النافذة كعادته، تذكر الحلم الذي كان جميلاً في ركوبه هنا آخر مرة، وقال في نفسه:

"آه لو كان للحلم طريقٌ لسلكته ولو كان محفوفًا بالمخاطر؛ ففيه كان النعيم، ولكنَّ أحلام المنام لا يُكتب لها أبدًا أن تكون حقيقة، ويا ليت أحلام المنام يقين!

انطلقَ القطار، وأخذ يشاهد المناظر، كيف عادت الحياة في سنوات قليلات بعد الحرب.. الطيور تغرد في المروج الخضراء، التي تزينها ألوان الطيف كأنها تاج جاء من السماء مرة أخرى، ليعلن عودة الحياة بعدما أفسدها الطاغية!

الأطفال اليوم يمرحون ويلعبون، فابتسم وقال:

"لأجل هؤلاء ماتوا آملين في مستقبلهم ناظرين له".

❋❋❋

وصل إلى المدينة فأخذ أمتعته، وذهب إلى نُزُلٍ يبيتُ فيه قريب من قاعة المؤتمر وقال للعامل:

– السلام عليكم، أريد أن آخذ غرفة ليومين.

– حسنًا.

– بِكَم الليلة؟

– خمسون عملة.

أعطاه الأموال وحجز غرفة، ثم ذهب إلى الغرفة ووضع أمتعته البسيطة وبعدما استراح من وعثاء السفر، خرج يتفقد البلدة.

كان يرى السعادة والأمل في عيون الناس، هذه البلدة الصغيرة في الشمال الشرقي، كان يحكمها رجل عادل طيب، ما زال عليها حتى اليوم لهذا فَرَّ البعضُ إليه.

❋❋❋

تفقد وجوه الناس، وَهَامَ قليلاً في عالم الخيال الذي يحيا فيه.. كانت تبدو له صورتها في كل وجه، كانت محفورة في قلبه لم تغادره يومًا واحدًا!، فعاد من خياله، وقال مبتسمًا رافعًا وجهه إلى السماء وقال لها:

مَا لِي أَرَاهَا فِي السَّمَاءِ عَلَى الْقَمَرْ؟!، وَكَذَاكَ فِي سَيرِى عَلَى كُلِّ الصُّوَرْ؟!

هَلْ كُلُّ عَينٍ حِينَ تَعْشَقُ لَا تَرَى إِلَّا الْحَبِيبَ؛ كَأَنَّهُ كُلَّ الْبَشَرْ؟!

ثم عاد إلى الفندق لينام..

❋❋❋

في صباح اليوم التالي كان موعد المؤتمر الذي دُعِيَ إليه، ذهب عمار إلى القاعة، احتضن القائد خالد وعبد الله وكل أصدقائه من الجيش، ثم ذهب وجلس بين المدعوين يستمع للمتحدثين الذي كان بينهم القائد خالد.

كان يُصغي إليه حتى دخلت فتاة.. فانتفض من مكانه واهتزت كل مشاعره:

"أهي حقيقة أم إحدى الخيالات التي تأتيني في كل ساعة!، أهي هي؟!.. هل هذا حقيقي؟!"!

جلس في القاعة مترقبا، متشوِّقًا، يراقب كل حركة لها، منتظرًا الفرصة، ليتحدث إليها.

عندما جلست الفتاة أمامه، ذهب إليها:

- كيف حالك؟

- عمار!

- نعم، أنا عمار.

- كيف حالك؟!

- بخير

ثم قال لها بلا تمهيد في لهفة يائس:

- كيف حال يمان؟!

صمتتْ لوهلة، ثم قالت في أسى:

- لا أدري، لم أرها منذ افترقنا بعدما قُصفت القرية.

- هل نَجَتْ من القصف؟

- نعم، وذهبت مع أهلها إلى إحدى البلاد.

التفت عمار ونظر إلى السماء في حبور وأمل.. أمل خالطه هيبة، لكن شعوره أنها ما زالت على قيد الحياة قد جدد في قلبه الأمل، قد ضمد جرحًا وسَدَّ ثُقبًا من الثقوب التي قد سببتها له الحياة!

لمع البريق في عينه مجددًا، ظل يتساءل، تارة يكذب نفسه، وأخرى يصدق عقله، ويقول يا لرحمةِ الله!

أصبح المؤتمر كله بالنسبة له، ذكرى اختلاس النظرات أيام الجامعة، حلاوة جلسة المكتبة وحديثه معها، تَغَنَّى الكون كله بضحكتها التي أطلقتها سهوًا حينها!

لم يُنصت إلى أي كلمة قالها المتحدثون؛ لم يعد في ذلك العالم الآن؛ كل ما يريده هو أن يطير إلى حيث تمشي يمان!

الحياة أشرقت من جديد، كأنَّه قد أُشفق على حاله، وقيل: "دعونا نزيل عن ذلك الفتى قليلاً من أحزان الأمس!".

تمنَّى لو استطاع أن يذهب إليها ويسألها عن حالها، ويخرج لها في الصورة من جديد، ولكنه تذكر أنها بعيدة، في حيث لا مكان.

تسلل في مخيلته هاجس أنها قد عاشت حياة جديدة، وتزوجت ربما لديها اليوم طفلة من رجل آخر.. أصابه ذلك بجرح جديد، أصبح كثير الشك في كل شيء، ولكنه قال:
"يكفي أنها تحيا، ربما تذكرني، ويكفيني أنها سعيدة"!

***

ناداه القائد خالد، فانتشله كعادته من دوامة الخيال، وأعطاه مكبرًا للصوت ليقول كلمته حول الحرب.

وقف عمار ونظر إلى الوجوه المتأملة، كيف أعادت الحرية إليها الأمل، وابتسم ابتسامة عبث، ثم قال:
"في الحرب روايات لا تصدقها العقول، وها أنا الآن سأقُصُّ عليكم واحدة من هذه القصص..
في ليلة من ليالي الثورة، كان أحد الشباب عاشقًا فتاةً، دارى حبَّه بعفاف تام وحب صادق، ثم عزم على خِطبتها، فوافق والداه وقررا أن يذهبا معه لأهلها..

في ذلك اليوم..
خَطَّ رسالة لهذه الحبيبة في الليل ليهديها إليها، حكى لها عن حبه لها، ذلك الحب الذي أخفاه لكي لا يلوثه..
وعندما انتهى منه وحانت صلاة العشاء قبل موعد اللقاء.. ذهب إلى الصلاة..
كان قلبه يرفرف من الفرحة، كعصفور تعلم الطيران فلا يبيت في العش، ولكن ضربه الصياد..
بينما هم يصلون، أعلن الطاغية ضربته لهم، فقصف ودمر البلدة، ولم يكن ذلك القصف يسيرًا عليه، فقد أخذ أبويه، ومنعه من حلاوة الوصل، وبقى في مرارة العزاء، وألم الأشواق..
وتحرك -في نفس اليوم- الجيشُ الذي بدأ المسير ليحرر الوطن، وتحرك الفتى معهم تاركًا رسالته، أو لنقل: "فاقدًا الأمل"؛ فقد ضاعت مع الحرب.
ثم جاء صاحبه وقال له:
لقد أرسلتُ الرسالة لأبيها، ووافقوا على الخِطبة، ومهرها الوطن، ففرح الفتى كثيرًا؛ قلبه الذي مات بُعث من جديد..
فأخذ يكتب لها الرسائل، ويناضل في ساحات الجهاد، لم يكَلَّ ولم يمل، جعل صورتها أمامه في كل لحظة، أحبها ولم ينسها أبدًا حتى عاد بالوطن؛ عاد بالمهر، لكنه لم يجد العروس، فالبلدة قد أُبيدت في يوم، ولم يكن فيها مشهد للحياة عندما عاد..
بكى طويلا، ومات قلبه الذي بعث من قبل!..
عاش بلا أمل، بلا هدف سوى الوفاء بالعهد الذي أخذه عليه صاحبه الذي مات في الحرب ودفنه بيديه..
كان حبه لها عميقًا، أعمق من الأيام، يخترق الزمن فلا تقطعه سكاكين الأيام وضرباتها.
تُعْرَضُ عليه النساء فيأبى، ويقول لا أخطب بعد خطبتها، فإما هي أو لا زواج!..
مرَّت عليه الأيام، ووفَّى بكل العهود، أصبح غنيًّا، ولكنه لم يستطع أن يشتري السعادة أو الحب!، إلى أن فقد الأمل، وانتظر الموت الذي يُريحه، فبعد الموت سيرى حبيبته من جديد، سيعود القلب للحياة!..

فوقف هنا يحدثكم ليقول لها -على بُعدها عنه-: "ها أنا عدت بالمهر يا يمان، عدت ومهرك الوطن قد جلبتُه من سنوات، عُدْتُ وفيًّا لم أفتح قلبي لواحدة بعدك"، ولكنها لم تسمع!..

ما زلتُ أنظر كل يوم إلى السماء وأنادي:

ما الحب؟!..

إنه لحظة يتوقف عندها الزمن، ويتحرك عندها القلب، ذكرى تحفر في العقل فلا تُنسى، إن غاب الحبيب عنا، لحظة لا ندري متى تأتي أو كيف تأتي؟!..

هي لحظة يخفق فيها، فيحرك جميع حنايانا، تلك اللحظة التي تتلاقى فيها العيون، فتدل الأرواح التي تفرقت في المهد أن هذا مكملها..

وهكذا عاشت روحي بعدما سكنت في بحث جديد، عن نصفها، عن كلها، عن يمان التي غابت، فغابت معها بهجة الحياة!".

نظر إلى الوجوه التي تأثرت بما قال، لكنَّه تجاهلهم جميعًا وأخرج الورقة التي أرسلتها إليه يوم الخطبة، وقبض عليها بشدة، ثم رفع رأسه إلى الأعلى، وابتسم.

****

تَمَّتْ..

عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْهِلَالِيّ

رابط الرواية على موقع جود ريدز

https://www.goodreads.com/book/show/36014652

عبدالرحمن الهلالي

facebook.com/AbdooHelaly

محمد حسن

facebook.com/m.hassan.124